

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الانسانية

قسم اللغة العربية و آدابها

شعرية الخطاب الإقناعي في النص التوحيدي
الإشارات الإلهية "نموذجا"
دراسة تداولية أسلوبية

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية و آدابها

تخصص البلاغة العربية و شعرية الخطاب

إشراف :

* د. العلمي لراوي

إعداد الطالب :

*سمير إدريسي

أمام لجنة المناقشة:

جامعة الحاج لخضر باتنة

رئيسا

أ/ الدكتور: عبد الله العشي

جامعة ام البواقي

مشرفا و مقرا

أ/ الدكتور: العلمي لراوي

جامعة منتوري قسنطينة

عضوا مناقشا

أ/ الدكتور: الربعي بن سلامة

جامعة العربي بن مهيدي ام البواقي

عضوا مناقشا

أ/ الدكتور: لخضر عيكوس

السنة الدراسية: 1433/1432

الموافق لـ: 2012/2011

إهداء

:

:

:

السيد جورج قلاوي ، للإنسانية معنى واحد ، شكرا

إلى قابيل أما أن لك أن تواري سوءة أخيك

شكر خاص

.....

:

الأستاذ الكريم العلمي مكي : أحييتم روح المثابرة في نفسي.....

الأستاذ الحبيب أخي الدكتور دكدوك و أسرته الكريمة

في ذمتي كرمكم و تشجيعكم و ثقتكم

.....

إلى هؤلاء جميعا أقول نعم الأھ

لكم مني جميعا : جميل الشكر و العرفان " تواضعكم أعياني "

مفاتيح

منزل عام

تمهيد:

جاء اختياري لموضوع الشعرية والخطاب وعلاقتهما بالإقناع استجابة لطغيان أسئلة الفكرة ذاتها التي تبلورت موضوعا للبحث والدراسة بعد نضج تشبع بالقراءة والبحث والمساءلة والجدل المثمر، يضاف إليه أن الموضوع ذاته يستجيب لحاجات المشروع وأسئلة التخصص التي طغت في ما يشبه الأرق على فكرة أستاذنا الفاضل الدكتور لخضر عيكوس أعني بذلك البلاغة العربية وشعرية الخطاب.

وإذا كان الباحث والموضوع يسيران معا نحو المعرفة سندرك بأن الموضوع لم يكن سهلا بالتأكيد، ولعل الصعوبة الأساسية كانت مطروحة على مستوى تدقيق المفاهيم المركزية التي اقتضتها سيرورة البحث خاصة وبالأساس مفاهيم: الشعرية، الخطاب، الإقناع، هذه المفاهيم التي شكلت الاعتبارات الحقيقية لاختيار الموضوع كونه يتشظى إلى ثلاثة أبعاد: بعد ذو طبيعة إشكالية وبعد ذو طبيعة أدبية وبعد ذو طبيعة حضارية.

طرح إشكالية البحث:

أولاً: إشكالية الشعرية وعلاقتها بالبلاغة وخطاب التراث إذ لم تكن البلاغة لتفي بغايات الدراسات الأدبية التي يقع على عاتقها إعطاء تفسير ينطوي على موضوعية ما للنص الأدبي، ومن جانب آخر فقدت الصورة الشعرية مع الشكليين مفهومها القديم الذي يعطيها سمة الهيمنة على الشعر بوصفه تفكيراً بوساطة الصور حسب التحديد القديم وأصبحت الصورة وسيلة من وسائل متعددة للغة الشعرية.

لذا تبلورت مفاهيم كلية تنطوي على قوانين الأعمال الأدبية وقد أجملت هذه المفاهيم بمصطلح واحد هو الشعرية (poetics) وهي قوانين الخطاب الأدبي وهو مفهوم عام منذ أرسطو، الوقت الحاضر، غير أن الشعرية الحديثة لم تنحصر في نظريات الأدب بل اتسعت لتشمل فنونا إبداعية أخرى واتسعت ليصل البحث في شعرية الأشياء كالمكان والفضاء و التصورات الذهنية، إلا أن هذه النظريات الشعرية اصطدمت برويا التيار اللساني السيميائي وهو مدى موضوعية هذه الشعرية في استنباط قوانين النص الأدبي والحجة عندهم أن الخطاب الأدبي رسمت حدوده التقاليد ولم تحدها المقاييس الموضوعية الشكلية.

إن الشعرية تستنبط القوانين التي توجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية فهي تشخص قوانين الأدبية في أي خطاب، والبحث في شعرية النصوص الإبداعية سيبقى دائما مجالاً خصبا لتصورات ونظريات مختلفة.

إن الشعرية تبحث في النص ذي البنية المفتحة لاستنطاقه من طرائق شتى باعتباره فضاء ذا معانٍ متعددة، فالنص موضوع الشعرية التطبيقي، وليس النص هو موضوع الشعرية بل جامع عامة التي ينتمي إليها كل نص على حدة.

فما الذي يمنع من تعاطي نظريات ومناهج النقد الحديثة لاستنطاق نصوصنا الأدبية ذات العوالم المفتوحة محاولة لإعادة النظر في أنماط التعامل مع النص الأدبي وفهم الظاهرة الأدبية يمنع من إدراج الشعرية ضمن علوم تهتم بالخطابات وتتخذ الدليل في مختلف تجلياته موضوعا لدراستها؟ ثم يؤكد على صلة الأدب من حيث هو خطاب متميز بالخطابات و الممارسات الرمزية الأخرى مثل الخطابات الفلسفية والسياسية والدينية والمنطوق اليومي ويصهر ذلك في إطار المشروع الشعري العام: إنتاج علم الخطابات مهما تعددت وعلم شروط إنتاج المعنى أليس الخطاب هو الوعي باللغة في أساس الفعل.

ثانياً: الخطاب والجنس الأسلوبيات ومناهجها المتعددة ذلك أن هذا العلم هو أكثر تطوراً وأشد حساسية تجاه النص الأدبي الذي لم تستطع البلاغة و الأسلوبيات أن تتعامل معه على تواصل عميق. فقد استطاع هذا العلم التعامل مع الشبكات الدلالية و الثقافية والاجتماعية والدينية والنفسية والسيميولوجية للنص الأدبي بدقة وعمق. إن هدف هذا العلم مساعدة المتلقي على المعرفة وفهم النص الأدبي فهما سياقياً ودلالياً للمرسل و المرسل إليه.

و الواقع أن الجنس الأدبي هو عبارة عن كبسولة مضغوطة بالمعلومات ذات الأبعاد الحضارية المتشابكة، وفتح هذا الكبسولة وتفكيك ما فيها ثم توزيعه توزيعاً وظيفياً ثم إعادة تركيبه يعد من أولى مهمات علم الخطاب وهذا يجعلنا نطرح السؤال الآتي:

ي خارطة علم الخطاب؟ وكيف يعالج هذا العلم ذلك الجنس؟ وإذا كان النص عالماً نسبياً مفتوحاً لا يعرف التحديد والتقدير والتعديد والايديولوجيا فإلى أي مدى يمكن لعلم الخطاب أن يستثمر اللغة بكل طاقاتها لتعبر عن هذا النبع الإبداعي اللامتناهي؟ أليس من وظيفة علم الخطاب أن يخرج الجنس الأدبي من أغلال المعايير النقدية والقواعد الصارمة إلى بواكيره الأولى القائمة على الطبع و العفوية.

ثالثاً: الإقناع:

إن تأسيس البرهان والمحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر قد تجاوزت هذه الرؤية دراسة المنطق القضائي إلى الفلسفة و الايدولوجيا بصفة عامة وما يلاحظ على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللغة التواصلية وإنها ليست منبئة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية على اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان. وقد كان القدامى يقرنون الجدل بالبلاغة لأنهم يرون أن الفكر الجدلي مواز للفكر التحليلي كما أن هدف البلاغة قبل كل شيء هو فن الكلام المقنع للجمهور فهي التكلم بالخطب التي تلقى في الميادين العامة وتستهدف الحصول على تأييد للأطروحات المقدمة وعليه هل يمكننا تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية ولعل من أهم المبادئ التي تعيننا في هذه البلاغة ربط الشكل بالمادة ومقاومة الاتجاه المدرس إلى الفصل بينهما على أساس أن تقنيات العرض و التقديم لقيت نجاحا أدى إلى أن تنحصر في المجالات البلاغية اعتمادا على تصورهما باعتبارها فن الكلام والكتابة الجيدين أي فن عرض الفكر بطريقة شكلية محضة.

لا بد من الثورة على هذا التصور الذي يعد السبب في تدهور البلاغة وعمقها واحتفائها بالجانب اللفظي، ولا يتأتى ذلك إلا برفض أي نوع من الفصل بين الخطاب وبين الشكل المضمون وعدم دراسة الأبنية والأشكال الأسلوبية بمعزل عن الهدف الذي ينبغي أن تؤديه في عمليات البرهان و الإقناع ذلك أن الإقناع أبرز إشكالية في عالم يعرف تقدما بسرعة متواتر وسائل الاتصال والإعلام الأمر الذي يسمح بإتاحة فرص أرحب للحوار و الاختلاف و التنوع زرعاً لثقافة التواصل و الإقناع (حوار الحضارات) بعيدا عن ثقافة التهميش و الإقصاء و الهيمنة و الاستبداد (صدام الحضارات) قصد تشكيل خطاب يتميز بالأنسنة كبديل عن العنف و التط . فتجديد الصلة بالإقناع ينطوي على إعادة الاعتبار للممارسة الحوارية وليقيم الاختلاف التفاعل أمام الانهيارات وأشكال العنف المشكلة للمشهد العالمي الراهن وما دمنا متواصل ونتحاور فثمة إمكان لإحداث التغيير و التغيير وتلك لغة التداول و منطق التحول. وتجديد الصلة بالإقناع دعوة إلى تحديد المفهوم ذاته ذلك أن الإقناع هو مطالبة المتكلم غيره بمشاركته أرائه ومطالبه لا إكراه فيها ولا قمع بل تتبع في تحصيل غرضها سبل استدلالية متنوعة. واهتمام البحث ببلاغة الخطاب الإقناعي يعني إعادة الاعتبار للوظيفة الاجتماعية التي تؤديها اللغة الإنسانية وبهذا فالبلاغة تنظر إلى اللغة على أنها خطاب أي بوصفها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية.

التقاطع بين التخيل

أتاحت لي أبعاد الموضوع الأسئلة التالية قصد بحث الإجابة في حدود ما تسمح به المذكرة وهذه الأسئلة هي:

- ما علاقة الشعرية بالبلاغة وما ملامحها التراثية؟
- ما مجالات التلاقي بين الشعرية و الإقناع؟ وهل كان الوعي بالمصطلحين في خطاب
- هل تحقق الحضور للمصطلحين في النص التوحيدي؟ وما حدود الوعي بهما؟
- كيف تشكلت خصائص الشعرية و الإقناع في النص التوحيدي؟
- هل يؤسس النص التوحيدي في الإشارات لخطاب جديد يستجيب لمتطلبات الراهن؟
- كيف يمكننا الاستفادة من وسائل هذا الخطاب وسبله في الإقناع؟
- أليس من المفيد أن تستجيب هذه الدراسات الشعرية وخطاب الإقناع إلى مطلب حضاري ملح هو أنسنة الخطاب؟
- ما الذي يمنع من دراسة السجال السياسي و الخطاب الإعلامي و الإشهاري و الديني في إطار يسمح بالتأليف بين رافدي الخطابى والشعري بمعنى هل من إمكان لتقاطع التداولي

لم يكن غائبا عن البلاغة العربية القديمة بل إن انشغالها بالخطاب واشتغالها عليه انصب على الذي يتقاطع فيه التداول و الشعري، وهذا ما نبه إليه اللسانيون والبلاغيون والنقاد العرب المعاصرون من كون البلاغة تتحدد بعنصرين أساسيين الأول مطابقة الخطاب لوضعية التلفظ أي الاهتمام بالعلاقات بين المتكلم و المخاطب و الثاني تزيين الخطاب بالطريقة التي تثير إعجاب المخاطب.

حدود الدراسة (المدونة):

ولأنها كذلك أي البلاغة العربية فقد كان لزاما أن أختار مدونة تستجيب لهذه الرؤية من منطلق التساؤلات السابقة ولا تذهب بعيدا عن مدرسة الجاحظ وما توصلت إليه من محاولات التأليف بين الرافد الخطابى و الرافد الشعري هذه المدونة هي " كتاب الإشارات الإلهية و الأنفاس الروحانية

" لأبي حيان التوحيدي لتطبيق المنهج، ذلك أن موضوع المدونة يدور حول الذات الإنسانية فقد كتبها التوحيدي لنفسه بعد أن انتكس في الحياة التي أوصدت أبواب الأمل في نفسه وفشله في طموحه إلى المعالي فكان أن مال فيها إلى التصوف، وهي تتكون من أربعة وخمسين رسالة عدل فيها أبو حيان عن التصنع الذي أثقل كاهل الكتابة بألوان البديع إلى أسلوب دمث. وكتابات التوحيد نمط فريد ومتميز تمزج فيه عدة طرائق إنشائية لكتاب أفاذ: الصفاء و السهولة و البعد عن الصنعة و الزخرف وقد وصفه ياقوت الحموي في معجم الأديباء بأنه إمام البلغاء محقق المتكلمين ومتكلم المحققين فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة وقال فيه البعض إنه ألوا إنه أجزل من الجاحظ لفظا وأوسع علما لأن الجاحظ عاش في

القرن الثاني و أبو حيان في القرن الرابع وشتان بين قرن نشأ فيه العلم وقرن صار فيه ناضجا. كما جمع بين تراث اليونان وثقافة العربية ولم يكن أديبا فقط بل أديبا فيلسوفا وقد جمع إلى جانب ذلك نفس حساسية وعاطفة حادة ووجدان مرفه مما جعل كتابته مزيج من الفكر و العاطفة ومن العقل و الخيال ومن الحكمة و الوجدان فهو يمزج الأدب بالحكمة و التصورف بالفلسفة.

حدود موضوع الدراسة:

وإذا كانت الأنواع الأدبية ليست قوالب جامدة ولا صور ثابتة متحركة فمعنى ذلك أننا نقاوم الشكل اللغوي الذي يطغى سيره على توجهاتنا في العالم ذلك أن العالم الحقيقي قائم إلى حد بعيد وبصورة لا شعورية على العادات اللغوية لدى الجماعة وعندئذ فليس ثمة حكم واحد من أحكامنا الموروثة له صفة القدسية فالفكر الإنساني سلسلة مستمرة من التساؤلات التي يثيرها الند الافتراضات المسبقة المكتسبة فالفكر الإنساني سلسلة مستمرة من التساؤلات التي يثيرها الناس حول الافتراضات المسبقة المكتسبة و التي تستبدل بأفكار جديدة أفضل تصبح بدورها للأجيال المقبلة عادية إلى أن يأتي إنسان آخر بفكرة أفضل منها لهذا العالم أن لا نحترم أي إطار لغوي مفاهيمي معين عادية يتحول إلى سجن مفاهيمي وبالتالي أليس من الظلم قراءة النص الأدبي كونه حاملا لمضمون ثابت ومحدد وليس تجربة تفاعلية (مؤلف نص قارئ) وبالتالي تغيير عادة القراءة ما دام الإبداع الأدبي يحمل عناصر تخيلية تثير القارئ وتمد جسور التواصل بينه وبين النص. إن على الناقد أو القارئ أن يتفاعل مع النص وليس شرح فكرة أو مضمون ثابت فيه يتعالى عن التحولات الزمنية ذلك أن الضرورة الابستمولوجية تستدعي التعرض لتحديد ماهية النص باعتباره شكلا للتواصل عبر الخطاب وهذه التساؤلات العميقة هي مجرد ظاهرة حديثة لـ

تشغل الشعرية القديمة وهي وليدة تقاطع بين الشعرية و اللسانيات لذا وجب معرفة الجذور المعرفية التي أطرت هذه الأسئلة في مجالها اللساني.

وإذا كانت لذة البحث لا تنفصل عن آلامه فإن لنا ان نحدد هذه الأخيرة من خلال رصد موجز لبعض الصعوبات التي اعترضت سبيلنا لنكشف أن البحث رهان على الآتي باستمرار:

1 غموض الخطاب الصوفي وتعدد قضاياها يقابله ندرة الدراسات الحديثة لأن الخطاب الفقهي و العقائدي من بعده قد رسخا كفته ومن هنا كانت العودة إلى كتب التصوف اكتشاف لمناه معرفي مريبك بعمق تصوراتها.

2 عري هو بحث في الاحتمال فنصوص التصوف مشروعة على التأويل وتكثيف السؤال وتجذير لانهائية القراءة.

3 اللغة الصوفية خلخلة في بنية التعبير بخلقها للغة شعرية جديدة.

4 معاناة المتصوفة مع اللغة واصطدام بمحدوديتها وبعدم قدرتها على الاستجابة لسفرهم نحو

5 ض إعادة قراءة التصوف في ضوء المعارف الجديدة ومقاربة تقاطعها مع اتجاهات أدبية حديثة بدعوى الجانب الديني الذي يسيجها هو كبت جديد التجربة الصوفية لما يتضمنه من اختزال لها من جهة.

والتساؤل الذي نطرحه في ضوء النص الصوفي للتوحيدي لماذا أولت صوفية التوحيدي لخيال مكانة خاصة؟ ألم يكن خطابا موجها للنظام المعرفي وضمنه النقد العربي القديم الذي كان يعتبر الخيال مرادف للظن و الكذب؟

ألم تخترق الصوفية للغة التداول و التواصل لماذا مورس كبت على الخطاب الصوفي فلم يدرج من قبل الشعرية العربية القديمة في خانة اهتمامها، بل لا زالت مناهج التعلم وبرامجها الحديثة تصر على تدريسه في مادة الفكر و الفلسفة دون تخصيص حيز في مادة الأدب.

إن خطاب التوحيدي ولغته تطرحان ضمن خط التحول في الثقافة العربية القديمة اكتشاف للإشكال الوجودي و المعرفي في ذلك أن تجربة التوحيدي لم تبتكر عالما وحسب بل خلقت للعالم لغته الخاصة و مفاهيمه وأشكاله لطرحها بدائل لطرق المعرفة بإنتاجها عبر الحب و الخيال والذوق و الشعر باعتبار أن العناصر الشعرية من خيال ورمز و حدس و غيرها من أدوات لإنتاج معرفة لا تضاهي العقل و الحس فحسب.

له الأدعية الصوفية المستحسنة البليغة ذلك أن الدعاء واحد من أقسام الكلام لدى العلماء و التداخل في هذه الأقسام للكلام العربي يخدم المعاني و الأغراض

التي هي مراد المتكلم فإن الفرضية النقدية التي ننطلق منها هي أن النص النثري الصوفي الذي نشغل به نص أدبي تصويري يمتلك سمات خاصة به تتيح له القدرة على بلورة رؤيا أبي حيان لذاته و للوجود من حوله.

وقد يميل بعض الدارسين إلى التأويل الدعاء كخطاب ديني فنقول أن المنهج الحديث في أجد نظرياته يصنف الكلام إلى أضرب عديدة لا يمثل الخطاب الإبداعي الذي هو الفن الشعري إلا أحدها إذ منها الخطاب الديني و السياسي والقضائي و الأشهاري ومعنى هذا التصنيف أن الدراسة فيه تنطلق من فرضية مبدئية تقول بوجود خصائص قارة تتحكم في كل صنف من تلك الأصناف حسب نوعيته.

فالخطاب الديني مؤثراته لذلك اتجهت بعض حلقات الدرس في مؤسسات عليا من البحث و خاصة في فرنسا إلى استشفاف خصائص الخطاب الديني انطلاقا من تحليل مقارنة لنصوص أخذت من القرآن و الإنجيل و التوراة ففرعت الخطاب الديني إلى مستويات منها السردى و التصويرى و التنبئى ...

و قد لفت إنتباهي في الإشارات إلى الدعاء يؤسس لظاهرة بيانية لها طريقها في الخطاب القرآني لفظا و سياقا و نظما و قد حاولت تلمس بعض مظاهر و دلالات الدعاء من معانيه ومستوياته فضلا عن تراكيبه الفنية .

و الدعاء ظاهرة إنسانية عرفت في الحضارات القديمة و الديانات السماوية لها معالمها من حيث وضوح دلالتها و أقسامها و أنماطها إذ له مكانة في لسان البشرية و له صدها في النفس الإنسانية و تبرز أهمية الدعاء عند الأمم القديمة في ما وصلنا من كم هائل من الأدعي

بمختلف اللغات القديمة و من حضارات متعددة جعلت من الدعاء مصدرا كتابيا لدراسة ديانة ديمة و هي كما يرى الدكتور طه باقر طراز أدبي خاص كما يرى بعض الباحثين أن النصوص الدعائية نصوص أدبية عالية المستوى و لعله أقدم أدب عرفه الإنسان كما صنف الدعاء ضمن الحضارات القديمة و لا ريب في ذلك فما دام الدعاء أرقى العلاقات بين الإنسان خالفه بد أن توازي وسيلة التعبير تلك العلاقة فتكون حين إذ فياضة بمعاني العاطفة الخالصة التي تحركها جبلة الإنسان .

و إذا نظرنا إلى أحد تعريفات الأدب بوصفه صلة بين المنشئ و المستمع وجدنا الدعاء صلة كذلك لأنه سبيل يجسد تلك العلاقة بين خالقه نابع من فيض مشاعره و الأساليب الادبية .

كما يجدر الإشارة إلى أن الدعاء يشكل وجها من أوجه الخطاب البياني بتعدد صوره
أساليبه و تنوع مستوياته يعالج قضايا و يستجيب لحجته النفسية
الاجتماعية و مواهبه إلى إيجادها لذا فدراسة الدعاء كأسلوب خطابي له
مفهومه لدى الأصوليين و النحاة و البلاغيين فضلا عن تمثله بطرق و صيغ ذات إشارات و
سياقات دلالية.

بنية البحث :

تصميم البحث و منهجه و صعوباته

و قد جاءت هذه الدراسة البحثية ذات أبعاد نظرية و تطبيقية حيث توزع الـ

حدد عنوانه بالمفاهيم الإجرائية و المقاربات النظرية تعرض البحث إلى الأبعاد
الإشكاليات التي رسمت معالم ا
التفاعلي
الأدبية و الحضارية.

و أهتم البحث في الفصل الأول بالمنهج التداولي في التراث البلاغي العربي كمحاولة للبحث
عن ملامح التداولية في نصوص البلاغيين الذين حاولوا التأسيس لمفاهيم إجرائية في الميدان

و تناول البحث في الفصل الثاني الشعرية و فعالية الخطاب (النص) المرتكز على الإقناع
الحجاج فالنص يقوي من حظوظ نجاحه بخصائصه الشعرية بإبراز الشعري في الإقناع .
أما الفصل الثالث فكان تطبيقيا حيث خصص لدراسة دراسة إجرائية قائمة على
الأسلوبية و التداولية من خلال ما إليه الدراسات الحديثة و المفاهيم التي طرحها أوستين
بيرس و طه عبد الرحمن كما تناولت الدراسة وظائف الخطاب التوحيدي و ما حققه من شعرية و

أما الخاتمة فكانت تسجيلات لأهم الملاحظات المستخلصة و ما نتائج متوصل إليها كشف
عنها البحث كإضافة متواضعة تؤسس لمشروعية السؤال في مجاهيل هذا الميدان الذي لا يزال

حدود منهج الدراسة :

و قد عمدنا إلى المنهج التداولي في هذه الدراسة لأنه يشكل تحولا معرفيا في بلاغة الخطاب حيث تجاوزت نظرية الأدب الإطار المحدود للبنىوية لتشهد تألق واضح بفعل كفاءة التلقي و التنظير و ضرورة بالغة الأدبية كنظام يتطلب تجاوز مستويات الجملة و النص معا ليشمل الأدبية بها في شمولها خلال دائرة التواصل موقف تداولي في شرح عمليات الإنتاج و التلقي الجمالي للأدب ضمن ما أطلق عليه تسمية النماذج الثقافية . لقد الشعرية مضطرة إلى بالتأويل و جماليات التلقي و تحليل النصوص عند إنتاجها و قراءتها .

المراجع و المصادر

في البحث على مصدر أساس هو الإشارات الإلهية أما المراجع فتوزعت بين القديم و الحديث و المترجم و بعض المجالات و الدوريات .

الصعوبات :

البحث فيمكن إجمالها في :

حدائثة المبحث في محيط الدرس الأكاديمي و ندرة الدراسات .
قلة المراجع التي تستجيب لمتطلبات البحث .

عدم استقرار كثير من المفاهيم و المصطلحات منها و موضوعا .
يضاف إليه توزع الموضوع بين التراث و المعاصرة و المنهج المطبق لم تحدد معالمه و ملامحه النهائية في مجال التطبيق فالتداولية موزعة بين الدراسات اللغوية و الأدبية .

الأفاق :

و يقابل هذه الصعوبات رغبة في فتح أفاق جديدة تهدف إلى تضييق مساحات المطاردة بين التراث و المعاصرة عبر تواصل واع و جاد يردم الهوة بين الضفتين من خلال استثمار سليم لنظريات اللسان الغربية خدمة للنظرية اللسانية العربية نحو التطوير و جعلها تستوعب المستحدث متولدة بفعل ثورة المعلومات و خدمة للظواهر الحضارية و اللغوية و حتى نتمكن من التقريب بين مساحة التنظير و التطبيق

إن طرافة الموضوع وجدة المنهج حقًا لي متعة في القراءة و إصرارا في بحث إشارات التوحيدي مسترشدا من الرأي السديد لأستاذنا الدكتور لرواي العلمي الذي نأمل أن لا تمنعه شطحات مريد على عتبات الدرج الأول من البحث من أن يصل بالبحث و صاحبه إلى مرافئ الفتوحات العلمية و منازل الفكر السنية .

مدخل:

" إن مؤسسي العقل الإنساني هم فقهاء اللغة "

أرنست رينان (مستقبل العلم الحديث)

الاتجاه التواصلي للغة

قدرة الإنسان على صنع الكلمات و صياغة الرموز التي تمثل عالمه الخارجي و عامه الداخلي على السواء هي أهم الخصائص التي تميزه عن بقية الكائنات ففي محاولة الإنسان فهم البيئة التي تعيش فيها و حل ألغازها يصوغ أنساقها رمزية أو لغات يمكنه عن طريقها بناء هذه

العملية و نقلها إلى الآخرين فالكلمات تمد الإنسان بقوالب يصب فيها كاره و مفهوماته تصوراته مثلما تزوده برموز تعتبر عن معتقداته و قيمه و لكن على العكس من بعض الرموز

كثيرا من التأويلات التي تختلف من شخص لأخر مثلما تختلف باختلاف الظروف الأوضاع و هذا هو ما يعطي الكلمات خطورتها و أهميتها في عملية الاتصال فاللغة إذن باختصار هي أداة الاتصال الرئيسية في المجتمع الإنساني لأنها هي الوسيلة الأكثر فعالية في مكين الفرد من الدخول في علاقات و تفاعلات اجتماعية مختلفة مثلما هي أداة الرئيسية في عملية التكامل مع الثقافة التي ولد فيها مشكلة بذلك الاتجاه التطبيعي للفرد في المجتمع غير ذلك لا يعني تساوي الفهم بين أفراد سلالية كثيرة تؤدي إلى تفاوت الأفراد في

و مازال موضوع اللغة و الفكر و تحديد العلاقة بينهما من أشد مباحث علم اللسان تعقيدا و أكثرها طرافة في الوقت نفسه و قد تنازع البحث فيه اللغويون و الفلاسفة كل يحاول تحديد العلاقة التي تربط بين اللغة و الفكر.

فما من شك في أن اللغة الإنسانية تحمل في طياتها شيئا أكثر من كونها أصواتا و ذلك بما فيها من تعبير عن دلالة معينة يعكس الحيوان أو الكائنات الحية الأخرى التي تصدر أصواتا بل لعل لها لغة خاصة لا نفهمها نحن بني الإنسان يقول ن بجنسه و نوع من التنظيم الذهني الفريد في نوعه لا نستطيع إرجاعه إلى بعض من الأعضاء أو ربطه بالذكاء عامه... فالكلام الإنساني قادر على أن يكون وسيلة لإبلاغ حر و تفكير حر¹.

لقد ميز عصرنا حسب رولان بارت² حدثين أساسيين هي

أسرار عالم اللغة و ثانيا غزو الفضاء و بالفعل فإن السانيات المعاصرة و هي العلم الذي يدرس كل أشكال التواصل الإنساني تشكل جزءا من مجال نظري هو حقل علوم المعلومات

إن عصرنا هو عصر التواصل سواء في الأجهزة السمعية البصرية و ما يرافقها من تكنولوجيات أو في التنظيم الاجتماعي بواسطة الحاسوب في عصرنا علم إستراتيجي فكل المعلومات يقع تخزينها بواسطة اللغة و تعالج و توزع و تطور باللغة و في اللغة و ليس أدل

¹ - الحبيب اللوزي الحياة الثقافية تونس 1977 19.

² - ناقد و فيلسوف فرنسي (1915 1980) أثر في تطور المدارس اللسانية كالبنيوية و الماركسية وما بعد البنيوية و الوجودية كما طور علم الدلالة وهو القائل بلذة النص وموت المؤلف.

الذي أصبح علما تتقاسمه علوم الرياضيات و الفيزياء و علوم الإنسان و التكنولوجيا الحديثة .

لكن ظاهرة اللغة واقع الأمر و إن كانت تحولت في شكلها و مضمونها فهي ظاهرة في جوهرها ملازمة للإنسان بمعنى أننا حين نتكلم هو أننا نستعمل اللغة أي ممارسة قدراتنا الرمزية في ذاتها و إنينها فاللغة ممارسة قولية و اللغة مع ذلك ممارسة رمزية و خيالية لأنها تحيل إلى أنساق رمزية يغرق فيها الفرد و لا يمكنه النجاة منها لأننا نفهم اللغة باللغة نتكلم اللغة التي حددت من قبل فكرنا و رغم ذلك و رغم ذلك يمكننا القول بأن اللغة هي عالم الإنسان أو كما يقول هيدجر يسكن الوجود اللغة فاللغة هي التجربة العميقة و الأكثر أصالة و إفا للإنسان إنها عمالمة منعطف الثقافة و موطن الوعي و مجال العقل و اللا عقل و حيز التعبير التوصل .

و تطرح قضية اللغة في نطاق مرجعين أساسيين :

1 مرجع فلسفي ينطلق من أفلاطون إلى أن يصل بنا إلى مرتان هيدجر و أوفيك فتشجننا ي و فلسفة اللغة المعاصرة الفينمينولوجية .

2 مرجع علمي يتوزع بين اللسانيات و علم العلامات و الأنترولوجيا و نظرية المعلومات و علم الأعصاب البيولوجي

إلى جانب هذه القضايا حاولت فلسفة اللغة أن تتخلص دلالات فهم اللغة عمليا و علم التراكيب و علم الأسلوب و علم العلامات و فقه اللغة لذا برزت ست علامات لتطور الفكر اللساني و لعلاقة اللغة بالعلوم الإنسانية .

هتمام الفلاسفة و النحاة في الفكر القديم و الوسيط بوصفها وسيلة :

لفكر النحوي العربي دور أساسي في التأويل المنطقي للغة و التأويل المنطقي لها .

ثانيا : مرحلة تغيير المعطيات فاللغة لم تعد مجال تأويل ديني أي تفسير بل كما يبين ذلك سبينوزا أصبحت مجال قراءة يصبح التأويل فيها عملية تحليل للمعاني في تكوينها و إحالتها على سياقها التاريخي و في نفس المرحلة تقريبا بدأت علامات صياغة نظرية واقعية لتكون اللغة مع توماس هوبز و جون لوك وسيلة التعبير المفضلة عن الأفكار و لها آليات في ذاتها و آليات تصوغ بها المعرفة في المفاهيم و هذه الخطوة الإبتملوجية كانت حاسمة من أجل صياغة إطار عام يميز بين نظرية المعرفة و نظرية اللغة و نظرية المنطق .

ثالثا : أصبحت اللغة تشكل بعدا جديدا في صلتها فوسعت نطاق مقاربة اللغة ليشمل كل ما يتعلق بالتخاطب و التحاور و التفكير و المعرفة ...

: مرحلة التوازن بين دراسة الفلاسفة للغة و دراسة فقهاء اللغة لأصلها و فصلها و جذورها فلقد أصبحت اللغات لغات في الزمن تفهم من مفاهيم النمو و التحول و التطور

: مع ثورة علم المنطق و الرياضيات في القرن التاسع عشر استقل مفهوم المعني عن مفهوم الدلالة و مفهوم الإشارة و أصبح بالإمكان الحديث عن صياغة منطقية للغة و إمكانية

لقد استقلت اللغة عن الأفكار كما استقل المنطق عن الرياضيات و الفلسفة و انطلقا من هذه الأطروحات تحولت فلسفة اللغة و اللسانيات في نفس الوقت لقد أصبحت اللسانيات مع فردينان دوسوسير¹ علما قائم الذات ينطلق من مفهوم النسق ليدرس طبيعة الدليل اللغوي و علاقة الدال و المدلول و يقسم الدراسة اللسانية إلى دراسة اللسانية إلى دراسة زمانية تطويرية و دراسة أنية ثبوتية ليستخلص بنية اللغة أب العلاقات الشكلية الخالصة التي تربط مطوناتها كما هو الأمر في المنطق و الرياضيات . إن هذه الإبستمولوجية هي فعلا أساس اللسانيات المعاصرة فكل الإنجازات اللسانية إنما ترجع في حقيقة أمرها إلى هذه المصادر البسيطة .

سادسا : أما المرحلة الأخيرة من تطور الفكر المتعلق باللغة و اللسانيات فهو عصرنا الذي أصبحت اللغة فيه تكنولوجيا للغة مع الهندسة المعلوماتية و وسائل الجماهيري و الدور المتنامي للغة في فهم الوعي و اللاوعي و المجتمعات إن عصرنا هو عصر اللغة من حيث أنها مؤسسة تختزل فيها الثقافة برمتها و من حيث أن حياتنا أصبحت منصهرة في الخطاب التكنولوجي للغات الاصطناعية و الذكاء الاصطناعي و أن الرهانات التي أصبحت متعلقة بفهم اللغة مبنا و معنا و استعمالها في وظائفها المتنوعة حاسمة و مصيرية .

إن فهم للإنسان لذاته و عالمه يرتكز على اللغة التي تعبر عن هذا الفهم و كان السفسطائي الإغريق (جورجياس و بروتاغوراس) هم الألوان الذين وعوا هذا الأمر بدقة في حوارهم مع سقراط و من أمثلة ذلك الاهتمام الذي نجده لدى أفلاطون بنظرية اللغة و كان أفلاطون يتساءل في محاوراته لكرايتيل عن التعريفات و الحدود أي عن المعنى الدائم للكلمات و الجمل و حول صوابية الكلمات أو استقامتها .

¹ - فردينان دوسوسير (1913 4857) عالم لغويات، النيبوية في اللسانيات ركز على دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية أثر في: ستروس، لاكان، تشومسكي، فوكو، دريدا، جاكبسون.

و في كتابة حول التأويل يقرر أرسطو أن كل قوانين المنطق تقوم على صفات الجملة فقد تعرض أرسطو للمجاز و خصوصا العلاقة بين المنطق و اللغة و أثرها في التواصل أو التخاطب و لما كانت للغة هذه الأمية فقد مثل اهتمام الخطابة و اللغويين سواء من حيث بناؤها أو وظيفتها أو مكانتها .

اللغة في الفكر العربي

لقد تناول اللغويون العرب مسألة طبيعة الدال و المدلول¹ و هل أن اللغة موضوعة أم أنها سرمدية طبيعية و تعرضوا لصلة الإنسان بالمنطق و يمكن لنا أن نقدم ثلاثة أمثلة موعلة في حذف قضايا اللغة و فلسفتها أولا مثال ابن جني و ثانيا مثال ابن خلدون و ثالثا التوحيدي باعتباره موضوع الدراسة على أننا لم نراع الترتيب الزمني في هذه الدراسة فما هي دواعي الاهتمام باللغة في الفكر العربي و ما هي قضايا ؟ .

كان الجاحظ من الأوائل الذين ادخلوا أشكال القياس المنطقية في أساليب البلاغة يراد بها الخطاب أو البلاغة بالمعنى الاصطلاحي و نجد للجاحظ أثرا في الناحيتين . أما في الخطابة فأشارته إلى القياس المضمرة في البيان و التبيين و أما البلاغة فما يذكره البلاغيون من أنه هو الذي أدخل الفن البديعي المعروف عندهم بالقول الموجب .

و قام جدال كبير في ما بعد حول مسألة البلاغة أهي في اللفظ أم في المعنى ثم دار الباحث في اللغة أهي توقيفية فطرية أم فن وضع الإنسان و بالتدرج رجحت كفة الرأي الفسفي القائل بأنها

و يرى جانب أثر المنطق اثر العلوم الرياضية أو التعليمية و كما جمع النثر الذي يجري في أيضا بحسب مبدأ معين كالوزن الشعري

و يقسم خلدون بصفة عامة العلوم إلى صنفين كبيرين : العلوم العقلية و العلوم الشرعية النقلية على أن هذه العلوم الشرعية لا يمكن أن تقوم بدون أن تعتمد على تمدها بها بعض العلوم الملحقة بها التي يجملها خلدون في علوم اللسان العربي و هي علم اللغة و علم البيان و علم الأدب و هذه كلها علوم وسيلية عليها العلوم الشرعية و يهيمن على هذه التصنيف لعلم اللغة النزعة النحوية البلاغية .

¹ - ابن جني الخصائص تحقيق محمد علي النجار بيروت دار الهدى -
² - البيان و التبيين

و أركان علوم اللسان العربي أربعة و هي اللغة و النحو و البيان و الأدب و معرفتها
ضرورية في استنباط الأحكام و أدلتها الشرعية .

خلدون كعالم عمران أدرك تعدد اللغات و الألسن و سياقاتها فميز بوضوح تام بين
د و المعنى و بين عبارة المتكلم أي الفعل اللغوي و محتوى الإبلاغ أي مضمون الإرسال و
يتجسد هذا التمييز في طبيعة المقاطع التي يخصصها في مقدمة لعلم اللسان و يمكن استخلاص
هذا الأمر في قوله أعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده و تلك العبارة فعل
اني فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها و هو اللسان و هو .

في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم و كانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات
أوضحها (.....)¹

لقد أدرك ابن خلدون بوضوح وظيفة حفظ الهوية الثقافية بحفظ اللغة العربية بوصفها حاملا للذات
الثقافية العمرانية بلغته و وظيفيا فعلم العمرن هو الذي يربط صلة النحو بالخطاب
باستعماله فالبيان خطاب خاص بمستعمله و هو إنتاج .

طبيعة اللغة و وظيفتها عند أبي حيان

يعرف أبو حيان التوحيدي اللغة² من خلال مناقشته حد الكلام³ بها المؤلف من صوت
⁴ و نجد أن هذا التعريف يجمع بين عناصر أساسه اللغة و الطبيعة الصوتية
الطبيعة الرمزية و الطبيعة الاصطلاحية .

و يعكس هذا التعريف و عي حيان بأن اللغة نظام صوتي في الأساس يعتمد على
الأصوات المفردة التي تتألف بعضها من بعض وفق نسق خاص بها لتكوين رموز مفهومة هي
الحروف و الكلمات فالأصوات المفردة لا معنى لها و لكننا نركب من الأصوات المركبة التي
تستخدمها جماعة لغوية معينة حروفا و كلمات اصطلحت تلك الجماعة على دلالتها و لقد تنبه
التوحيدي إلى أن المهم في طبيعة اللغة و خصوصيتها ليست الأصوات في حد ذاتها بل في دلالتها
و معانيها التي تصطلح عليها هذه الجماعة
إدراكه ضرورة الاتفاق على ترجمة هذه الرموز في العقل إلى دلالات معينة .

و لذا فاللغة الإنسانية تختلف عن نظم الاتصال الأخرى الموجودة عند الإند
عند الحيوان في أن اللغة الإنسانية نظام مركب معقد من الرموز¹ .

¹ -
² -
³ -
⁴ -

1-
2- إيسات: تحقيق وشرح حسن السندوبي المحلية التجارية الفاهرة 1929 308
3- الكلام: مصطلح يعني به التوحيد هنا/ اللغة/ فحد الكلام هو نفسه حد اللغة عنده
4- 309.

و يقترب تعريف أبي حيان من تعريف أبي جني الذي يوضح أن حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم و هو تعريف يتضمن العناصر الأساسية للغة .

لقد أدرك التوحيدي أن وظيفة اللغة هي توصيل الأغراض المعقولة و التعبير عن المعاني المدركة و من ثم يعجز المرء عن الوصول إليها إلا باستخدام اللغة و اللغة أيضا وسيلة يتفاوض الناس بها و يتفاهمون أغراضهم بتصاريفها فاللغة ما هي إلا وسائط بين الناطق و السامع .

و يرى التوحيدي أن ناحية البلاغة لا تملك بسهولة و إن الكتابة بشروطها الصحيح الجمالية عمل يستعصي على الكثيرين و يشرح أسباب شرحا علميا موضوعيا نفسيا و يقدم التوحيدي خبرته الطويلة في الكتابة و آليتها للكتاب و الكتابة صعبة لأن مادتها العقل حسب تعبيره و من سمات العقل بسرعة التحول و الخداع و الوهم كما يوضح النص التالي ***إن الكلام صلف تياه لا يستमित لكل إنسان و لا يصحب كل لسان و خطره كثير و متعاطيه مفرق و له أرن كارن المهر و آباء كآباء الحرون و زهو كزهو الملك و خفق كخفق البرق***²

و لعل الإخفاق في إحداث التواصل داخل النص التوحيدي يشير إلى تلك الأزمة يعيشها التوحيدي مع الآخرين و التي وجد لها البديل السيميائي في باقي مخاطبات الإشارات و أن كنا لا نعدم فيها تلك الإشارات المباشرة و غير المباشرة للدلالة النفسية و المعرفية و الاجتماعية

إن قيام الوجود الإنساني على ازدواجية الظاهر و الباطن يمثل جوهر المفصلة المعرفية التي تحتاج إلى معادلة التوافق و التناغم بينهما لأنها وجهان لحقيقة وجودية واحدة و في ظل احترام الصراع تحاول معظم الخطابات أن تستخدم ضد بعضها البعض أشد أسلحة الاستبعاد و الإقصاء و يسعى كل خطاب لأن يتحول على سلطة يشتهي القمع و التدمير عند ممثليه رغم الفارق بين خطاب يمارس سلطة مستمدة من مصدر خارجي و آخر يستمدتها من آليات الإقناع و الحفز

¹ - محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة دار الثقافة للطباعة 1978 10.
² - أبو حيان التوحيدي الإمتاع 8 و المؤانسة تحقيق عريد يوسف الشيخ محمد بيروت 2005 9

1) مفاهيم إجرائية ومقاربة نظرية:

* تحديدات اصطلاحية:

كان لازما علينا ونحن ندرس نظرية الخطاب الإقناعي أن نمدد نسفا معرفيا بين محددات هذا البحث وعناصره المشكلة له من مفاهيم إجرائية وتحديدات إصلاحية وفق مقاربة تمكن في التوجه نحو مفهوم تنقى البلاغة يقدم على الاختبار الذي يفصل بين بلاغة الحجاج وبلاغة الأسلوب لأنه لا يمكن أن توجد الواحدة دون الأخرى و لأن البلاغة تتألف منها¹ محمد العمري في كتابه البلاغة الجديدة بين التحليل والتداول كان أكثر تركيزا واهتماما بالمفهوم لنقى الذي سعى إلى جعل البلاغة على علما أعلى يشمل التخيل و الحجاج معا²، وذلك من خلال هذه المفاهيم.

1 في تحديد : مفهوم الشعرية :

يرجع أكثر الدارسين والباحثين الفضل في ظهور الشعرية مصطلحا ومفهوما إلى حركة النقد الجديد التي صاحبت النهضة اللسانية الحديثة بداية التسعينيات في هذا القرن مع الفكر البنوي النظر في أنماط التعامل مع النص الأدبي وفهم الظاهرة الأدبية عموما³ مفاهيم كلية تنطوي على قوانين الأعمال الأدبية ، ت هذه المفاهيم بمصطلح واحد هو الشعرية " poetics" .

- وقد شهد الشعرية نموا متزايدا في العقود الأخيرة، ترتب على طبيعة التحولات في نظرية اللغة وما صاحبها من جمالية منبثقة من التجربة الخصبة للمذاهب الأدبية و المناهج البحثية وبهذا فالحديث عن الشعرية وعلم موصولا لا ينقطع ومن ثم فإن إسهام الشعرية في تشكيل بلاغة الخطاب يعد جوهريا.

- إن بلاغة الخطاب التي تعتمد على علم النص في مراجعتها المعرفية التي تنطلق منها لا يمكن أن تكتفي بمجرد إعادة توزيع البلاغية مع الاحتفاظ بالمقولات الأساسية في نظرية اللغة منهج بحث النصوص، كما يفعل بعض التوفيقيين من الباحثين الذي يقعون في تهور خالص منهجيا عندما يلتمسون في القديم مظاهر التوافق مع الحديث بل يحتفظون بمصطلحاته وأدواته الإجرائية.

فإذا كانت البلاغة القديمة حاولت تحديد الفاعلية الشعرية الخاصة بكل لكل على مدة فغن الشعرية البنوية تبحث عن شكل الأشكال أوعى التفاعلية الشعرية العامة لجميع الأشكال.

¹ البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول: افريقيا ، 2005 12

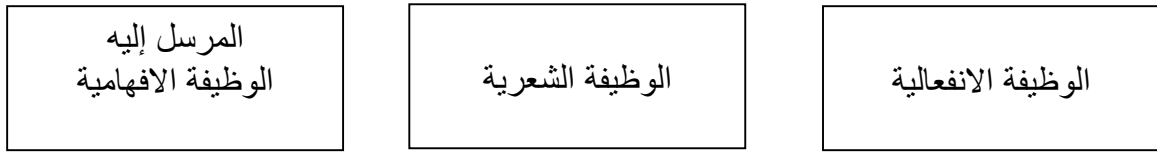
² نزيطان تودروف:

³ م مفاهيم الشعرية ط1، المؤسسة العربية للدراسات 2003 11

- لقد قدمت مبادئ الشعرية عند جاكويون الباحثين أداة تحليلية تقرب نظرية الوظيفة الشعرية في استراتيجيات الخطاب الخاصة للأدب "فالوظيفة الشعرية عنده تتميز كما هو متداول بكثرة عن طريقة العلاقة التي تقوم بين المحورين الأساسيين في الخطاب وهما محور الاختيار والتركيب¹. لاسيما وأن لجاكويون فضل السبق في نطاق نظرية التبليغ (التواصل) والتي تقوم على ستة عناصر هي أسس كل عملية تواصلية: المرسل و المرسل إليه. والرسالة و السياق ووسيلة الاتصال و الشفرة. (destinateur) – (destinataire) (message) (contexte) (code) (contact).

السياق

الوظيفة المرجعية



الوظيفة الانتباهية

وظيفة معجمية

أيرا من الدراسات الشعرية الآن تتخذ محورا لها الحديث عن طبيعة وخصائص اللغة الأدبية، باعتبارها ملتقى نظريات الخطاب المعاصر.

يقول د. صلاح فضل²: يتجاوز مفهوم الشعرية المعاصرة مجموعة المحددات التقنية المشكلة بما كان يسمى بادية الأدب، إذ يحتضن ظواهر اللغة وما وراءها مما يرتبط بأوضاع الخطاب واستراتيجياته. الذي يفتح منفذ جديدة، تستوعب أفق النص الشامل بكل تفاعلاته الحيوية، ويشير خصوصا إلى عصبه الرئيسي، المائل في وجهته، ذلك لأن تحديد هذه الوجهة يسمح لنا الصحيح لنسيج القول ووظيفته معا. كما يبرز العناصر المهيمنة عليه ويعتبر علاقاتها المختلفة مما يتيح الفرصة لرصد التحولات الكبرى للنصوص. -

- فالشعرية (poetics) هي قوانين الخطاب الأدبي وهو المفهوم العام والمكتشف فهذا أرسطو (384 322 ق.م) حتى الوقت الحاضر، إلا أن تعدد الاستخدام وتنوعه وتفرعه على

¹ - - 58 59 - 164 ...

² - صلاح فضل (تحولات الشعرية العربية). 1 2002 للنشر بيروت 45.

مجالات وأجناس أخرى خرج به عن دائره نظريات الأدب فاتع المفهوم ليشمل فنونا إبداعية

- وإذا كان مصطلح الشعرية في الغرب قد حصل على تأشيرة العبور الاصطلاحي بسلاسة إلى مجالاته التطبيقية ولعل مرد ذلك إلى النقد الغربي في تجاوز هذه الإشكالية، فغنه في نقدي واجه توترا شديدا وتناقضا ملحوا في المقولات النقدية و الأدبية.

يعد التفكير البلاغي في الأدب الغربي و الأطوار التي حربها إلى البنيوية الأدبية مع رومان جاكوتون وليفى تتروسن، وتودورون و جرار جينان ووليام كوهين ... وغيرهم واضعين بذلك حدا لا في النقد الجديد التعارض بين نقد نقهي تاريخي ونقد بنيوي موضوعاتي إلى أن تأسست الشعرية نظرية تعني بالخصوصية الأدبية. و النظرية تعني البحث في المفاهيم التي يمحص بواسطتها اشتغال الأدب: إنها البحث اللانهائي في اللغة و الأدب اللانهائين بدورهما¹

ساحة النقدية العربية فنكتفي بما قدمه الدكتور غليس في بحثه لحرفيات

و غليس لحرفيات هذا المصطلح إذ قام بعملية مسح على حد تعبيره الشعرية، مفهوما مصطلحا نظرا للمكانة التي حظيت بها في الخطاب النقدي المعاصر، مقرا بغياب مفهوم " ناجروا تصور واضح لهذا الحد الاصطلاحي لاسيما في تراثنا النقدي العربي القديم الأمر الذي دفعه إلى ترجيح تشيع هذا المصطلح بالرافد حيث تسعى "الشعرية إلى أن تكون بديلا مكافئا للمصطلح الفرنسي (poétique) أو الانجليزي (poetics) وكلاهما منحدر من الكلام اللاتينية (poetica)

كلمة الإغريقية (poietikos)"²

³ يحد للمصطلح ثلاثة منطلقات من حيث إن الشعرية تحيل

: 1 أي نظرية داخلية للأدب.

2 اختبار المؤلف ضمن مختلف الإمكانيات الأدبية المتاحة.

3 القوانين المعيارية التي تنجزها مديرية أدبترما.

ويكتفي القارئ تصفحا وهو يتتبع هجرة المصطلح وتحولاته من الصفحة 34

43 حتى يقف على حقيقة الاختلاف بين النقاد العرب في (مصطلح الشعرية).

لقد جاءت الشعرية لتضع حدا للتوازي القائم بين التأويل والعلم في مثل الدراسات الأدبية وهي بخلاف التأويل للأعمال النوعية لا تسعى إلى تسمية المعنى بل إلى معرفة القوانين العامة التي

¹ هنري ميشويو — راهن الشعرية ت. عبد الرحيم حزل 1993 1 22.

² د. يوسف و غليسي و الرديات: منشورات العربي قسنطينة، 2007 14.

³ Ducrot, T.Todovov: dictionnaire encyclopédique des sciences du langue éditions du seul, paris, p72, 106.

تنظم ولادة كل عمل، داخل الأدب ذاته فالشعرية إذن مقاربة للأدب "مجرد" وباطنية في الآن نفسه.

ليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية، إنما هو انجاز من انجازاتها الممكنة ذلك أن الشعرية لا تعني بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن. فغاية هذه الدراسة اقتراح كنظرية لبنية الخطاب الأدبي واشتغاله، نظرية تقدم جد ولا للإمكانات الأدبية تتصل بخصائص أنماط

- وما تجدر الإشارة عليه أن " لفظة الشعرية " كانت حافرة في تراثنا النقدي القديم يؤكد ذلك ما (684هـ) "وكذلك ظن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيف اتفق نظمه وتيمه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا

فهذا النص القرطاجني يقترب إلى حد ما في العام: أي قوانين الأدب ومنه الشعر إلا أنها تفتقد إلى الفعالية الإجرائية.

وإذا ما حولنا المقارنة بين شعرية أ و الشعرية البنوية فإننا نجد أرسطو قد جعل الشعر نوعا و معيارا في الفن نفسه يمنح الأجناس الأدبية الأخرى شرعية الاتواء تحت جنسية في حين حاولت الشعرية البنوية توسيع مفهوم الشعرية ليشمل الأنواع الأخرى كونها مجتمعة تحت لواء واحد هو الأدب.

تميز النقد الأدبي الغربي بمرونة عالية مع تراثه الشيء الذي سهل عملية الانتقال المصاحبة للخلق والإبداع في المفاهيم والمصطلحات بعيدا عن منطق الإقصاء وبهذا الصدد وجب تمييز الجهود النقدية في تراثنا العربي، المفاهيم التي تهدم النظرية النقدية الحديثة وتفعيلها بعيد عن المناطق والمقاطعة، إذ الدعوة إلى التصالح مع التراث لا زالت صحيحة قراءة وتأويلا، تنظيرا و تطبيقا، ولعلنا حينها نضم أصواتنا إلى صوت الدكتور عبد العزيز حمودة الداعي إلى نظرية نقدية عربية¹، تتصف قدامه بن جعفر الذي وضع فرضية كانت منطلقا لتصور الشعرية تحدد لأركان الشعر² وعموده الذي مثل الأسس الشعرية العربية وهي: "؛ وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، صف.... فهذه سعة أبواب هي عمود الشعر ولكل باب معيار³

1 لعزیز حمودة: المرایا المقعرة
2 في إشارة إلى قوله " الشعر قول موزون مقفی يدل على معنى".
3 المصدر نفسه.

نظرية النظم عن عبقرية ناضجة لدى الجرجاني لتفسير الظاهرة عموماً
 انه يستنتج معاني النحو في حقول البلاغة، أليس النظم عنده توحي معاني النحو أي أنه
 العمل على وقف قوانين علم النحو وأصوله "إن العاقل يرتب في نفسه ما يريد أن يتكلم به، وإذا
 سنا لم نجد لذلك معنى سوى أنه يقصد إلى تولك (الضرب) فيجعله خبراً عن (زيد)
 ويجعل (الضرب) الذي أخبر بوقوعه منه واقعا على (عمرو) ويجعل (يوم الجمعة) زمانه الذي
 وقع فيه ويجعل (التأديب) غرضه الذي فعل (الضرب) من أجله فيقول (ضرب زيد عمراً) يوم
 الجمعة تأديباً له . وهذا كما ترى هو ترخي معاني النحو فيما من معاني هذه الكلم¹
 لقد كانت نظرية النظم مركز إلهام وتطوير لكثير من الأفكار اللاحقة كمحاولات ادونيس في
 التعرف على شعرية النص من خلال تفتيت نواة النظرية الجرجانية في النظم وقد اعتمدت
 محاولة على التمييز بين وظائف الكلام (الإخبارية، البرهانية، التخيلية)*

هذا الصدد أثار الدكتور عبد الله الـ هامة تتعلق بتصنيف القرطاجني
 لعناصر الرسالة التي انتقارب إلى حد ما مع ما توصل جاكوبسون يقول القذامي "من قبل
 1285م .حيث ذكر أن الأقاويل الشعرية² (تختلف مذهبها
 فيها بحسب الجهة أو الجهات التي تعنتي الشاعر فيها إيقاع الحبل التي هي عمدة
 إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه أو التي هي أعوان للعمدة) الجهات ما يرجع إلى
 القول نفسه، أو ما يرجع إلى القائل، أو يرجع إلى المقول فيه، أو ما يرجع إلى المقول له³ فهذه
 العناصر الأربعة التي ذكرها القرطاجي يقابلها عناصر ياكسون كالاتي:

1_ ما يرجع إلى القول نفسه:الرسالة.

2 ما يرجع إلى القائل:

3 ما يرجع إلى المقول فيه:السياق .

4 ما يرجع إلى المقول له: المرسل إليه.

بل أنه يتجاوز الشعرية لحدثة حين نضع الملتقى عنصراً رئيساً في مقاربة الشعر لبحث
 عنصر التأثير فيه من خلال التخيل "أن تتمثل للسامع في لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه

¹ 405.

* أدونيس الثالث و التحول ج3 297.

² أمى عبد الله، الخطيئة والتكفير، ص 15 16

³ القرطاجني مناهج البلغاء، ص 346.

و نظامه ، و تقوم في خياله صورته أو صور ينفعل لتخليها وتصورها أو تصور شيء أخربها
من غير روية إلى جهة أو الإنقياض"¹

لا شك في أن الشعرية وم سباتها تجاوزت حقلها إلى حقول أخرى بذلك التطورات
النفسية والاجتماعية للأدب إلا أنه من الضروري التأكيد على ضبط العلاقات بين الشعرية و

2.

إن البحث في مفهوم الشعرية في تطبيقات تحاول تأويل النص الأدبي لا يعني أن الشعرية في
الأساس تستهدف النص الأدبي تأويلا يقدر ما يعني استجلاء القوانين التي تؤكد تلك الشعرية.
بيقات الملازمة للبحث في مفهوم الشعرية هي تقنية إجرائية كرس عملية القوانين

يلخص موضوع الشعرية بالسؤال التالي: "ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثرا
فنيا"³

القضية المثارة هي: هل يمكن البحث في شعرية الخطاب من خلال الوظيفة الشعرية فحسب؟
بتغيير آخر: هل يمكن تجلية شعرية الخطاب من خلال الكشف عن نسبة التوازي (اختيار، تأليف)
نفسه؟⁴

الخطاب:

- تعددت استعمالات واستخدامات مصطلح الخطاب في الدراسات المعاصرة استنادا إلى
الترجمة اللاتينية لهذا المصطلح (Discours) والذي يعني من الناحية اللغوية الملفو،
الذي ينتجه المحكم ليلقيه على مسمع .

- أما من الناحية الاصطلاحية فيتعلق بالتيارات اللسانية والبلاغية والتداولية التي ظهرت
حديثا لغرض صياغة جديدة للتصورات و المفاهيم ذات العلاقة باللغة والخطاب. باعتبار

ننا لسانيا مستقلا بذاته وغنما هي نسقا متصلا وثقافته ومجتمعه وتاريخه، إنها
أي خطاب قائم على مفهوم قول بين كتكلم ومخاطب مع توفر قصد التأثير

¹ المصدر نفسه.

²

³ باكيون ص47 نظرية المنهج، ص84.

⁴ : 151.

في المخاطب أو إقناعه. وعليه فالخطاب في هذا المنظور لا يدرس نصا لغويا مستقلا بذاته منفصلا عن سياقه بل مدرج داخل سياقه وفيه.

- وما يلاحظ نهايات القرن العشرين أن مصطلح الخطاب بدأ يعرف عوده إلى الإنسانية عامة و اللغوية خاصة وهذا مؤثر على التحول الحاصل في طريقة إدراك اللغة وهي نتيجة طبيعة لتفاعل التيارات اللسانية و التداولية و البلاغية فيما بينهما.

ولعل أبرز ألوان التفاعل هذا أن معنى الخطاب لا يتأسس إلا داخل عالم خطابي باعتباره فعلا لغويا صيغ سياقيا وفق معايير اجتماعية.

يضاف إلى ذلك عدم الفصل بين الحجة و العناصر المشتركة بينهما.

لا تبتعد كثيرا عن المفهوم المعاصر فقد جاء

(711هـ) أن الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان¹، فالخطاب هنا يتعلق بهذا الفعل اللغوي الحي و الملموس الذي يستلزم ثلاثة :

- وفي القرآن وردت العبارة (في سورة الفرقان، آية 63) " كه وأتيناك الحكمة وفصل الخطاب " وهي ذات العبارة التي يكرر لدى الجاحظ في كتاب البيان و التبيين حين شهد عبد الله الأهم لزيا بن أبيه : أشهد أيها الأمير، لقد أوتيتن الحكمة وفصل الخطاب²

- " قدرة على ممارستهما، كما تأتي بمعنى "البينة على المدعي"³ وحسن التخلص و الفصل و الأمل وهي كلها مباحث في

- ويقدم البلاغيون مصطلحات في مصطلح الخطاب من أهمها الكلام المقال ومدار هذه المصطلحات كلها يتعلق باللغة حين تحولها إلى كلام بليغ يصدر عن متكلم كفاء ويتوجه إلى مخاطب مؤهل لتلقيه و عليه فإن أية فروق محتملة بين هذه المصطلحات إلا إنها تشترك في ثلاثة عناصر ضرورية: المتكلم، النص، المخاطب مع بعين الاعتبار القول لا يكون خطابا إلا التأثير

¹ () 1194/2 :

² الجاحظ: اللسان و التسيير 61/2 65.

³ المصطلحات البلاغية وتطورها، 549.

و بالنسبة إلى البلاغي يقوم الكلام البليغ على مبدئين جوهريين و مترابطين و متداخلين: مبدأ
التداولية الشعرية.

ويعني مبدأ التداولية أن الخطاب لا ينتج إلا من أجل تحقيق منفعة "

1"

ويقول عبد القاهر الجرجاني (471هـ) وهو يتحدث عن نفعية الكلام بمعناه العام " اعلم أن
الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها و يتبين مراتبها و يكشف عن صورها و يجني صنوف ثمرها.
ويدل على سرائرها، و يبرز مكنون ضمائرها (...) فلولاها لم تكن لتتعدى فوائد عالمه، (...) ولبقيت
القلوب مقفلة على ودائعها، و المعاني مسجونه في موضوعها، و لصارت القرائح عن
تصرفها معقولة، و الأذهان عن سلطانها معزولة، و لما عرف كفر من إيمان
و لما ظهر فرق بين مدح و تزيين و ذم و تهجين "2

تداولية الكلام مبدأ راسخ في التفكير
فعل إنساني اجتماعي نفعي لكن هذه
التداولية لا تلغي شعرية الخط .

لذلك فصناعة الكلام لا يجدها إلا الفصيح البليغ من الناس، العالم بشروط هذه الصناعة و
أصولها و أسرارها لإخطارها و مزالقتها، و قد الجاحظ و أحسن حين جعل المتكلم
مثل الطبيب الذي لا يصلح أن يكون متوسطا في علمه و ممارسته فإن " إن أحسن منه -
- شيئا و لم يبلغ المبالغة، هلك و أهلك أهله، و كذلك العلم بصياغة الكلام "3

و الخلاصة أن للخطاب عناصر تداولية هي (المتكلم، المخاطب، المقام) و عناصر شعرية
(النص في شكله و لفظه و صورته و نظمه و معناه و صورته و أساليبه) و هذان العنصران يوفران
للخطاب طاقة استكشافية ل
الإنسانية و الحجاجية و شروط محل عناصرها و علاقاتها
المتبادلة قصد تحقيق .

في تحديد الإقناع:

لا يخفى على الناظر في حقل الدراسات اللغوية و التواصلية الأهمية المتزايدة التي أصبح
يوليها الدارسون لموضوع خصوصا بعدما أضحت لهذا النشاط حضور مكثف في الحياة
الإنسانية المعاصرة التي صار التواصل من أهم سماتها، و معلوم أن التواصل في أغلبه

1 الجاحظ و كتاب الحيوان، 1/312 436.

2 :

3 الجاحظ: البيان و التبيين 4/40

إقناعي يسعى فيه كل طرف إلى جعل الطرف الآخر بتقلد رأيا محددًا ويصبر من المدافعين عنه إن .

ويعرف السيميائيون المعاصرون، فعل الإقناعي، بأنه احد أشكال الفعل¹ وهو يتعلق بمقام التلطف ويتجلى في استدعاء المتلفظ لكل أنواع الصيغ و الطرق التي تهدف إلى أن يكون التواصل فعالا، ويقبل المتلفظ إليه التعاقد أو التفاهم التلفظي المقترح. وفي " تحليل الخطاب " ينظر إلى أنه نتاج بسوروات عامة من التأثير، فالخطاب الإقناعي هو خطاب تم بناءه يقصد ، أي يقصد التواصل و التفسير وإضفاء المشروعية على وجهة نظر ما و تحقيق الشراكة إن لم يكن القصد والهيمنة. وبالنسبة إلى علماء الحجاج " هو التواصل لغاية تغيير سلوك أو موقف ما"¹ البلاغة الجديدة بعض التميزات الغرورية في إطار تحديدها لمفهومي الحجاج والإقناع ومن أهمها التميز بين البرهنة و الحجاج والتميز بين و الاقتناع.

- بخصوص التميز الأول تقتض البرهنة صحة المقدمات لضمان صحة الاستنتاجات وتستبعد ت وتستدعي الاستدلالات التحليلية وغايتها الوصول إلى الحقيقة ومخاطبتها لا يمكن أن يكون إلا عاما وكونيا. ويقضي الحجاج أن نؤثر بواسطة الخطاب على درجة انخراط مخاطب ما واستمالاته إلى أطروحة ما، ولهذا تؤخذ بعين الاعتبار الظروف النفسية الاجتماعية التي بإهمالها يكون

وبخصوص التميز الثاني، يكون الاقتناع (persuader) أهم من (convaincre) الذين لا تهمهم إلا النتائج، ويكون الإقناع أهم من الاقتناع عند من ينشغل بالطابع العقلاني لانخراط المخاطب، وهذا الطابع العقلاني يتعلق أحيانا بالوسائل المستعملة، وأحيانا بقدرات المخاطب الذي نتوجه إليه بالخطاب، وهناك من يأخذ بعين الاعتبار جسد المخاطب وخياله وإحساسه وكل ما ليس عقلا.

- وبالنسبة للبلاغة الجديدة فإنها تسمى الاقتناع كل حجاج لا يصلح إلا لسماح خاص وتسمى اقناعيا كل حجاج يسعى إلى بلوغ كل كائن ذي عقل، وهي تسجل أن الفروق بين المصلحين تبقى دائما غير مضبوطة والسبب في ذلك أن التمييز بين المخاطبين ليس أكيدا إلى نسبية التصور الذي يكونه المتكلم عن مخاطبيه وبالتالي فالمخاطب هو من يحدد مظهر الحجاج وطابعه.

¹ Lionel Bellenger. L'argumentation, principes et méthodes, p74.

عند أوليفي روبول ه " 1" لا يعمل على تحقيق الاعتقاد في المخاطب نقط، بل يعمل أيضا من أجل أ يفهم، لذلك بفضل أوليفي روبول التمييز بين:- أن ينجح المتكلم في جعل المخاطب يعتقد ، وان ينجح المتكلم في دفع المخاطب إلى أن ينجز شيئا ما فقط.

الوظيفة الاقناعية للخطاب تقوم على معرفة الوسائل التي بواسطتها يكون خطاب ما اقناعيا، وهذه الوسائل بعضها من الصنف العقلي و البعض الآخر من الصنف الانفعالي، القول إن بعضها أكثر عقلانية و البعض الآخر أكثر انفعالية، لأنه في بلاغة الخطاب يصعب الفصل بين العقل و الوسائل التي تتعلق بالعقل هي الحجج وهي صنفان: حجج تنتمي إلى الاستدلال القياسي، وحجج تقوم على التمثيل، وقد يكونها الأخير كما يقول أرسطو أكثر تأثيرا من القياس. هي من جهة الطابع الذي ينبغي أن يتخذه الخطيب للفت انتباه المخاطب و ربح ثقته وهي من جهة أخرى ميول المخاطب و رغباته وأهوائه التي يمكن أن يأخذها الخطيب بعين الاعتبار.

وهنا وجب التمييز بين ثلاث مستويات في الخطاب:

- الإفهام والتفسير و التكوين، أي الجانب الحجاجي للخطاب.

-

- الإشارة أي ما يثير انفعالات المخاطب.

يقول أوليفي روبول " يشتمل في الخطاب على مظهرين: سنسميه " حجاجيا " والثاني "أسلوبيا " ومما مظهران ليس من السهل دائما التمييز بينهما²، فحركات الخطيب وتغيرات صوته تنتمي إلى المظهر الأسلوبى، لكن ماذا عن الصور الشعرية التي يوظفها النص. فهي تنتمي إلى المظهر الأسلوبى لأنها وتهز المشاعر، وهي في الوقت نفسه تنتمي إلى المظهر الحجاجى، لأنها تنقل حجة وتقوم بتكثيفها وجعلها أكثر إشارة.

¹ Olivier renoul. Introduction à la rhétorique, p5
² O- reboul: introduction à la rhétorique, p7.

ولا يخفى أن البلاغيين العرب المتأثرين بالفلسفة كانوا يؤكدون أن جوهر الخطابة كتبهم كما في كتب الفلاسفة المسلمين عرفوا هذا المصطلح " وهو تصديق اعتقاد أنه يمكن أن يكون له عناد وخلاف"¹

من بين أهداف هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم الإقناع والاقتراب من مفهوم الخطاب الإقناعي، فقد لاحظ محمد العمري افتقار المكتبة العربية إلى دراسات للخطاب الإقناعي و "انقطاع دارسنا عن القديم وعدم مسابرتهم للحديث، في دراسة الخطاب الإقناعي، وتراثنا منه يضاهاى التراث الشعري أو يأتي"²

- ويحدد الدكتور عبد الله صوله من خلال دراسته: الحجاج في القرن ثلاث غايات:
- كشف النقاب عن حاجية الكلام في القرآن الكريم من خلال المستوى المعجمي، المستوى التركيبي و المستوى الصوري (الحجاز)³.
- أما الثانية: وهي ذات بعد نظري فترمي إلى هدم الثنائية الضدية التي قامت عليها البلاغة غة الحجاج من ناحية وبلاغة الأسلوب من ناحية أخرى، فالأسلوب حجاجي محله الأسلوب.
- والثالثة هي الإسهام في الكشف عن جانب من جوانب قدره القرآن على التأثير متلقية تأثيرا حجاجيا وعقليا إلى قدرته على التأثير العاطفي في القلوب.
- فهذه الدراسات المعاصرة التي تبلورت فيها مفهوم للخطاب الإقناعي لا يفصل بين و النفسي، بين الحجاجي و الأسلوبى بين الخطابى و الشعري، بل من هذه العناصر مجتمعة و مترابطة يتكون الخطاب الإقناعي.

- العربية تركز على العنصر الشعري
- إلا أنه ليس العنصر الوحيد الذي يتدخل في بناء الخطاب الإقناعي ونفي كأنها خارج اللغة و الخطاب : المتكلم، المخاطب، المقام، إلا أنها تدخل في صميم عناصر أساسية في
- لاقناعي يقوم على أسس عقلية نفسية وهو يشغل عناصر لغوية شعرية (اللفظ، الصوت، التركيب، الصورة) وعناصر مقامية تداولية (المتكلم، المخاطب، المقام) لتحقيق غاياته، عبر شبكة من العلاقات المعقدة التي تؤسس عملية التخاطب، وهو محور الرسالة وجوهرها.

¹ ابن سينا: المجموع أو الحكمة العروضية في معاني كتاب ريطوريقا، ص15.

² محمد العمري: في البلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص5

³ عبد الله صوله: الحجاج في القرآن في خلال أهم خصائصه الأسلوبية 58/1.

ه الخطاب الإقناعي هي المستقبل وهو لا يزدهر إلا في فضاء الاحتمال
الحقيقة المطلقة مما يفتح أمام البشرية بابا واسما مهمة
و التفوق و التركيز على الذات كما يسمح بقيام فضاء للتعامل بين
خر سبيلا إلى الأنا يعمق اكتشاف الاختلاف معه المعرفة بالذات
الوقوف على تخومها وعلى أساس ما يترتب عن الاختلاف من تعدد الرؤى وتباين المواقف يحمل
الواحد بسلطة الحجة و البراعة في تصريف اللغة أيضا حرية الرأي وما يلزم عنها من
رية الاختيار في الفكر و السياسة و العقيدة في ظل أجواء من الحرية و التسامح و بعيدا عن
الإيديولوجيات .

في تحديد البلاغة:

كانت ولا زالت البلاغة العربية من حيث هي موقف تلق قاعة على إستراتيجية القصيد
الفرض بين اللغة والمعنى و يداع أنها أي البلاغة العربية تقوم على مبادئ أساسية وهي
الفهم، والإفهام و المعنى والإعجاز و القصد والقياس، وهي العناصر التي رسمت بها -
- قوانين تفسير الخطاب وقوانين إنتاجه.
- وعليه فالمفاهيم التي صاغت بها البلاغة رؤية
الاجتماعية و النفسية و العقلية هي ذاتها المفاهيم التي وجدت تلك العلاقة الجدلية بين المتلقى و
المتكلم علاقة تقوم على شراكة البحث عن القصيد بطريقة استدلالية عقلية ولغوية.
والملاحظة التي يمكن إليها الفكرة البلاغية تتجاوز في مدارات تفاعلها وتأثيرها
الجمالي والدلالي على الكلام البليغ شعرا ونثرا، إلى آفاق أرحب للغة وقضايا الخطاب
القيم و المناهج .
ولعل الدكتور عبد المالك مرتاض في كتابه الجديد الصادر عن أكاديمية الشعر في هيئة أبو ظبي
للثقافة والتراث تحت عنوان " نظرية البلاغة متابعة لجماليات الاسلية العربية يؤكد هذه الحقيقية
معتبرا البلاغة بنية جمالية مركزية في الويداع | الإنساني لكونها تحجع بين الوضعية
المجرده والجمال الفني ليشير في الفصل السادس من الكتاب ببلاغة جديدة شكلت مساراتها
ووظائفها تجارب التجديد ومحاولات الإيداع.
ولعل من المفيد الإشارة إلى أن أي تحديد للخطاب و هو في الحقيقة تحديد لمعنى البلاغة،

وتأتي لفظة "البلاغة" لغة بمعنى الوصول و الانتهاء فهي من " بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل و انتهى¹، واستعملت العبارة ومشتقاتها في القرآن، كقوله تعالى " قل لهم في أنفسهم قولا بليغا" (سورة النساء، آية 63) أي قولا مؤثرا يزرهم ليرجعوا عن كفرهم.

- وفي كتاب البيان و التبيين نجد العديد من التعريفات، فالجاحظ يجعل من الإفهام العنصر الأساسي في كل كلام بليغ، لكن دون أن يكون كل إفهام كلاما بليغا. فلا يمكن الحكم بالبلاغة لمن يفهمنا " بالكلام الملحون، و المعدول عن جهته و المعروف عن حقه²

- ويعرفها العسكري " البلاغة كل ما تبلغ بع قلب لسامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضة خلقا لم يسم بليغا، وإن كان مفهوم المعن، مكشوف المغزى (...). فهذا يدل على أن من شرط البلاغة أن يكون المعن مفهوما واللفظ مقبولا³

ونجد عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز يقول إن البلغاء من المتكلمين يتم تفضيل بعضهم على بعض من خلال جانبين أساسيين: الأول يهم المتكلمين من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد⁴ والثاني يتعلق، بحسن الدلالة وتامها فيما كانت له دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وأنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى ميل القلوب⁵

- ويقوف السكاكي في مفتاح العلوم البلاغة بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني مدا له اختصاص بترفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والكتابة على وجهها⁶ وما نتخلص من هذه التعريفات أن لكلمة بلاغة في التراث العربي معنى نسقيا يتقاطع فيه

ويوضح محمد العمري أن كلمة "بلاغة" لا تطرح في السياق العربي إشكالا في كونها علم

بنوعية التخيلي والتداولي وذلك نتيجة الدمج الذي مارسه، في المرحلة الثانية

7

من تاريخها، كل من عبد القهار الجرجاني وابن سنان الخفاجي ثم

وبالمقابل يوضح أن كلمة "ريطوريك" "rhétoriques" في الثقافة الغربية تتراوح بين ثلاثة مفاهيم

1 - - - 345/1

2 الجاحظ البيان و التبيين، 161/1

3 العسكري، كتاب الصناعتين، ص6

4 90

5 نفسه.

6 السكاكي مفتاح العلوم، ص415.

7 محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل و التداول، ص11.

1_ المفهوم الأرسطي الذي يخصصها لمجال الإقناع وألياته

2_ المفهوم الأدبي الذي يجعلها بحثاً في صور الأسلوب (بلاغة عامة)

3_ المفهوم النسقي الذي يسعى إلى جعل البلاغة علماً أعلى يشمل التخيل والحجاج ويستوعب المفهومين معاً من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها، ويوسع منطقة التقاطع إلى أقصى حد ممكن، فقد حدث خلال التاريخ أن تقلص البعد الفلسفي التداولي للبلاغة وتوسع البعد الأسلوبي حتى صار موضوعها الوحيد. فكانت نهضة البلاغة حديثاً منصبة على استرجاع البعد المفقود في تجاذب بين المجال الأدبي (حيث يهمن التخيل) والمجال الفلسفي المنطقي من جهة، واللساني التداولي من جهة أخرى¹

ومن المجمع عليه أن التخيل والتداول (الحجاج) يلتقيان في أنهما خطابان قائما على

توهيماً أو ترجيحاً، التوهيم في التخيل والترجيح في التداول الحجاجي: فخطاب الشاعر كذب يتحمل الصدق وكلام الخطيب صدق محتمل الكذب.

ويرى محمد العمري أن أوليفن روبول شق طريقاً ثالثاً في كتابه "البلاغة" بقوله أن جوهر البلاغة لا يوجد في الأسلوب ولا في الحجاج بل يوجد بالتمديد في المنطقة التي يتقاطعان فيها، وبالنسبة إليه ينتمي إلى البلاغة كل خطاب يجمع بين الحجاج و
مدعمتين الشعر بالحجاج².

- كما حاول اليفي روبول كشف طموح البلاغة الجديدة إلى استرجاع أطرافها المفقودة والتقريب بين مكوناتها و
ويبدأ مقاله بالسؤال عن إمكان أن تكون الصورة حجة
عنصراً حجاجياً، فيبين أن الصور في مختلف أنواعها (صور الكلمات، صور المعنى، صور التركيب ...) تؤدي وظائف حجاجية. ثم ينتقل إلى السؤال المعاكس عن إمكان
حجة نفسها صورة³.

- محمد العمري في أبحاثه عناية كبرى للمفهوم العام النسقي للبلاغة من خلال الربط بين الشعري و التداول مؤكداً أن الملاحظات الأسلوبية هي المصدر للبلاغة العربية وأن الطموح إلى صياغة نظرية عامة للفهم و الإفهام هو المصدر الثاني الكبير للبلاغة العربية، ويلخص إلى البلاغة العربية مصدرين كبيرين أنتجا مسارين كبيرين : مسار البديع يغذيه الشعر، وسار البيان تغذيه الخطابة، ونظراً للتداخل الكبير بين الشعر و الخطابة في التراث العربي، فقد

¹ المرجع نفسه، ص12.

² محمد العمري البلاغة الجديدة، ص21.

³ المرجع نفسه: ص22 24

ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة شعرية¹.

- وقد بذل الفلاسفة في قراءة تهم لعمل أرسطو في الشعر و الخطاب جهدا كبيرا لبيان الخصوصية الشعرية (التخييل) و الخصوصية الخطابية (التصديق) وما بينهما من التداخل

².

- و يبقى الحث قائما على محاولة استكشاف بعض ملامح المفهوم....العام للبلاغة واستخلاص العناصر و المبادئ المشكلة للخطاب الإقناعي دعما للجهود التي تبذل اليوم من أجل التفكير النظر في منطقة التقاطع بين الشعري و الحجاجي أي التخييل و التداول.

وهكذا تصبح البلاغة مجموعة في سؤال القصد و الفرض؟ ماذا يقصد المتكلم -الشاعر. الخطيب الكاتب؟ وليس ماذا يصنع؟ ماذا يريد أن يقول؟ وليس ماذا يقول؟ ماذا يكشف لنا وليس ماذا يستكشف لذاته؟

إنه لا يمكن أن نتصور البلاغة من حيث هي إستراتيجية تلق وإنتاج للمعنى الأدبي في و الدوافع و الحاجات الحافة بها.

لا ريب أن ذلك يستدعي البصر بتاريخية البلاغة ومحركها المعرفي وهو ما يجعل تلك الأسئلة خارج مدار البلاغة وطبيعة همومها.

¹ المرجع نفسه: ص28 29

² المرجع نفسه: ص30

أولاً:

- ملامح التداولية في التراث العربي والبلاغة العربية

حاولت في هذا الفصل البحث في جذور التداولية عبر التراث النقدي و البلاغي القديم بتقديم التعاريف الآتية:

1 جاءت في معجم اللسانيات لديبوا (Jean Dubois) وآخرين " أن المظهر التداولي (pragmatique) يتجلى في خصائص استعمال الخطاب (الحوافز النفسية للمتكلمين ورا أفعال المخاطبين، و الأنماط المجتمعة للخطاب، وأهدف الخطاب، الخ ...) مقابل مظهره التركيبي (الخصائص الشكلية للأبنية اللسانية) والدلالي (العلاقات بين الوحدات اللسانية والعالم الخارجي)"¹. وفي طبعة جديدة للمعجم نفسه، يضيف ديبوا أنه بعد دراسة (أوستين) (Austin) اللغة وكفاءاته، امتدت التداولية إلى أشكال الإقناع،².

2 يرى (قريماس) (Greimas) و (كورتاس) (Courtes) في معجمها: dictionnaire raisonné de la théorie du langage أن الفرق بين البعد المعرفي، وبين البعد التداولي للخطاب كالفرق بين الأشياء المكتنزة والأشياء المستهلكة، ويكون الحد بين الفعل المعرفي، و الفعل التداولي في مكان ما بين الكفاءة و ، ويعتبران التداولية في اتجاهها الأمريكي تهدف التركيز على شروط تحقيق الخطاب، مثل الطريقة التي يستطيع بها متحدثان التأثير بعضهما في بعض"³

3 تهتم التداولية " ... أكثر بالعلاقة التي تجمع بين المرسل والمستقبل، والتي تبث عبر وسائل الاتصال، وحسب هذا البعد يستعمل المرسل عدة طرائق ، والتأثير، والإعجاب،

¹ -Jean Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, Larousse, paris 1973, p388.

Pragmatique: l'aspect pragmatique du langage concerne les caractéristique de son utilisation (motivation psychologiques des locuteurs, réaction des interlocuteurs, types socialisés du discours, objet du discours, etc) par opposition à l'aspect syntaxique (propriétés formelles des constructions linguistiques à et sémantiques (relation entre les entités linguistiques et le monde).

² - أنظر:

Jean Dubois et autres, dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, larousse, paris 1999, p375.

³ - أنظر:

J. Greimas et J. courtes, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, hachette, paris 1993 p288.

والقيادة، والتفاوض، والسيطرة. فلا مضمون الرسالة، ولا الخطاب، ولا حتى بنية النظام الاتصالي هي الأهم بل نوعية العلاقة الاجتماعية التي تبت وتوضح بفضل الاتصال...¹

4 تحاول المقاربة التداولية الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المهمة:

"... :- من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟

- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟

- ما هو مصدر التشويش، والإيضاح

- كيف نتكلم . ونريد . وبعدها التداولي، والسياق...²

ويمكن باختصار حصر العناصر الرئيسية التي يهتم بها المنظرون للتداولية في النقاط

التالية:

المرسل وقصده ونواياه، و المتلقي، والسياق، ثم أفعال اللغة المحور الرئيسي لكل دراسة تداولية، لأنها تجسد الغاية من الاهتمام التداولي، من خلال الحركية، و التأثير، والتغيير الذي يحدثه الخطاب في المتلقين، فتتحقق بمقتضى ذلك الفائدة.

أما في عملية تنبعي لملامح التداولية في التراث العربي، فقد اقتصر على أهم الأعلام واشهرهم بما يسمح به فصل من البحث فقط، لأن البحث عن ملامح التداولية في التراث كليه، قد يكلف أكثر من رسالة ماجستير. وقد تخيرت التزام التسلسل التاريخي للأعلام الذين تناولهم بالدراسة حتى يستطيع القارئ أن يتتبع معي المنحنى البياني لتطور الفكر التداولي في التراث

ملامح التداولية في البلاغة العربية:

¹ - نصيرة بن عمرة، التوجيهات الرئيسية للسيد عبد العزيز بوتفليقة من خلال خطابه السياسي أثناء الحملة الانتخابية لرئاسيات أبريل 1999 إشراف عزة عجان مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال، كلية الآداب 2000 2001 19.

² - حبيب أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، المجلد الثلاثون، العدد الأول، مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة، والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر، 2001 102.

من المعروف لدى الجميع أن "... الماضي نص مفتوح للقراءة على الدوام..."¹ مما يجعل الحديث عن التداولية منهجا حديثا ومعاصرا لا يكتمل إلا بعودتنا إلى التراث العربي البلاغي القديم، للبحث عن الملامح والتجليات الأولى لهذا المنهج الذي تمتد جذوره إلى أعمال الفلاسفة اليونان.

والحديث عن التجليات التداولية في التراث العربي البلاغي القديم لا يكتمل إلا إذا ربطنا بداياتها الأولى بالبلاغة العربية، لأنها تمثل أحسن وسيلة لتبيان العلاقات التداولية في القول. ولهذا تعتبر البلاغة تداولية في صميمها، لاعتمادها أي البلاغة و التداولية داة لممارسة الفعل اللغوي (acte de langage) على المتلقي باعتبارها الوسيلة الأولى

فالبلاغة كما أشار إلى ذلك (إدوارد سابير) (E, Sapir) "وسيلة التواصل المميزة في كل ...²

ويرى (ليتش) (LEECH) أن البلاغة ذات محتوى تداولي لأنها تهتم بعملية التبليغ القائمة بين المرسل و المتلقي، وتحديدًا بعلاقتها القائمة على أساس استخدام وسائل متنوعة ليؤثر أحدهما على الآخر فيتأثر النص بكل الظروف المحيطة و المؤثرة في ممارسات المرسل و المتلقي. كما يرتبط النص اللغوي أيضا بموقفهما الذي يؤثر في معناه مما يجعله في مجمله ا في موقف. ومن هنا جاءت نظرية أفعال اللغة في اللسانيات التداولية، وهي تركز على دراسة الأفعال اللغوية وتأثيرها في الخطاب و المتلقي.

كما حظيت هذه الأفعال بالاهتمام نفسه عند البلاغيين العرب من خلال اهتمامهم بالأساليب الإنشائية التي تشكل جوهر نظرية الأفعال اللغوية عند (أوستين) الذي يرى أن الجملة الإنشائية

وأشار الأستاذ (أحمد المتوكل) إلى أن الأفعال اللغوية عند الباحثين العرب – إذا راعينا المتكلم عنه بالمستويات الذهنية عنده – تقسم إلى قسمين: "أفعال

طلبية (Actes de demande) وصفية غير طلبية (acte de description)³.

¹ - لغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999 7
² - فاطة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، المؤسسة الجامعية للدراسات، والنشر و التوزيع، الطبعة 1993 198.
³ - محمد أيوستن، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل، العدد الأول، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان الجزائر، ص40.

ومن الباحثين المعاصرين من يرى التداولية في صميمها ما هي إلا إعادة بناء للبلاغة العربية في مختلف مواضيعها ونواحيها. فالى أي مدى تصح هذه الرؤيا؟ وأين تتجلى ملامح التداولية في البلاغة العربية؟

هذا ما
عنه من خلال البحث عن ملامح التداولية عند كوكبه من أبرز
البلاغيين العرب القدامى وهم على التوالي: (الجاحظ، ت 255هـ)، (وابن جني ت 392هـ) (و
هلال العسكري ت 395هـ)، (وابن سنان الخفاجي ت 466هـ)، (و الجرجاني 471هـ)، (و
626هـ) (وحازم 684هـ) (وابن خلدون ت 808هـ) حيث إن البحث
في ملامح التداولية في البلاغة العربية يبرزه ما اشرنا إليه سابقا وهو البلاغة تمثل أنجع
وسيلة للكشف عن العلاقات التداولية في القول.

سنخصص الحديث أولا عن ملامح التداولية عند الجاحظ (150 255) الذي تأثر
بالفيلسوف اليوناني (أرسطو) في مجموعة من النقاط المتعلقة بالخطاب (discours) واللغة
(langue)

ويظهر ذلك جليا في اعتماد على فكرة (أرسطو) في بناء المعرفة وتداولها لبناء الخطاب
قناعي، وتقسيمه الخطاب إلى جد وهزل، لأن هذا التقسيم على رأي (محمد العمري) هو
"..."¹، ولكن الجاحظ بنى تصوره في بعد تام عن مفهوم الشعر عند
أرسطو..."، فتبلورت عنده من هذا المنطلق فكرة المقام (situation) التي طور من خلالها
مفهومه للحجاز، من المستوى اللغوي العام، (كل ما خالف القياس والمألوف) إلى
الكلامي الخاص الذي يعني تحول الدلالة، أي (المجازي مقابل الحقيقة).

جاحظ بالمنطق الأرسطي كان نتيجة لما وجد فيه من لبعض القضايا
العالقة التي عجزت اللغة عن إيجاد الحلول لها.
وللبحث عن ملامح التداولية عند الجاحظ كان علينا أن ننطلق من إشكالية (اللفظ والمعنى)
التي شغلت فكر العديد من العلماء و المفكرين العرب القدماء كالامدي، وعبد القاه
القرنين الثالث والرابع الهجريين.

()
أنها ضرب من
ولعل المتصفح لكتابه (البيان والتبيين) سيلاحظ مدى هيمنة الفكرة على كل صفحات هذا
الكتاب، الذي يصنف من بين "... أهم الكتب الأدبية التي خلفها لنا، وقد ألفه في آخر حياته (حوالي

¹ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 24.

سنة 233هـ)، ومن ثم جاء خلاصة لأراء تمخضت منذ زمن طويل حكمتها التجربة
...¹ فالبيان هو المحور يسي الذي استقطب كل اهتمام (الجاحظ) حيث أصبحت

كل مواضع (البيان والتبيين) تسير في فلكه ، وتستمد وجودها منه .

فبداية نجده يخصص فصلا كاملا يتحدث فيه عن وأهمية النطق ، وفضله على الصمت
، ثم توجه بعد ذلك مباشرة الحديث عن البيان الذي قال فيه "...والبيان اسم جامع لكل ؛
كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع حقيقته ، ويهجم على
محصوله ، كائنا من ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر ، والغاية التي إليها
يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام فبأي ؛ بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى
فذلك هو البيان في ذلك الموضوع..."²

ومن خلال هذا التعريف الجامع للبيان نلمس مدى تركيز (الجاحظ) على قضية (الفهم، والإفهام)
التي ترتبط ارتباطا وثيقا بوظيفة المتكلم ، المتمثلة في إظهار الخفي، وتقريبه إلى المتلقى.
ويتعلق ذلك وسائل (لغوية أو إشارية) لتحقيق الفهم ، والكشف عن المعاني الخفية.
ونشير إلى أن الدكتور (محمد العمري)، قد ذهب إلى أن "... مفهوم البيان عند
(الجاحظ) مفهوم إجرائي، أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم و الإفهام في حالة إشكالها..."³.

فالبيان الجاحظي من هذه الزاوية يحمل طبعاً عملياً تعليمياً قريباً من المفهوم التداولي،
للعملية التواصلية. كله عنده من خلال البيان هو تحقيق الفهم الذي يسعى إليه
المرسل، و المتلقي، وهو نفس المسعى الذي تسعى إليه التداولية الحديثة.

ومن هنا فإن تركيز (الجاحظ) على قضية البيان ، وجعله يختص بالفهم دون غيره يقوده
مباشرة إلى التركيز على عناصر الخطاب الأساسية، المتمثلة في (المرسل، والرسالة، و
وكل ما يتعلق بهذه العناصر من قضايا (الإفهام) ؛ لذلك يذهب (الجاحظ) "... إلى
التركيز على مقصد أساسي الأديب، هو مقصد إفهام المخاطب، وإبلاغه محتوى الرسالة
الأدبية ..."⁴. مما يجعل للمرسل وظيفة أساسية تتمثل في إفهام المخاطب، وإبلاغه بمحتوى
الرسالة، ومن هنا تتحدد أهمية المرسل، الذي يعد عنصراً مهماً في العملية الإبلغية، واعتبر
(الجاحظ) هذه النقطة مقصداً أساسياً لدى المتكلم، وهو نفس المقصد الذي تسعى إلى تحقيقه

¹ محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية، و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994 43

² الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ مصر، الجزء الأول، الكتاب الثاني، الطبعة
1975 76.

³ محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص191.

⁴ محمد أديوان، نظرية المقاصد بين القرطاجي، ونظرية أفعال اللغة المعاصرة، مجلة الوصل، ص37

التداولية، أي تحقيق الفهم والفائدة. يؤكد لنا هذا الكلام أن (الجاحظ) قد نحا في حديثه عن البيان منحى تداوليا نفعيا.

وقد توضحت هذه الرؤية والتداولية إثر تقسيمه الحيوان (إلى فصيح أعجم). وجعله صاحة خاصة من خصائص ، في حين اعتبر أن الأعجم هو الحيوان. وفي ذلك يقول الدكتور (شكري عياد): "...يقسم الجاحظ أنواع الحيوان إلى فصيح ، والفصيح هو ، وإن اختلفت اللغات بين أمة ، كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه ..."¹. فالإفصاح يحقق الفهم، ويساعد الأفراد على تبادل المنافع ودفع المضار، أما العجمة فهي على رأي (شكري عياد) ضرب من الدلالة على مختلف أصوات الحيوان.

كما هو جلي، فإن اهتمام (الجاحظ) بالبيان الذي جعله يشغل كل كتابه (البيان والتبيين) كان مرده الإقناعي في عملية الكلام، لأن الوضوح و الإبانة وحدهما كفيلا بتحقيق ذلك. وأنه من المستحيل أن يقتنع المتلقي بما هو غامض وغير مفهوم. وكل هذا الكلام فيه إشارة إلى التداولية التي نلمس بعض ملامحها وخصائصها مبثوثة في ثنايا حديث (الجاحظ) عن البيان.

() البيان عند الجاحظ إلى مستويين:

1

2

وقال بأن الجاحظ "...لم يقدم لنا ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان، والمستوى الإقناعي التداولي الخاص، بحيث يكون الثاني الذي اعتبرناه بلاغيا مستوى من مستويات لغويا أو سيميائيا"²، أي أن البلاغة التي تحمل بعدا تداوليا إقناعيا، هي موضوع البيان الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من اللغة.

لكن بما أن الجاحظ قد جعل من المستوى الإقناعي، أي البلاغة موضوعا للبيان، وجعل من المفهوم المعرفي إطارا عاما، فإن هذا فيه تمييز بين البيان وموضوعه البلاغة، التي تختص باللفظ، لأنه يرى أن البلاغة في اللفظ، والمستوى المعرفي الذي يختص بالمعاني بصفة عامة، ومن ثم فإنه عمل على حصر البيان في اللفظ، وربطه بالتداول. وقد توصل إلى هذا المستوى البلاغي في البيان انطلاقا من الوظيفة للغة، وهي التواصل، حيث نجده يقول نقلا

¹ أرسطو طاليس، فن الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثه، ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، الدكتور شكري عياد، الهيئة المصرية الأمة للكتاب، 1993 232.

² محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص199

عن بعض جها بذة الألفاظ، ونقاد المعاني " ... المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، و المتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثه عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه، وخطئه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أمور ه، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم أيها، وهذه الخصال هي التي تقربهم من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا، وهي التي تلخص المتلبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مألوفاً، والغفل موسوما، والموسوم معلوما، وعلى قدر وضوح ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الـ

أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان.."¹.

يحمل هذا النص رغم قدمه رؤية تواصلية متطورة جدا، تتمثل في تصور الجاحظ للعملية التواصلية، فالمعاني المستورة والخفية لا يتم التعرف عليها بالاستعمال (لألفاظ)، المعنى الخفي هو البيان "نلمس في هذا الحديث بعدا تداوليا متطور جدا، لأن التداولية منهج حديث تهتم أيضا بالعملية التواصلية، وتركز على الجانب الاستعمالي للغة، والوظيفة التبليغية بخاصة، وتقرن ذلك كله بالفهم، والفائدة، ولعل هذا ما ذهب إليه (الجاحظ) عندما جعل من الأخبار، وسيلتين من الوسائل التي تبعث الحياة في المعاني، وتقربها من الفهم، وتجليها للعقل.

كما أنه أشار أيضا في هذا النص إلى المنفعة التي ربطها بالفهم و الإبانة، فكلما كان المعنى ظاهرا، ومفهوما، كان ذلك أنفع. مع العلم أن المنفعة تشكل الركيزة الأساسية التي تقوم عليها التداولية، لذلك فإننا إذا أردنا الحديث عن التداولية بمعناها الحديث، والمعاصر جدا، سنجدها تتجلى عند الجاحظ من خلال هذا النص الذي يترجم أغلب المفاهيم الأساسية للتداولية الحديثة، فالكلام الذي لا يكون مفهوما، ولا يحقق فائدة، يعد كلاما غفلا، ومهملا وغير مفيد، ومن هنا لا يمكننا عده

ويضاف إلى ذلك اهتمام الجاحظ بالإقناع والتأثير اللذين يرتبط بعضهما ارتباطا وثيقا، ومباشرا، نظرا لدورهما المهم في العملية الكلامية، ولقد اشترط في ذلك أن يكون الإقناع مطلباً سابقاً للإقناع والتأثير، أي أن المتلقي من خلال فهمه لقصد المرسل يمكنه أن يتأثر، ثم يقتنع بما أرسل إليه، ولقد لمسنا ذلك واضحا أثناء حديثه عن أصناف الدلالات على المعاني، وأقسام

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ص75.

الإشارة حيث قال: "...وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ، وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص، ولا تزيد، أو لها اللفظ، ثم الإشا
هي الحال
... " 1

يتحدث الجاحظ في هذا النص عن خمس دلالات للكلام من اللفظ أولها
في عملية الفهم، مما يجعل من اللفظ كلاما مباشرا، ثم بعد ذلك إلى إشارة التي قسمها بدورها
:

1/الإشارة التابعة لسلوك معين، وهي نوعان:

إشارة بعضو من أعضاء الجسم وفي ذلك نجده يقول: "...فأما الإشارة فباليد، وبالرأس،
وبالعين والحاجب، والمنكب..."²

إشارة تتم من خلال المظهر، وتجلي ذلك في قوله: "...وبالثوب، وبالسيف. وقد يتهدد رافع
السيف

والسوط فيكون ذلك زاجرا..."³

2/الإشارة تابعة للفظ، وللکلام، "...والإشارة واللفظ شريكان في الفضل، ونعم العون هي له
، ونعم الترجمان هي عنه، وما
... " 4

ولقد اهتم (الجاحظ) اهتماما كبيرا بالإشارات لأنها تساعد على التبليغ، ومكملة للكلام. كما
اعتبرها أيضا جزءا هاما من بلاغة الخطابة العربية، لأن الخطاب عنده أصبح يحمل بعدا
تواصليا إقناعيا، والإشارة تسهم في الإقناع والتأثير لذلك جعلها بعد الفهم، الذي يعد مطلبًا سابقا
عليهما.

أما فيما يخص العقد فهو عنده الحساب الذهني، الذي لا نستعمل فيه الكتابة، ولا الكلام.
وفي الأخير أشار إلى "النسبة" التي كان مفهومها غامضا، مما جعله يعمل على شرحها
لإحساسه بذلك واعتبر بعضهم أن النسبة هي "الوجود"، أي الكون الذي أشار إليه
(كرانتشكوفسكي) أثناء حديثه عن (الجاحظ) وكتابه (الحيوان) إذ يقول: "...كما تحدث في كتاب
الحيوان عن الوجود، حيث اعتبر البعض هذا الشيء يأتي في الدرجة الخامسة، أما في كتاب
(البيان و التبين) بعد ذلك بفترة ليست طويلة، فقد ذكر ذلك الموضوع في مجال عرضه العام
، تحت اسم (النسبة)، التي لا يمكن ترجمتها، وهي تعني كما قال الجاحظ الحال الدالة التي تا

1
2
3 المرجع نفسه، ص77
4 المرجع نفسه، ص78

تقتصر عن تلك الحالات وهي القدرة التي تتمتع بها الأشياء ،بطبيعتها

للدلالة على شيء معين..."¹

فالنسبة إذا، هي قدرة الأشياء على التعبير دون الكلام. وهذا ما ذهب إليه الدكتور (محمد الصغير بناني) من خلال تحليله للمنازل الخمسة عند (الجاحظ) حيث أشار إلى أن "...النسبة هي الوضعية التي تكون عليها الأجسام ، التي بفضلها يتوصل الإنسان إلى استخراج المعنى الذي ين فيها، فهذا الوضعية، أو هذه الحال للأجسام هي التي تقوم مقام أدوات التعبير الأخرى كاللفظ، والإشارة وغيرها"². وينتهي في الأخير إلى النسبة هي المعنى ،وهي نوع من الدلالة

ابتعد(الجاحظ) عن الوظيفة التعبيرية للدلالة_ أثناء حديثه عن النسبة_ إلى الوظيفة المتافيزيقية³ ولذلك ربما ربط كراتشكوفسكي بينها وبين الوجود. وأثناء حديثه عن بلاغة الخطاب الإقناعي ،انطلاقاً من أن الإفهام عنده معناه التأثير والإقناع، اهتدى إلى فكرة المقام والمقال، والأحوال التي

4

من هنا ،عدّ(الجاحظ) فكرة (المقام والمقال) أساسية في الفهم والإقناع، وربطها بالمقدار والإصابة، أي الموازنة بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين والحالات، فبلاغة الخطاب الإقناعي عنده تمثل الاعتدال في استعمال الصور البلاغية حسب الأحوال والمقامات، وهذا الحديث فيه ملامح التداولية، فالبعد التداولي على رأي(محمد العمري) هو بعد جاحظي في أصله، وهو أيضا الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية⁵.

رية (التأثير والمقا) التي تعرف حالياً عناية بالغة في الدراسات

اللسانية، التي بدأت تهتم بالبلاغة العربية تحت عنوان جديد هو التداولية.

وللحديث عن ملامح التداولية عند (ابن جني ت 392هـ)، كار لا بد لنا من العودة إلى

كتابه(الخصائص) واختيا
تخدم هذا الغرض.

¹ إ.ج كراتشكوفسكي، علم البديع والبلاغة عند العرب، دار الكلمة للنشر، بيروت لبنان، ط1 1981 72 73.

² محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص77.

³ الوظيفة الميتافيزيقية: هكذا وجدتها عند المستشرق (كراتشكوفسكي)، ويقصد بها الوظيفة الغيبية، أو ما نسيه الآن

وظيف

⁴ تحدث أرسطو عن هذه الفكرة التي رآها مهمة في الخطب لجمال أسلوبها، وهي التناسب في الأسلوب فنذكر أنه يجب أن يوافق مقتضى الحال.

⁵ انظر محمد العمري، البلاغة أصولها وامتداداتها، ص293 294.

فهناك كثير من المفاهيم التداولية التي نجدها في اللسانيات المعاصرة، كانت موجودة عند اللغويين العرب الذين تحدّثوا عن كثير من الحقائق التداولية في ثنايا معالجتهم لجملة من القضايا اللغوية، والبلاغية، والنحوية.

و(ابن جني) واحد من أكبر هؤلاء اللغويين، حيث تناولت دراساته في كتابيه (سر صناعة الإعراب) و(الخصائص) اللغة من جميع جوانبها، فهو "...صاحب معرفة واسعة باللغة، وأصولها، وجمع أطرافها من ضروب الثقافة لعصره، كما أنه درس جميع المشكلات الكبيرة والصغيرة، التي أثارت اهتمام اللغويين في زمنه..."¹

ولقد كان(ابن جني) متأثرا بالفلسفة والمنطق، والمذاهب العقلية اليونانية، في تأسيسه لنظرية لغوية عامة، نلمس فيها بعض الملامح التداولية، بداية باعتماده منهجا عقليا في التحليل، مصداقا لما ورد في كتابه (الخصائص) الذي أشار فيه إلى أن "... هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع ، وكيف سرت أحكامها، في الأحناء والحواشي..."²، نلمس في هذا القول بعض التوافق بين ما ذهب إليه (ابن جني) ، ومنهج اللسانيات الحديثة، خاصة في دراسته للمستويات اللغوية التي يربط بينها ربطا وثيقا.

أما إذا انتقلنا إلى الكلام فإننا نجده يقول: "... فإنّ هذا الكتاب ليس مبنيًا على حديث وجوه الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام، وكيف بدىء، وإلام نحي، وهو كتاب يتساهم ذو النظر من المتكلمين، والفقهاء، والمتفلسفين، والنحاة، والكتاب، والمتأدبين له، فقد وجب أن نخاطب كل إنسان بما يعتاده، ويأنس به، ليكون سهم منه وحصّة فيه..."³

فالمقام في كتاب الخصائص يختلف عنه في الكتب الأخرى، لأنه يبحث عن أصول الكلام، ومتابعه الأولى، وما هي الغاية منه. فهو يدعو إلى ضرورة مخاطبة كل طبقة يناسبها، أي (...مخاطبة كل إنسان بما يعتاده ويأنس به...) على حد تعبيره. ففي هذا إشارة إلى أن يكون الكلام يحمل معنى، حتى يحقق الفهم والتأثير. وكذلك فيه إشارة إلى ضرورة مراعاة حالة المتلقي، وكلها مفاهيم تداولية بالمعنى الحديث المعاصر.

ولعل (ابن جني) ينطلق في كل ذلك من اهتمامه بالعلل النحوية، التي أفرد لها جزءا كبيرا من أعماله اللغوية.

¹ محمد مفتاح وآخرون، قضايا المنهج في اللغة والأدب،
² أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط2 ()
³ 67

() 43
32

أما نظرياته التي تظهر فيها ملامح التداولية، فهي النظريات اللغوية المتعلقة بنشأة اللغات وتطورها، فهو يميل إلى القول بأن اللغة تواضع واتفاق، وأن المعاني والألفاظ المواضيع وما يتفق حوله الناس ويستعملونه في حياتهم اليومية الجارية. وقد قال في ذلك "...وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز من غيره وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين... فكانهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا: إنسان، فأبى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، ثم لك من بعد أن تنتقل هذه المواضيع إلى غيرها فتقول الذي اسمه إنسان، فليجعل مكانه مرد الذي اسمه رأس فليجعل مكانه سر، وعلى هذا بقية الـ¹ يؤكد لنا (ابن جني) في كتابه الخصائص، ومن خلال هذا القول، أن اللغة متواضع عليها مما يجعل التواضع هو الأساس الأول لتحقيق الفهم و التفاهم، والاتصال بين الأفراد، وتخطي هذه الفكرة بقبول كبير في اللسانيات التداولية التي تقوم أساساً على طبيعة العلاقة القائمة بين المرسل و المتلقي، وتتوقف هذه العلاقة على توفر وضع معين حتى يتحقق التواصل بينهما.

كما تظهر بعض الملامح التداولية في كتاب الخصائص، أثناء حديث (ابن جني) عن الكلام و القول في باب (القول على الفصل بين الكلام و القول)²، الذي يعكس تطوراً ملحوظاً ونقله نوعية عنده، حيث اهتم بدراسة الكلام المنطوق، وهو منحى تداولي، في اللسانيات التداولية الحديثة، كما انه عمد لى استعمال مصطلحات مخالفة لما عرف قبله، كالقول، وا

كما عنيت فكرة اللفظ و المعنى عنده باهتمام كبير، شأنه في ذلك شأن كل اللغويين العرب حديثه عن هذه الفكرة نلمس بعض الملامح التداولية، التي تعكس لنا عمق تجربته اللغوية، عنده عنوان المعاني، واللفظ الجيد يساهم في المعنى، وتحقيق الفهم وهو في ذلك يقول: "... وباللغو في تحبيرها، وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، واذهب بها ..."³، فالمبالغة في تجويد الألفاظ وتحسينها لتكون دالة على المعاني، وعلى في اللفظ من وجهة نظر ابن جني كان من أجل الحفاظ على المعنى وخدمة وتشريفاً له.

¹ المرجع نفسه، ص44
² (5 33)
³ المرجع نفسه، ص215 216

ومن هنا فإن (ابن جني) تحدث عن جملة من المفاهيم التي تحمل بعدا تداوليا متطورا جدا من منظور اللسانيات التداولية المعاصرة، كحديثه عن (الكلام، والنطق، التواضع، و القصد، والمخاطب، ومراعاة حالة المتلقي، و الألفاظ والمعاني وغيرها...).

أما إذا انتقلنا إلى (أبي هلال العسكري 395هـ)¹، وبوادر تجليات التداولية عنده فنستطيع أن ندرج له القول الآتي: "...ينبغي ان تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين المستمعين، وبين أقدار الحالات، أعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقال من مقام.

ة لبعض من تصلح له الخطب أو قصيدة لبعض من يراد القصيد فتخط ألفاظ المتكلمين من الجسم، والكون، والتأليف، والجوهر، فإن ذلك مغبة"².

—من خلال هذا النص عناية كبيرة بطرفي العملية التواصلية (المرسل و

(لأنه يرى "... في التعبير ضروري لتبيين مقاصد

المتكلم أو المخاطب معا في سياق معين"³. فلكي يحقق الخطاب من هذه الوجهة والفائدة المرجوة منه يجب أن يوازن بين قصد المتكلم، وأحوال المستمع ضمن سياق معين، وهي الفكرة نفسها التي تبحث فيها التداولية من خلال بحثها وتركيزها على شروط نجاح الأفعال الكلامية التي نذكر منها:

مراعاة حالة المخاطبين والتركيز على نوايا ومقاصد المتكلم، ليتم وصول الرسالة إلى المستمع واضحة ومفهومة، ومؤثرة، لان مراعاة مقتضى الحال هو السبيل الأمثل للتأثير في المتلقي، وتحقيق الفائدة المرجوة.

وتجلت التداولية عند (أبي هلال العسكري) بوضوح أثناء حديثه عن التداول الذي اعتبره من اهم مكونات البلاغة العامة، وفي هذا الإطار ركز على (المرسل، والمتلقي، والرسالة). وخير دليل على حضور العنصر التداولي بقوة عند (أبي هلال العسكري) هو عنوانه أبواب كتابه (صناعتين) ب(باب التداول)، الذي تناول فيه ما يهم المرسل، و المتلقي، و الرسالة، لأهمية هذه العناصر الثلاثة في العملية الإبلاغية، وتبليغ الرسالة، وجعل الألفاظ متداولة.

¹ أبو هلال العسكري تلميذ أبي أحمد العسكري، له (كتاب الصناعتين و التلخيص في اللغة، توفي سنة 395هـ) أنظر الفيروز آبادي، البلغة، تحقيق محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972 92.

² أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط2 1989 141.

³ محمد آديوان، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، ص37.

لذلك فهو يؤكد على المنفعة لا تكون إلا مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال، وهذا فيه إشارة صريحة إلى التداولية التي تركز على نجاح الأفعال الكلامية من خلال اهتمامها بظروف التلقي ومخاطبة كل طبقة بما يناسبها.

وهذا دليل قوي على وعي أبي هلال العسكري، وعمق تجربته، لأن المنفعة التي ترمي إليها التداولية، لا تتحقق إلا إذا الفهم الذي يتطلب وضوح المعنى، وكل ذلك لا يكون إلا بمراعاة مقتضى الحال، و الموازنة بين قصد المرسل، وحال المتلقي.

قد تناول (العسكري) " ... في كتابه في المستوى التداولي، ما ينبغي أن يكون عليه

اية خاصة لما تتطلبه وظيفة الكتابة من معارف ضرورية، فأول ما يجب على المنشئ، أن يختار الألفاظ والمعاني المناسبة كما يختار اللفظة، فإن تبين له أن طبيعته لا تسعفه في الكتابة تحول إلى غيرها من الصناعات، وما يجب عليه بعد ذلك الموازنة بين أقدار المعاني، ومخاطبة كل طبقة بما يناسبها"¹.

فالعسكري من هذه الجهة يذهب إلى انه لا كمال في صناعة المعنى دون صناعة اللفظ بتصحيحة، ومعرفة سبب وجوده واستعماله، وان حسن الوقع في التركيب مرده إلى اللفظ، لذلك نجده يجعل الفصاحة في الألفاظ.

بالإضافة إلى ذلك، انتهى إلى أن البلاغة متصلة بالمعاني في حين تختص الفصاحة وهو في ذلك يذهب مذهب (الجاحظ) عندما قال بان تحسين الألفاظ يعمل على إفهام المعاني، وكلما كان اللفظ واضحا وفصيحا كانت المعاني مفهومة، وبلغ القصد والفائدة.

ويقول في نظم الكلام: "إذا أردت تصنع كلاما فاحضر معانيه ببالك وتنوق له كرائم

...²

قلنا إلى حديثه عن الإيجاز و الإطناب فيما يخص أحوال المخاطب دائما فنجده

يقول: "المنطق هو البيان، و البيان لا يكون إلا ا لا يقع إلا ا

الكلام أبينه، وأبينه اشد إحاطة، والمعاني لا يحاط بها إحاطة تامة إلا بالاستقصاء، والإيجاز للخواص، والأطناب مشترك فيه الخاصة و العامة، والغبي و الفطن، والرئض والمرتاض،

¹ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص293.

² أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص151.

والمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا، والمقصود من هاهنا أن الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه...¹.

يجاز عند (أبي هلال العسكري) هو حال المخاطب، لأن البيان لا يكون إلا الذي لا يتم إلا إذا كان الكلام بائنا وملما بالمعاني إماما شاملا. ولا يتم ذلك كانت الألفاظ مناسبة، ومؤدية لقصد المخاطب، والإيجاز أحسن وسيلة، وأنجع يتخذه ا

الإيجاز باهتمام كبير في نظرية أفعال اللغة التي تركز على الجمل الإنشائية

لها من وقع في نفس المتلقين لاختصاصها بالأسلوب التقريري المباشر الذي يهدف إلى الإفهام وإثارة انتباه المتلقين دون حشو وإطناب.

(ه) بالإيجاز، لذلك عدها أولى العلوم بالتعلم، لأنها

أيضا تساعد على التمييز بين الكلام الجيد والردئ. وهذا يجعلنا نعتقد أن وظيفة البلاغة عنده، هي نفسها وظيفة التداولية التي تمكنا من التمييز بين الكلام الجيد والردئ والأفعال الناجحة وغير

ومن هذه الوجهة تصبح البلاغة عنده كما أشار إلى ذلك (محمد العمري) "تمارس سلطة أمام النص، وتوقع الشعري في شرك الوظيفة الخطابية، أي الإقناع في كل حالة بالوسائل²"

وهذا ما تذهب إليه التداولية التي يغلب عليها طابع الإقناع و التأثير في المتلقي، ومن ثم إن الحديث عن ملامح التداولية عند (أبي هلال العسكري) ترتبط بمجموعة من المفاهيم التي جعلها مدار البلاغة عنده، كالإيجاز، والمرسل، و المتلقي وغيرها. وهي نفس العناصر التي تبلورت من خلالها ملامح التداولية عند (ابن سنان الخفاجي) (ت466هـ).

حول ذلك نجده يقول: "... والكلام يتعلق بالمعاني والفوائد بالمواضعة لا لشيء من أحواله، وهو قبل المواضعة، إذ لا اختصاص له، ولهذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمياته لاختلاف اللغات، وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم له، واستعماله فيما قررته المواضعة، ولا يلزم على هذا أن تكون المواضعة لا تأثير لها، لان فائدة المواضعة تمييز الصيغة التي متى أردنا مثلا أن نأمر قصدناها، وفائدة القصد أن تتعلق تلك العبارة ا ، ويؤثر في كونه

¹ المرجع نفسه، ص209.

² محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص293.

مرا به، فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين، وتقويم الآلات، والقصد يجري مجرى

1" ...

ينطلق (ابن سنان الخفاجي) في نصه هذا من فكرة أن "اللغة عبارة عما يتواضع عليه القوم من الكلام"²، مما جعل اهتمامه منصبا على المواضعة لأهميتها في العملية التواصلية. فهو يعرض أمامنا عملية التواصل بالمفهوم المعاصر جدا، من خلال استحضاره لكل عناصر العملية التواصلية من متكلم، وملتق، ورسالة، ومواضعة، ... الخ.

كما انه حاول إبراز أهم العناصر التداولية التي ترتبط بعملية التواصل: كالقصد، والاستعمال، والتأثير، والفائدة والمواضعة، وكذلك حديثه الضمني عن اللغوية من خلال تناوله الأمر، ويظهر ذلك من خلال النص السابق أثناء حديثه عن فائدة المواضعة وعن صيغة الأمر في قوله: "...لأن فائدة المواضعة تميز الصيغة التي متى أردنا

قصدناها، وفائدة القصد أن تتعلق تلك العبارة ، وتؤثر في كونه أمرا به ..."³ عند (ابن سنان) لا يمكن عده كلاما إلا إذا كان يحمل معنى وقصدا يسهمان في تحقيق الفهم، قصد المتكلم ونيته من أهم القضايا التداولية الحديثة.

وارتباط المواضعة بالفائدة يدل على أن الفهم و الإفهام لا يتم بين المرسل و المرسل إليه، إلا إذا كان هناك تواضع بينهما، وإلا فسيكون الكلا

وبعد حديثه عن المواضعة يلج (ابن سنان) موضوعا آخر يتعلق بالقصد والنية، في قوله: "...وهو بعد وقوع التواضع، يحتاج إلى قصد المتكلم له، واستعماله فيما قررته المواضعة ..."⁴.

¹ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1 1972 43.

² المرجع نفسه، ص48.

³ المرجع نفسه، ص48.

⁴ المرجع نفسه، ص48.

إن الحديث عن القصد، ونوايا المتكلم، بالمفهوم المعاصر، هو حديث تداولي، لأن النوايا هي العنصر الفعال في توجيه العملية التواصلية، وهو ما أشار إليه بعض الدراسات المعاصرة من خلال: "...التركيز على نوايا المتكلم، أو المخاطب، وهي نوايا (Intentions) توجه عملية التواصل ويؤثر فيها، لا سيما على مستوى الخطاب الأدبي ، يعبر عنها إلا من خلال ربطها بنوايا المتكلم ، و المقصد من الخطاب...."⁽¹⁾

إن الحديث عن نوايا المتكلم بقدر ما هو حديث و معاصر فهو قديم أيضا، يمتد إلى النقد العربي القديم، نظرا إلى أن نظرية المقاصد، و نوايا المتكلم، و أيضا النقد و البلاغة العربيين تحت اسم (أغراض القول الشعري)، و في ذلك يقول محمد أديوان: ".....إننا نضع هذه التسمية المعاصرة (أفعال الكلام) لمجموعة من الظواهر الدلالية (sémantiques) و البراغماتية المتناولة في الإنثا اللغوي العربي القديم....."⁽²⁾ ، و النص الذي بين أيدينا فيه إشارة واضحة ، و صريحة إلى أن جذور التداولية ضاربة في عمق البلاغة العربية و الاختلاف يكمن في المصطلح فقط.

(1) - محمد أديوان ، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني و نظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، ص 39.

(2) - المرجع نفسه ، ص 38.

و ابن سنان عندما تحدث عن المواضعة ، باعتبارها عنصرا مهما في عملية التواصل يربطها بعنصر التأثير، يؤكد ما ذهبنا إليه إضافة إلى حديثه عن دور (المرسل و المتلقي) أهميتهما في إنجاح العملية التواصلية.

وما يجعلنا نسلم بجهود (ابن سنان) الفعالة في هذا المجال ، و فكرة الثاقب ، و عمق نظرته، تطورها في مجال الدراسات العربية المعاصرة، قوله: "... و الدليل على صحة ما ذهبنا إليه أنا قد بينا أن الكلام غير مقصود في نفسه، و إنما احتيج إليه ليعبر الناس عن أغراضهم، يفهموا المعاني التي في نفوسهم، فإذا كانت الألفاظ غير دالة على المعاني، ولا موضحة بها فقد"(3)

يحمل النص بعدا تداوليا بالمعنى الحديث و المعاصر جدا، لأن الكلام الذي يقصده ابن سنان هو الذي يعبر به الناس عن احتياجاتهم لتحقيق المنافع، و التفاهم ، و التعايش ، و التواصل.... فالأصل في الكلام عنده، هو التعبير عما في نفوس الأفراد من معان كامنة، لتسهيل حياتهم اليومية، لأن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل.

وقد ركز ابن سنان على هذه النقطة بالذات ، لأن اللغة هي الوسيلة الأولى التي تعبر بها عن الأشياء من حولنا، فالأشياء، و الجماد أو أي شيء آخر لا يحمل معني في ذاته، و إنما هذا المعني يكسبه من خلال التعبير الذي لا يتم إلا باستعمال لغة ما،..... فالذي يهمننا ليس الأشياء في ذاته، بل الأشياء معبر عنها من خلال اللغة....."(4)

ومن هنا نستطيع القول إن (ابن سنان) قد قدم لنا بعض الملامح التداولية، انطلاقا من مفهومه للكلام، و مجموعة من الرؤى التي كانت محل اهتمام البلاغيين في عصره.

أما بالنسبة إلى (عبد القاهر الجرجاني)، فيمكننا أن نرصد بعض الملامح التداولية التي تجل إثر اهتمامه بعملية التواصل الأدبي في مواطن عديدة، أثناء دراسته لمجموعة من القضايا الأدبية و النقدية ، كقضية (المعني، و معني المعني). غير أن تركيزه كان منصبا على الاهتمام بوضعية المخاطب لأنها تؤثر في العملية التواصلية..... فالتواصل الشعري بين الشاعر و المتلقي ، و هو تواصل يختلف باختلاف وضعية المخاطب من حيث هو متفاعل مع الرسالة الشعرية أو غير متفاعل معها....."(1)

وفي ذلك يقول الجرجاني: "...و إن توفقت في حاجتك أيها السامع للمعني إلى الفكر في تحصيله، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك و نشر بزه لديك قد تحمل فيه المشقة الشديدة، و

(3) - الخفاجي ، سر الفصاحة ، ص 221.

(4) - جون كوهن ، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي و محمد العمري، المعرفة الأدبية ، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986، ص 38.

(1) - محمد أدويان، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني ، و نظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، ص 31.

قطع إليه المشقة البعيدة، و أنه لم يصل إلى دره حتى غاص، و أنه لم ينل المطلوب حتى كابد فيه و الاعتياض؟..... و معلوم أن الشيء إذا علم أنه لم ينل في أصله إلا بعد التعب، ولم يدرك إلا باحتمال النصب، كان للعلم بذلك من أمر من الدعاء إلى تعظيمه، و أخذ الناس بتفخيمه ما يكون لمباشرة الجهد فيه، وملاقة الكرب دونه، و إذا عثر بالهويينا على كنز من الذهب لم تحرك سهولة و جود لى أن تنسى جملة أنه الذي كد الطالب ، و حمل المتاعب"⁽²⁾

أوردت هذا النص الطويل قصد تقديم الرؤيا التداولية واضحة، كما قدمها لنا (عبد القاهر الجرجاني) إضافة إلى أهمية القضايا التي يعالجها من خلاله، فهو يركز فيه - ناهيك عن اهتمامه بوضعية المخاطب - على الرسالة الشعرية التي تؤثر بدورها في عملية التواصل الشعري، فاللفظ الواقع موقعه الملائم، و المواتي يمتلك قدرة على نقل التجربة الشعورية ، و النفسية للشاعر، بل أكثر من ذلك فقد يزداد هو نفسه قوة و تأثيرا و جمالا، حيث يعمل هذا اللفظ على التأثير في و جعله يعيش نفس اللحظات التي يحيها المبدع أو المؤلف.

وقد يبدو لنا جليا - من خلال النص السابق ذكره - البعد التداولي العميق في كلام (عبد القاهر الجرجاني) ، و هو أن المعاني الواضحة القريبة، تكون سهلة الفهم، ولا تدعو المتلقي إلى إمعان النظر فيها، ومنه يكون التواصل الشعري قد دون تعب و كد، كما نلاحظ أن (عبد القاهر الجرجاني)، قد حاول ربط عملية التواصل الشعري بالنظم، فركز على المتلقي، كما أشرنا سابقا، بل أنه جعل مهمة الناظم الأساسية هي توصيل المعني إلى المتلقي، و ذلك من خلال قوله: "..... وليث شعري هل يتصور وقوع قصد منك إلى معني الكلمة من دون أن تريد تعليقها بمعني كلمة أخري، و معني القصد إلى معاني الكلم، أن تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه، أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها، فلا تقول خرج زيد لتعلمه معني خرج في اللغة، و معني زيد، كيف و محال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها " ⁽³⁾

يتجلى دور النظم عند (عبد القاهر الجرجاني)، في بيان وظيفة اللغة ، و كذا في الجانب المنطوق، و نظام النحو، و هذا في إطار مراعاة مقتضى الحال الحاصل بين الوظائف النحوية ، و المفردات التي تشغلها، و قد تمكن من إدراك أهمية التوفيق بين الشكل المادي للصياغة ، الجانب العقلي للمعني، و ذلك بالاستعانة بالنحو التقليدي، مع تحويله إلى إمكانات إبداعية بالنظر إلى الصور النحوية الظاهرة و مسبباتها الوظيفية "فالنظم حسب بناء، أو أداء يلتزم فيه كل لفظ

(2) - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، شرح و تعليق عبد المنعم جفاجي، القاهرة ، (دت)ص 123 ، 124.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص 375.

بمكانة له، و يأخذ ميزة من التعبير كي يؤدي أو يكشف عن دلالة كانت خبيئة في النفس مرتبة في الذهن، فيفصح و يبين عنها نظم الكلام من خلال ارتباطاته النحوية و علاقاته الشعورية...⁽¹⁾ فالكلام المرسل على السجية من دون تكلف ، أو صنعه، يعد من أهم و أخطر السبل المفضية إلى الإبلاغية في البلاغة العربية، فاللفظ كي يتمكن من نقل الشحنة الإبلاغية يفترض أن لا يفسر يقضي على سمة الصدق في التعبير، و يفقد جزءا كبيرا من الشحنة الإبلاغية و إلى ذلك أشار (الدكتور محمد عبد المطلب) من خلال حديثه عن قضايا الحداثة عند (عبد القاهر الجرجاني)، يقوله: "...إن عبد القاهر يميل إلى الوسطية، فلا يميل إلى التسطیح الكامل، ولا التعمية الكاملة، و إنما البنية الشعرية بين هذا و ذاك، و هذا الموقف ليس عملية تليفق، و إنما عملية توفيق بين ما تطلبه الشعرية من غموض محسوب و ما بتطلبه التلقي من قدرة ذهنية في الوصول إلى الناتج الدلالي"⁽²⁾

نلاحظ من خلال هذا القول أن عبد القاهر الجرجاني قريب من المفهوم التداولي ، فالتداولية عنده تكمن في هذه الوسطية حيث إن اهتمامه بالمفردة و أسباب جودتها لا يتصل بالشعرية ، و لكن يتعلق الأمر كذلك بالكلام كوسيلة تواصل.

ولعل المتصفح لكتاب البلاغة العربية للدكتور(محمد العمري)، سيجده يتعرض إلى هذه المسألة عند انتقاله من حديثه عن التيار الشعري أو الغرابة الشعرية إلى التيار التداولي أو المناسبة التداولية، و ذلك في محاولته تقديم مفهوم دقيق للمعني، و معني المعني عند القاهر الجرجاني من خلال إدراجه هذين المفهومين تحت ما سماه بالعناصر المعنوية التي جعلها تحتل مكانا وسطا بين الشعرية و التداولية، و كل هذا يندرج تحت إطار بلاغة اللفظ الذي يتمثل في الاستعارة و التمثيل و الكتابة و هو مفهوم ينضوي تحت مصالحة مع الاتجاه التقليدي الذي يجعل البلاغة في اللفظ ، وفي إطار هذه المصالحة تمت الإبداعات الكبرى للبيان تحت مفهوم صورة

(3)

وفيما يخص ملامح التداولية عند (السكاكي ت 626 هـ) فإننا نجدها لا تتعد كثيرا عما و ند (عبد القاهر الجرجاني)، فلقد اهتم (السكاكي) أيضا اهتماما كبيرا بالمتلقي أحد أهم عناصر العملية التواصلية ، من خلال ربطة بمقتضي الحال، لأن وضعية المتلقي، و أحواله تساهم مساهمة فعالة في فهم المقصد فهما جيدا، و تحدد أيضا نوعية الكلام المرسل من المتكلم، تلقي كما يقول (السكاكي): "إما خالي الذهن، و إما متردد في الحكم ، و إما منكر له، وقد

(1) - أحمد فتحي عامر ، من قضايا التراث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د ت)، ص 258.

(2) - محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونغمان، القاهرة ، ط1، 1995، ص 113-114.

(3) - أنظر محمد العمري ، البلاغة العربية ، أصولها و امتداداتها، ص 18.

يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيجعل غير السائل - وهو خالي الذهن - كالسائل وقد يجعل غير المنكر كالمنكر، وقد يجعل المنكر كخير المنكر"⁽¹⁾

يعرض أمامنا (السكاكي) مجموعة من الحالات الذهنية و النفسية التي يكون عليها المتلقي في أثناء تلقي الرسالة . ويجعل الكلام مرتبطا بهذه الحالات المختلفة مشيرا إلى أهمية مراعاة المرسل لمقتضى الحال، لأن مخالفة هذا المقياس، قد تؤدي إلى إخراج الكلام على غير مخرجة الصحيح مما يجعل الفهم متع .

ونظر إلى أهمية المتلقي، فإن (السكاكي) يجعل الحديث عنه مرتبطا بالحديث عن المقام ، وفي ذلك يقول : ".....فمقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، وكل ذلك معلوم لكل لبيب، و كذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل ذلك مقتضى غير"⁽²⁾، يؤكد لنا هذا النص، فكرة أنه (لكل مقام مقال)، لأن (السكاكي) يذهب من خلاله إلى ضرورة مخاطبة كل طبقة بما يناسبها، فالكلام الموجه إلى الذكي ليس نفسه الكلام الموجه إلى الغبي.

ويتغير حاله المتلقي يتغير قصد المتكلم، وذلك قصد الإفهام، و إيصال المعني من أقرب مرمى لتحقيق الفائدة، كما أن اختلاف المقام أيضا يؤثر في العملية الإبلغية، فمقام السؤال ليس هو مقام البناء، وكل ذلك يؤثر في مدى استجابة المتلقي.

ولعل (السكاكي) أثناء حديثه عن المتلقي، و المقام أشار ضمنا إلى قضية الأفعال الكلامية، من خلال حديثه عن الأساليب الإنشائية ، التي تعد بكل ما تحمله من تقرير و مباشر جوهر (نظرية (3) ونظرا لما قدمه السكاكي في هذا المجال، كان موضع اهتمام الباحثين، و البلاغيين العرب ، لأن بلاغته تجمع بين النحو و المنطق، و الشعر، أي أنها تجمع بين العلوم الثلاثة (البيان و البديع و العروض)، و بهذا "يعتبر السكاكي اليوم موضع عناية من طرف اللسانيين التداولين، و المناطق فضلا عن البلاغيين و المقعدين....."⁽⁴⁾.

فقد أولى عناية كبيرة لعلم المعاني ، لأنه الأساس الذي بني عليه بلاغيه، وهي في أغلبها تمثل العلاقة بين المعني و اللفظ ، وصلة هذا اللفظ بما تتعرض له الجملة، و ذلك في قوله، " ... هو

(1) - السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت (د ت)، ص 70.

(2) - المرجع نفسه، ص 73.

(3) - الفعل الكلامي هو تكلم لغة معينة، يؤدي إلى تحقيق أفعال كلامية، أو لغوية مما يعطينا مجموعة من الأفعال للتأكيد ، و للأمر ، و للاستفهام، فالتلفظ بجملة معينة في سياق مناسب لها يعني إنجاز فعل كلامي، كالطلب مثلا (هل بإمكانك أن تعبرني قلمك؟).

(4) - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص 27.

الذي يدخل تحت ما سمي بعلم المعاني الذي يختص بتتبع سمات تراكييب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الإستحسان وغيره احترازا عن الخطأ في مطابقة الكلام (1).

إن تركيز السكاكي على علم المعاني ، جعله مصدر اهتمام للسانيات التداولية حاليا عند الباحثين العرب ، لأنه يركز في هذا الجانب على تراكييب الكلام المفيد، و مطابقته الحال، لتمييز الجيد من الرديء، و هذا ما تسعى إليه التداولية المعاصرة، ولعل الاهتمام بالكلام المفيد، و كذا مطابقته بمقتضى الحال كان أيضا من أهم القضايا التي عالجها (حازم القرطاجني). يقول حازم (684هـ) "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج

الناس إلى اتفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم على تحصيل المنافع و إزاحة المضار و إلى استفادتهم حقائق الأمور، و إفادتها، و جب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه إما بأن يلقي إليه لفظا ، يدل المخاطب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة، بجميع أحواله أو بعضها بالقول، إما بأن يلقي إليه لفظا يدل على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، و كان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيتا، فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون منكلا فيؤدي على جهات التفصيل و البيان، والاستدلال عليه، والاحتجاج له...."(2)

لو انطلقنا من الرؤية الحديثة في الدراسات اللسانية، التي ترى بأن الكلام علامة على المعني، للاحظنا مدى عمق النظرة التي انطلق منها (حازم القرطاجني) في دراسته للعملية التواصلية أو

ولعل التداولية بمعناها الحديث تتجلى لنا من خلال هذا النص في تفسير حازم للعملية التواصلية في أبعادها (اللغوية و النفسية و الاجتماعية)، فالكلام الذي لا يحمل قصدا لا يمكن عده كلاما، أي يجب أن يهدف المرسل إلى إيصال معني وقصد معينين ليحقق الفائدة، مما يجعل الكلام عنده يرتبط بالقصد و الفائدة . و يبدو ذلك إثر تأكيده على أنه: "...لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المعاني و إزاحة المضار...."(3)، فالطابع المنفعي من هذا المنظور هو المهيمن على العملية التواصلية، أي أن التواصل لا يمكن أن يتم إلا إذا حقق الفائدة، مصداقا لقوله: "...بحسب

(1) - السكاكي، مفتاح العلوم ، ص 70.

(2) - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تقديم محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ، ط2، ص 216.

(3) - المرجع السابق ، ص 216.

احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع ، و إزاحة المضار...."⁽⁴⁾ هو الوسيلة الأولى التي تساعد الناس على التواصل و التعايش و التفاهم و الاستمرار.

ومنه، فإن هيمنة الجانب المنفعي على الخطاب عند(حازم القرطاجني)، يؤكد أن "...حازما هنا يتفطن للبعد البراغماني أو التداولي في العملية التواصلية ، إن هذا التصور النقدي للتواصل الشعري متطور جدا، و يعكس عمقا في النظرة ، ووعيا بعناصر التجربة الشعرية باعتبارها تجربة لغوية نفسية يكتنفها إطار اجتماعي و مقام خارجي يؤثر فيها و يتأثر به...."⁽¹⁾

فالتواصل من هذه الزاوية يرتبط ارتباطا وثيقا بالتفاهم الذي يؤدي بدوره إلى إيصال المعني و القصد ، و تحقيق الفائدة التي يريجوها المتكلم، و هذا الوضوح في المعني، سيلقى استجابة أكيدة الذي يعد عنصرا هاما في العملية التواصلية ، و بهذا فإن "...عملية التلقي في هذا التصور ليست متعة جمالية خالصة فحسب ، و لكنها عملية مشاركة و جودية تقوم على الحوار بين المبدع و المتلقي...."⁽²⁾

و يشترط في هذا الحوار توفر عنصري التأثير و التأثير، فكما يقول (حازم القرطاجني): "...يجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب و إما الاستفادة منه...."⁽³⁾ . فهو يركز على الأثر لأهميته في عملية التلقي ، لأن الأثر الذي تتركه الرسالة، و المرسل، في المتلقي، هو الذي يعكس مدى قدرة المرسل على تبليغ فكرته.

و الإشارة فإن فكرة الأثر قد حظيت باهتمام كبير عند الباحثين العرب القدماء، مما جعل نجاح الخطاب عندهم يرتبط بالأثر الأنبي الذي تتركه الرسالة في المتلقي، حيث تصبح عملية التلقي عندهم مقرونة بالفائدة، إضافة إلى أهمية المتلقي الذي يساهم مساهمة فا أدبي، لأن: " قيمة العمل الأدبي، يكمن في أن تقدر بمراعاة حالة المتلقي، و من ثم يثار هذا المتلقي كلما كان تأليف العبارات مناسبا...."⁽⁴⁾

فالتأثير المتبادل بين المتكلم و المتلقي يعد أمرا ضروريا و هاما في العملية التواصلية (الكلام) ند (حازم القرطاجني). أما بالنسبة للتداولية الحديثة، فإن فكرة التأثير المتبادل بين المرسل و المتلقي حظيت باهتمام كبير - لأن الأثر يقترن دائما بقدرة المرسل على التبليغ في حضور جملة من الشروط كالوضوح، و الإيجاز، و القصد و غيره - عند أبرز رواد هذه النظرية مثل (سيرل،

(4) - المرجع نفسه ، ص 216.

(1) - محمد أدويان ، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني و نظرية الأفعال اللغوية المعاصرة ، ص 26.

(2) - محمد عبد المطلب ، البلاغة و الأسلوبية، الشركة المصرية العالمية ، دار لونجمان، القاهرة ، ط1، 1994، ص 173.

(3) - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، ص 216.

(4) - أحمد كمال زكي، النقد الأدبي الحديث أصوله و اتجاهاته، القاهرة (د ت)، ص 36.

و بيرس ، و أوستن...) فالنص يؤول تداوليا إلى فعل كلامي لا يتحقق إلا بتضافر مجموعة من الشروط من بينها ضرورة (التأثير و التأثير) بين المرسل و المتلقي.

أراد (حازم القرطاجني) من خلال قوله: "...إفادة المخاطب أو الاستفادة منه...." التركيز على المرسل و المتلقي في العملية التواصلية، و أهمية العلاقة التي تربط أحدهما بالآخر (علاقة التأثير و التأثير)، فالمتلقي فور تلقيه الرسالة يثير مجموعة من ردود الأفعال "...فإما أن يثير المتكلم رد فعل كلامي من طرف المخاطب، أو رد فعل عملي و سلوكي، أو رد فعل و تلك هي الأنماط الثلاثة التي تمكن المخاطب من التعبير عن مواقفه إزاء المتكلم في لحظة تواصلية ما"⁽¹⁾

ولعل في ردود الفعل هذه، إشارة الأثر الآني الذي تحدث عنه (حازم القرطاجني)، وغيره من الباحثين العرب القدامى، لأن هذه الردود تعكس لنا بقوة بلوغ المعنى ، و القو و بما أن الأثر يتعلق بالمتلقي، فإن هذا دليل على الأهمية التي حظي بها هذا العنصر في الدراسات العربية القديمة والحديثة لاسيما في الدراسات التداولية المعاصرة، "... بل إن اهتمام بهذا المخاطب يكاد يغطي على أي اهتمام بجانب المتكلم ..."².

ننسى اهتمام (حازم القرطاجني)، وغيره من البلاغيين العرب القداماء (بمقاصد المتكلم)، وهو يعرف في التداوليات المعاصرة بـ(نوايا المتكلم) التي تعمل على توجيه الخطاب أو النص و تساهم في إنجاحه.

وانطلاقا من هذه الفكرة، تحدث (حازم القرطاجني) عن اختلاف مقاصد الشاعر بـ نواحي تأثيره في المخاطب، فالعلاقة بين مقاصد الشاعر ونواياه، ونواحي التأثير عند المخاطب هي علاقة تلازم. و يكرنا هذا التلازم بمقولة شهيرة (لالبوت) كان يردد من خلالها أن " ... القصيدة تقع في مكان ما بين الكاتب والقارئ ..."³

ولكي يكون الحديث عن العملية الكلامية وشروطها مكتملا عند (حازم القرطاجني) ينتقل بنا إلى الحديث عن السياق ودوره الفعال في عملية التواصل، وكذا الوظائف المختلفة المتعلقة به. فالمقام كفيل بالمحافظة على معاني الخطاب، لأن فقدان المقام لخصائصه، وشروطه ينعكس سلبا على الخطاب الذي يصبح خاليا من

(1) - محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني و نظرية الأفعال اللغوية المعاصرة ، ص 26.

2 محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، ص 242.

3 نجيب فايق أندراوس، المدخل في النقد الأدبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1974 106.

وعموما فإن فكرة التداولية عند (حازم) تظهر أثناء حديثه عن القصد، والفهم، والمنفعة، والتأثير و التأثير، وأحوال الخطاب، والمرسل والمتلقي، إضافة إلى السياق الذي يتم فيه التواصل، وهي خصائص ومفاهيم تداولية معاصرة جدا، تعكس عمق النظرة عند حازم القرطاجني. وانطلاقا من هذه النظرة يصبح الخطاب عنده بصفة عامة، والشعري منه بخاصة، يحمل بعدا تداوليا معاصرا جدا لاقتترانه بالفائدة.

وتجلت ملامح التداولية عند (ابن خلدون 732 808هـ) بشكل مخالف لصورها عند بقية الباحثين العرب القدامى، حيث كان تجليها يقتصر عند الواحد منهم على عنصر من عناصرها كالمُرسل، أو الرسالة، أو المتلقي، أو المقام، أو القصد و النية،... وغيرها من عناصر المنظومة التداولية.

لأن تجليها عند (ابن خلدون)، يقترب مما يعرف اليوم الفكر الأمريكي بـ: الذراعية النفعية (pragmatisme)، إذ نظر إلى الغاية من دراسة الأدب، واكتساب الملكة اللسانية بشكل شمولي حيث يقول: " الأدب هو حفظ أشعال العرب، وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف "ثم يضيف: " إنما المقصود منه (يعني الأدب) عند أهل اللسان، ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم"¹

ابق يحدد الغاية الكبرى للأدب بشموله، ممثلا في أشعار العرب، وأخبارها، وأيامها، وكل روافده من العلوم الأخرى، فلا يتعدى بها هدفا واحدا يتمثل امتلاك ناصية الكلام على أساليب العرب في الفصاحة.

وقياسا على الأدب يرى أن امتلاك اللغة بشمولها، يجب أن يكون من أجل الإبانة، والإفهام وهو أقصى ما تذهب إليه التداولية الحديثة مثل ما هو موضح في النص التالي: " أعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها، بحسب تمام الملكية أو نقصها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكية التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة..."²

من خلال النص يمكننا أن نستخلص المفاهيم التداولية التالية: " الملكية اللغوي"، " الجودة والقصور"، " التعبير عن المعاني المقصودة"، " مراعا التأليف"، " مقتضى الحال"، " التبليغ

¹ - ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد، بيروت، لبنان، ص553.

² - المرجع نفسه، ص554.

"، الغاية من إفادة المقصود"، "السامع"، "البلاغة"،... وهو ما يمكن التعبير عنه في اللسانيات الحديثة بالمعاني التالية: (الأداء، الكفاءة، القصد، التركيب، السياق، المتلقي وغيرها). ولعلنا لا نجد صعوبة في استنباط قاموس ثري من المفاهيم التداولية التي تعرض لها العلامة ابن خلدون في شكل واضح، وبمنهج لا يمكن أن يلتبس على أحد. ولعل أرقى ملامح التداولية عند (ابن خلدون) تجلت في النص التالي الذي عنونه بأن ملكة اللسان غير صناعية العربية، يقول " نجد كثيرا من جاهابذة النجاة و المهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين (يقصد قوانين النحو)، إذا سئل في كتابه سطرين إلى أخيه، أو ذي مودة، أو شكوى أخطأ فيها عن الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك و العبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي، وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، ويجيد الفنين من المنظوم و المنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية"¹.

من أحسن التعليقات على هذا النص وجدتها عند الدكتور (سالم علوي) في مقال له بعنوان ابن خلدون و علوم اللسان العربي: " نخلص إلى أن الملكية في التأدية، فالملكة لا تحصل إلا تأدية فحال متغيرة غير راسخة، وهذا الكلام فيه سبق لا نجده إلا في اللسانيات الحديثة مثل ما هو الحال عند تشومسكي، الذي فرق بين الملكة و التأدية (la compétence et la performance) أو دوسوسير الذي فرق بين اللسان و الكلام (la langue et la parole)"²

بق نلاحظ ان التأدية أمر ضروري لكل علم من علوم اللسان، فلا فائدة من النحو مثلا معزولا عن الإجادة في الكلام و الفصاحة، إذ العبرة بالفائدة، و القدرة على الإبلاغ و الإفهام بشكل جيد وفعال، وهو أعلى مراتب التداولية الحديثة.

ولا عجب أن ينحى (ابن خلدون) هذا المنحى لأن علوم اللغة كلها نشأت في نظره لهذا أكبر وهو إدراك إعجاز القرآن، ومعرفة الشريعة، وبالتالي لا يجب أن تكون غاية مجردة لذاتها، بل هي الوسيلة لفائدة ومنفعة أكبر، فلنتابع قوله - وهو يتحدث عن علم البيان، حيث يقول: " إن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام من الكمال"³

¹ 560.

² سالم علوي، ابن خلدون و علوم اللسان العربي، حلويات جامعة الجزائر، العدد الثامن، 1994، 192.

³ 552.

إن هذا المنحى المنفعي الواقع في الدراسة لا يبلغ ذروته إلا في المنهج التداولي الذي جاءت به اللسانيات الحديثة، فالأدب ثمرة، وللغة هدف، وللنحو غاية، وللبيان قصد ومهمة، وهكذا ...

وكلما شرفت الغاية شرفت الوسيلة، لتكون الغاية الأسمى هي فهم القرآن الكريم والمحافظة على الشريعة.

خلاصة القول إن ملامح التداولية تجلت بوضوح عند هذه الكوكبة من العلماء العرب القدامى، من خلال اهتمام كل واحد منهم بعنصر معين من عناصر العملية التواصلية. 1 فقد تبلورت فكرة التداولية عند الجاحظ من خلال اهتمامه بفكرتي (الإقناع و التأثير) مما يترتب عنهما التركيز على كل عناصر الخطاب من (المرسل، الرسالة، ومرسل إليه). ولعل المنطلق عند الجاحظ كان (اللفظ و المعنى) اللذان يتعلقان بمفهوم البيان عنه، وتحقيق الفهم والإفهام.

2 أما ابن جنبي، فتحدث عن جملة من المفاهيم التي تعتبر تداولية في صميمها، كالكلام ومخاطبة كل إنسان بما يعتاد ويأنسه، و القصد، والمعنى، والتواضع، والنطق، والمخاطب، والفهم... الخ. 3 واما أبو هلال العسكري، فقد كان حديثه متمحورا: نوايا ومقاصد المتكلم، ومراعاة أحوال المستمع، والمقام الذي صدر فيه الخطاب، ويقترن بالفائدة، و الإيجاز، والإقناع، والتأثير. وينضاف إلى ذلك كله حديثه عن التداول الذي خصص له باب كاملا في كتابه (الصناعتين) واعتبره من أهم المكونات البلاغة، فالتداولية عنده تظهر من خلال حديثه عن: (المرسل، والرسالة، والمرسل إليه، والقصد، والمقام، ومراعاة مقتضى الحال، و الفائدة، والتداول، (...)

4 أما ملامح التداولية عند (ابن سنان الخفاجي) فإنها تظهر في حديثه عن مفهوم الكلام، واعتباره أن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل، والتواضع، والمرسل و المتلقي، وقصد المتكلم، ونواياه و الفائدة، والتأثير.

5 وقد ظهرت بعض الملامح التداولية عند (عبد القاهر الجرجاني) أثناء حديثه عن وضعية المخاطب، واهتمامه بقضية (اللفظ و المعنى)، والتأثير في المتلقي، و الوضوح.

6 ملة من المفاهيم التي تعكس بعض الملامح التداولية كاهتمامه بمراعاة مقتضى الحال، وربطه الكلام بحالة المتلقي الذهنية والمقام، والفهم، و القصد، ونوعية الكلام المرسل، والأساليب الإنشائية وهو ينطلق في ذلك كله من إشكالية (اللفظ و المعنى).

7 أما ملامح التداولية عند حازم القرطاجني، فإنها تظهر من خلال حديثه عن العملية التواصلية، واعتباره أن الكلام هو الوسيلة الأولى للتواصل، والقصد، والفائدة والتأثير، والتأثر، والمرسل، والمتلقي، والوضوح، والإيجاز، والمقام.

8 وقد تجلت ملامح التداولية عن ابن خلدون من خلال حديثه عم شمولية الأدب وثمرته، وعن الإبانة والإفهام، والملكة اللغوي، والجودة والقصور، والتعبير عن المعاني المقصودة ومراعاة مقتضى الحال، والغاية من إفادة المقصود، والبلاغة، والسامع، وكلها مطالب أساسية في التداولية الحديثة.

- التداولية في الدراسات المعاصرة:

يقتضي تناول مفهوم التداولية في اللسانيات الحديثة الانطلاق من منابعها الفلسفية بمعرفة أعلامها ومناقشة أفكارها بالتحليل. كما ارتأيت أن أشير إلى بعض الجوانب التطبيقية للتداولية في الحق الأدبي، مثل التداولية ونظريات التلقي (Théories de réception)، والتداولية وسميما التواصل والتداولية والصور الشعرية. ثم سأطرق إلى بعض المفاهيم التداولية، مثل الفعل اللغوي، والفعل الإنجازي، والسياق.

1 مقاربة حول مفهوم التداولية:

يرتبط ظهور التداولية بمجموعة من التراكمات القديمة والحديثة في مجال فلسفة اللغة و اللسانيات بصفة عامة. وتعود جذورها الأولى إلى " الفلاسفة اليونان كسقراط، وأرسطو، والرواقيين"¹، ولكنها لم تكن واضحة المعالم بل كانت مجرد إشارة عابرة، ومتفرقة بين طيات أعمالهم، أي أنها لم تعرف منهجا قديما بذاته، له أدواته، وتقنياته الخاصة، وما زالت التداولية حتى يومنا هذا حقلًا لسانيًا جديدًا لم يكتمل صرحه بعد.

¹ - التداولية "... اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد (سقراط)، ثم تبعه (أرسطو) فيما عرف بفكرة التطهير، والرواقيون كذلك، وهي ليست سوى تطبيق للمبدأ المعبر عنه في الكتاب المقدس بالعبارة (تعريفها بثمارها) "... أي أن التداولية تقتزن بفكرة الأثر. انظر حامد خليل، المنطق البراغماتي عند بيرس، مؤسس البراغماتية، دار الينابيع مصر، 1996 1996.

فقد عرفت التداولية في بداية ظهورها كنظرية فلسفية أكثر منها مقاربة لسانية، وهذا ما أجمعت حوله معظم الدراسات الحديثة، حيث إنها اقتترنت في الأذهان بأعمال أكبر الفلاسفة أمثال (أوتين، وباركلي، ووليم جيمس، ...) وكان الاختلاف قائما حول أول ظهور للتداولية، ولمن يعود فضل السبق فيها. وفي هذا المجال يقول (حامد خليل) "... إذ على الرغم من أن بيرس مؤسس الحركة المسماة " الرغاماتية " فإن هذه الحركة اقتترنت في الأذهان باسم (وليم جيمس) الذي قدمها للناس بوصفها نظرية فلسفية أكثر منها قاعدة منطقية "...

وتشير معظم الدراسات إلى تداخل هذا الحقل مع حقول أخرى، كاللسانيات، والسيمائية وعلم الاجتماع. وربما يعود هذا التداخل إلى تنوع المنابع و المنطلقات التي ساهمت في تكوين الحقل التداولي. وإلى هذه الخاصية أشار كل من (فندرليش) (weinreich) () (Mass) في كتابهما: (Pragmatik und sprachilichers).¹

كما برز داخل هذا الحقل مجموعة من أشهر الباحثين مثل: غرايس، وسورل، واوستين، وبيرس، وموريس وكروتشه وفنينغشتاين، وفندرليش. فهؤلاء جميعا ينطلقون في دراسة التداولية من خلفيات وإيديولوجيات مختلفة مما جعلها تشهد مجموعة من التوجهات في الأبحاث التي أسفرت بدورها عن مجموعة من التيارات التداولية الحديثة. وهذا سيؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في تحديد المفهوم وعدم الإجماع على مصطلح موحد خاصة عند الباحثين العرب، لأنه " ... نتيجة لتداخل حقولها أخرى مجاورة لها، فإن لها كثيرا من الترجمات في العربية منها: التبادلية، والاتصالية، والنفعية إلى جانب الذرائعية...² وعلى الرغم من هذا الاختلاف حول مفهوم التداولية تبقى سمتها العملية هي الغاية على كل الأبحاث و الدراسات، حيث تؤكد كل المفاهيم على اهتمام ه

1- كما يقول في موضع آخر " ... لكنها لم تظهر إلى الوجود كنظرية في الفلسفة إلا على يد باركلي... "

أنظر حامد خليل، المنطق البراغماتي عند بيرس، ص 493 196.

2- ذكر هذان الباحثان أربعة منابع أساسية أدت إلى تكوين هذا الحقل (التداولية):

" - السيميائيات المنطقية المرتبطة بنادي فيينا.

- سيميائيات شارل موريس التي تفرع عنها تيار طاغ أعيد التفكير فيه من خلال مكون العمل (travail conposante) ويمثله ج. كلوس من ألمانيا الديمقراطية.

- الذرائعية الأمريكية (Pragmatisme) (ل: ش س بيرس)

انظر الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، سلسلة الدروس في اللغات و الأداب، ترجمة محمد يحياتن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992 43.

- ميجان الرويلي، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2 2000 100.

يعتبر (أوستين) (Austin) من الاوائل الذين نظروا إلى التداولات اللغوية، ونظرية أفعال الكلام، بمعنية مجموعة من الرواد أمثال (غرايس Grice، وسورل Searle ...) . الإشارة إلى ذلك. تهتم التداولية عنده بالتعامل اللغوي داخل المؤسسة الاجتماعية، وتتحدد على أنها اتجاه " ... تتلاقى فيه على وجه معين ميادين من المعرفة مختلفة، أهمها علم اللغة الخالص، والبلاغة، والمنطق، وفلسفة اللغة، وكذلك علم الاجتماعي وغيرها من العلوم المهمة بالجزء ...¹ وهذا ما يجعل التداولية عند (أوستين) حقلا جامعاً لمجموعة من المعارف التي تهتم بالجزء " الدلالي من اللغة "² وأيضاً فإن القاسم المشترك بين جميع هذه العلوم هو أنها " ... تجاوزت المفاهيم اللغوية التي عرفتھا الفترة الممتدة بين سوسير وتشومسكي .."³، أي أنها تجاوزت المبدأ القائل بدراسة اللغة لذاتها، أو (اللغة كنظام لساني) إلى دراسة اللغة كوسيلة تواصل، وهذا ما تركز عليه اللسانيات التداولية اهتمامها. ومن ثم فإن التداولية عند (أوستين) تتحدد من خلال دراسة الجانب المنطوق من اللغة، و البحث في دلالاته المختلفة من خلال جموع الأفعال الكلامية القابلة للتحقيق.

أما إذا انتقلنا إلى (بيرس) (Peirce) فإننا سنجد أن " التداولية عنده أولاً بالمنطق ثم بالسيميوطيقا (sémiotique) "⁴

وهذا ما أشار إليه الأستاذ (محمد صلاح الدين الشريف) في قوله: " .. تقوم البراغماتية على تصنيفها داخل نظام عام وله جذوره في مشروع (بيرس) الهادف إلى وضع علامة ودلائلية

¹ - عبد القاهر المهيري و آخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2 1990 .95

² - نشير إلى أن التداول أوسع من الدلالة لأنه يزيد عليها بعنصر النطق.

³ - عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص195.

⁴ - إن التداولية بوصفها نظرية أو حركية منطقية عرفت أول ظهور لها مع (بيرس)، أين تكونت ملامحها الأولى قبل مقاله الشهير، الموسم بـ: (كيف نجعل أفكارنا واضحة) عام 1878 بسبع سنوات. (انظر حامد خليل، المنطق البراغماتي عند شارلز بيرس مؤسس البراغماتية، ص 198.

ولقد تأثر (بيرس) في صياغة القاعدة التداولية بمجموعة من الباحثين مثل (رايت، ودونزسكوت) من العصر الوسيط، إضافة إلى كانط. فهو ينطلق في البداية من فكرة أساسية أخذها عن (رايت) مفادها " ... أن فكرتنا عن أي شئ ليست سوى فكرتنا عن آثاره الحسية ... " (انظر المرجع نفسه، ص196). كما استفاد (بيرس) من (دونزسكوت) الذي يرى " أن كل تجربة يقوم بها الإنسان هي تجربة لموضوعات فردية، وأن المفاهيم العامة و الحدود المجردة لا معنى لها إلى الحد الذي تشير إلى أفراد بطريقة عينية ... "، أما تأثره بـ: (بن) (Ben) فقد كان واضحاً جداً، لأنه أخذ عنه فكرة المعتقد التي شكلت جزءاً هاماً من دراساته في مجال التداولية حيث هيمنة هذه الفكرة على كل أبحاثه وأعماله حتى آخر أيامه " ... ولا تفوتنا الإشارة إلى أن بيرس ربط البراغماتية في آخر مرحلة من مراحلها بـ(أبوت) فقد ذكر أن البراغماتية وقعت تحت تأثير واقعية أبوت " (انظر حامد خليل، المنطق البراغماتي، شارلز بيرس مؤسس البراغماتية، ص196)

(سيميوطيقا) تكون نظرية منطقية عامة...¹ فالتداولية إذن تمتد إلى مشروع (بيرس) السيميائي في إطار نظرية منطقية عامة، لتصبح تداولية فلسفية تستمد وجودها من فلسفة اللغة. ولعل أول تحديد لمفهوم التداولية عنده، ينطق من كونها منهجا او طريقة في التفكير تبحث في معنى الاشارات و العلامات، وارتبط هذا المنهج في البداية بالخطوة الاستقرائية في العلوم التجريبية، وساواها بمرحلة الفرض، وأولى فكرة الأثر الناتج عن سلوك معين اهتماما كبيرا. وانطلاقا من هذه الفكرة أي (الأ²) يتبلور مفهوم التداولية عند (بيرس) من حيث أنها منهج متصل بالمنهج العلمي، وبالخطوة الاستقرائية. ومن ثم فإن فهمه للتداولية في هذه المرحلة كان إجرائيا، انطلاقا من ربطه إياها بفكرة (المعتقد)³، التي تهدف إلى تأسيس قاعدة عامة للفعل في علاقته بالفكر، لأن المعتقد عنده هو الأساس في إنتاج الأفكار. وانتقل (بيرس) في الأيام الأخيرة من حياته، من الفهم الإجرائي للتداولية إلى الفهم المنطقي الخالص لها، لأنه ربط بينها وبين نظريته في الإشارات، والاتصال وراح يبحث ضمن هذه النظرية عن طريقة يتم بها الاتصال بين الأفراد. منه، فإن وضوح المفهوم التداولي عند (بيرس) لم يبلغ نضجه إلا في آخر مراحل حياته

ويتجلى ذلك من خلال ربطه بين التداولية ونظرية الإشارة، حيث أصبحت التداولية عنده تعني الاتصال، والاهتمام بالجانب الحيوي من اللغة. وخالصة القول إن مفهوم التداولية عند (بيرس) عرف عدة تطورات، إثر مروره بعدة تغييرات رئيسية لها علاقة بتكوينه الفكري الذي شهد بدوره مراحل مختلفة.⁴

إن الحديث عن تداولية (بيرس)، يقودنا إلى الحديث عن مفهومها عند الدكتور (طه عبد الرحمن) الذي نحا منحى (بيرس) في هذا المجال فهو يرى أن التداولية تركز اهتمامها على الواقع ويتبين لنا ذلك من خلال قوله: " ... اعتقد أن المنهج التداولي منهج مناسب للبحث ميادين المعرفة، التي تنقلها اللغة الطبيعية، ومن هذه الميادين: الميدان الأدبي، فنظرية تحليل

¹ - عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص99.

² - أصبحت فكرة الأثر، محور اهتمام نظريات القراءة المعاصرة التي تهتم كثيرا باستجابة القارئ، ومدى تأثيره بما

يرسل إليه، (مختلف نظريات التلقي) (Théories de réception).

³ - المعتقد من أهم النقاط التي انطلق منها (بيرس) في تحديد القاعدة البراغمية، ويرى أن المعتقد يرتبط بالفعل و الفكر، لأنه يمثل أهم وظيفة له، ومهمته تمكن في تأسيس قاعدة للفعل.

⁴ - إن الشيء الذي لم يتغير، وبقي يميز التداولية عند (بيرس) هو الطابع الفلسفي و المنطقي الذي جعل منها منهجا وطريقة في التفكير. وتوضيح معنى الأفكار وكذا الارتباط الوثيق للتداولية عنده بالأثر الذي يتركه الموضوع و النتيجة المترتبة عن ذلك بهدف معرفة الواقع.

الخطاب هي جزء من التداوليات، والميدان الحجاجي الذي استفاد كثيرا من التحليل التداولي، وخاصة نظرية الأفعال اللغوية، والميدان الفلسفي الذي تبادل مع التداوليات الأخذ
...¹

فالدكتور عبد الرحمن يذهب مذهب (بيرس) من حيث حصره مهمة التداولية في نقل الواقع. وكذا في جعلها وسيلة من وسائل المعرفة، كما يعتبرها منهجا مناسبا وشاملا لجميع ميادين المعرفة. خاصة تلك التي تنقلها اللغة الطبيعية، كنظرية تحليل الخطاب، وهي كلها تدين للنظرية التداولية. غير ان التداولية لم تكثف بالميادين المعرفية التي ذكرها (طه عبد الرحمن)، بل تعدت ذلك إلى مجالات، وحقول معرفية أخرى، كالفن، والاقتصاد، والمسرح، حتى أن حياتنا اليومية أصبحت تخضع للنزعة التداولية في أكثر نواحيها.

ولا تفوتنا الإشارة، ونحن بصدد الحديث عن مفهوم التداولية، إلى تبلور هذا المفهوم عند (أمبرتو إيكو) (Umberto Eco)، ونظرا إلى مساهماته الفعالة فيها، والتي تمكن " ... في موقفه من التأويل، ومن القراءات المتعددة، وموقفه نابغ من محاولته التوفيقية بين دلالية (بيرس)، والنظرية السيميائية ذات الأصل السوسوري، ونظريات تحليل الخطاب. هكذا، يجد القارئ "أمبرتو إيكو" قائلا بالقراءة المتعددة، و الدلالة اللامتناهية، و القارئ النموذج
...²

تتلخص إذن مساهمات (امبرتو إيكو) - في أطروحة المقصدية، ومحاولته تقصي خطوات الاتجاهات التأويلية.
وما يعنينا من هذا النص هو أهمية هذه المساهمات في الحقل التداولي، فقد قال (أمبرتو إيكو) بتعدد القراءات والدلالة اللامتناهية. والنص يقبل قراءات متعددة عنده هو الذي يحقق أكبر المتلقين، وهو موقف تداولي تسعى من وراء عملية التواصل إلى تحقيق أكبر استجابة لدى القارئ، من خلال تأثير المتكلم في المتلقي، باستخدام وسائل متعددة تساهم في تحقيق الفهم ..

(تو إيكو) من الأوائل الذين اهتموا بالمخاطب باعتباره عنصرا فعالا في عملية الاتصال. وهو في ذلك ينطلق من بعض المفاهيم السيميوطيقية، والتي تحدث عنها في كتابه (العمل المفتوح) من خلال قوله: "... عندما ظهرت أدبيات (العمل المفتوح) بالفرنسية في عام

¹ - طه عبد الرحمن، تكامل المعارف، اللسانيات و المنطق، مجلة دراسات سيميائية لسانية أدبية، العدد الثاني (1987/1988) 122.

² - محمد مفتاح، مجهول اليد 118 1990.

1965 وفي مناخ بني () الذي ركزت فيه على فكرة الاهتمام بالمخاطب بمثابة هزة عنيفة في وجه الرأي السائد بأن تحليل البنية السيميائية هدف يقصد لذاته، ومن أجل ذاته..."

إن منطق (أمبرتو إيكو) في كتابه العمل المفتوح هو الاهتمام بالقارئ واستجابته باعتبارهما عنصرين مهمين في العملية التواصلية، وهذا فيه لفت للأنظار نحو نظريات القراءة التي تنتمي هي أيضا إلى نظرية التواصل. ومع (أمبرتو إيكو) أصبحت اللغة وسيلة للتواصل، والتفاعل بين الأفراد داخل المؤسسة الاجتماعية، تدرس من زوايا متعددة خارجية عن اللغة ذاتها، وعندما كانت عبارة عن نظام لساني لا يقبل الدراسة إلا لذاتهن ومن أجل ذاته فالاهتمام بالمخاطب وجه الأنظار إلى عناصر خارجية عن اللغة مثل (السياق، و القارئ، و الناقل وغيره...) ¹ إضافة إلى أنه ربط بين التداولية و السيميائية لاعتقاده أن كل المحفزات، بما في ذلك الحياة اليومية، والغايات التواصلية تتحول إلى مجال مفتوح على ما لا نهاية، نتيجة لربطه بين الأفعال و العناصر ضمن سياق سيميائي، يفتح مجالا للتأويل و الدلالة التي تتحول هي ذاتها إلى مؤولات مفتوحة على ما لا نهاية.

خلاصة القول: إن (أمبرتو إيكو) يجمع بين التداولية و السيميائية من خلال حديثه عن الأفعال اللغوية و الحوافز، والغايات التواصلية التي تمثل أساس التداولية، وربطها بعناصر سيميوطيقية ليصبح كل شئ قابلا للتأويل، و غير قابل للتحديد، مما يجعل هذه العناصر تفتح على ما لا نهاية.

وتتواصل جهود الباحثين في الحق التداولي، مساهمة منهم في بناء صرحه ورسم معالمه، وتحديدتها، بالبحث عن أهم مفاهيمه، ومقوماته الفعلية، والباعثة على الدراسة . وفي هذا المجال تبرز جهود الباحث (أساكاشير) (Assakachir) الذي حاول تقديم مفهوم للتداولية انطلاقا من توجهاته الخاصة، فالتداولية عنده هي " ...وسيلة لتحديد اللغة بطريقة نفهم منها جيدا ما هو أساسي في اللغة، وهذا نفسه يعد أساسا بالنسبة للانسان نفسه ..."². إن حديث (أساكاشير) عن التداولية يرتبط بدراسة استعمال اللغة، قصد التواصل، لأنه يجمع بين ما هو جوهر في اللغة وما هو أساسي عند الانسان، وهو يشير هنا إلى خاصية النطق التي تميزهما.

¹ - يوسف نور عوض، نظرية النقد الادبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، الطبعة الاولى، 1994، ص 52.

² - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الانماء القومي، بيروت، ص 49.

كما أنه يعتبرها " ...مؤسسة على علاقات تربط تجريبيا الخطاب بالمواقف الملموسة للمفوض، إذ تحكم وجهة النظر المتعالية هنا تحليل الخطاب ..."¹

وربما يتضمن هذا الحديث إشارة إلى أفعال الكلام تبحث في أبعاد الخطاب المادية أو الحركية، وإلى ذلك أشار (ايريك قريلو) (Eric Grillo) في قوله بأن ... أفعال الكلام ... تعني فعل أو فعل القول، أو الفعل الخطابى، " ما يمكن فعله من خلال الكلمات "، " الفعل من الخطاب" أو " البعد الحركي للخطاب "، حيث إ الفعل الخطابى يندرج ضمن نوع من الدراسة تهتم بما يمكن أن يحدثه القول من تأثير يظهر على السامع من خلال الفعل الكلامي الذي يختلف عن الخطاب الخالي من التأثير على شاكلة " قيل " أو " يقال " ²

إن هذا الحديث عن أفعال الكلام يقترب من تحديد (أساكاشير) لمهمة التداولية التي يرى انها تتحدد من خلال البحث عن شروط إنتاج القول، أي المواقف الملموسة للمفوض، والشروط القبلية للتواصل، ودراسة السياق. فالتداولية عنده تهتم بالكلام وتتجاوزها إلى الاهتمام بمستعمل اللغة أي: المخاطب، مما يترتب عليه الاهتمام بمقاصد المتكلم و الأفعال اللغوية التي يستعملها لتحقيق ا .

أما إذا انتقلنا إلى محاولات (فينينغشتاين Wittgenstein) ومساهمته الفعالة في هذا الحق فنجده يرتبط بين التداولية والاستعمال الفاعل للغة من خلال العلامة التي يرى أنها تتكون من (signifiant) (signifié) و القصد (intention) ويتجلى ذلك من خلال هذا التساؤل: " ... وما الذي يعطي الحياة العلامة؟ إنها تعيش من خلال الاستعمال، فهل تمتلك النفس و الحياة في ذاتها أو ان الاستعمال هو ذاتها؟..."³

نلاحظ أن (فينينغشتاين) يعبر من خلال هذا التساؤل عن وجهة تداولية بحتة، فيربط العلامة بالاستعمال، لأنها في ذاتها لا تعني شيئا، وإنما الاستعمال هو الذي يبعث فيها الحياة و الحيوية والحركية، ويجعلها تؤدي وظيفة ما داخل المؤسسة الاجتماعية. فالتواصل هو الهدف و الغاية التي يسعى إليها (فينينغشتاين) من خلال ما ذهب إليه، والتداولية عنده هي استعمال للغة في قامات الفعل المنجز. من أهم ما جاء به هذا الباحث في ميدان التداوليات، " ⁴ انطلاقا من اعتقاده، أننا بدون لغة لا نستطيع التفاعل مع الآخرين، و التأثير

¹ - المرجع نفسه، ص84.

² - Eric Grillo, la philosophie du langage, ed du seuil, Paris, p48-49 :

³ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص22

⁴ - اللغة عند (فينينغشتاين) هي شكل من اشكال الحياة، وهي منظمة، يعتبر تكلم لغة ما جزءا هاما منها، ويفسرها في إحدى فقراته الشهيرة لكتاب الأبحاث الفلسفية كالاتي: " على كلمة لعبة اللغة أن يستخلص منها بأن تكلم اللغة هو جزء من

فيهم، فهي الوسيلة الأولى للتفاهم و التواصل بين الأفراد. فألعاب اللغة عند (فينيغشتاين) تترجم مفهومه للتداولية انطلاقاً من اعتباره ان اللغة جزء من نشاط عام، أي أنها ممارسة تحمل طابعاً مادياً بحتاً.

ما يمكن قوله هو أن مساهمات (فينيغشتاين) في هذا المجال لم تكن بتلك الأهمية التي كانت عند (بيرس، أوستن، وغيرهما ...)

أما إذا تحدثنا عن التداولية عند (شارل موريس)¹ (Charles Morris)، فإننا نتيجة مباشرة إلى الحديث عن ثلاثيته (النحو، الدلالة، و البراغماتية)². وقد انتقل هذا التقسيم الثلاثي من الحقل المنطقي إلى الحقل اللساني " ... فقد ميز (شارل موريس) في كتابه أسس نظرية 1938، بين عناصر ثلاثة تدخل في تحديد الرمزية، الرمز من حيث هو علامة، الرمز من حيث هو دلالة، الرمز من حيث هو محل للتأويل من لدن المستمع ..."³

وأشار (دومينيك مانجينو) (Dominique Maingueneau) إلى أن الفيلسوف الأمريكي موريس هو من أسس المكون البرغماتي للغة سنة 1938 :

- 1 لتركيب، يهتم بعلاقات العلامات ببعضها.
- 2 المستوى السيميائي الذي يهتم بعلاقات العلامة الواقع.
- 3 المستوى البرغماتي، الذي يهتم بعلاقات العلامات بمستعملي اللغة، وطريقة توظيفها وآثارها في المتلقي، مثلاً حين أقول: " بول ليس هنا " قد يعني التهكم أو الدعوة إلى هو " فعل كلامي براغماتي " ..."⁴

نشاط منظم وطريقة حياة، إذ تقدم بنفسك مختلف ألعاب اللغة بمساعدة الأمثلة التالية: امر، او اعمل بحسب الأوامر. انظر فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص23.

¹ - تمثل تداولية (شارل موريس) امتداداً مهماً لنظرية (بيرس) في الإشارات، نظراً لدعوته إلى تأسيس تداولية ذات أبعاد عملية وسيميائية تنطلق من إعادة تنظيم للنظرية البيرسية في الإشارات تحت اسم " التداولية المندمجة بالسيميائية " ويشترك معه ف هذه الدعوة (كارناب) الذي اتفق معه على أن: " ... فكرة تداولية محضة، او شكلية عليها أن تقاوم لفرض ذاتها ... " (انظر فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص38).

فأصل هذه التسمية " التداولية المندمجة بالسيميائية " يرجع إلى كون التداولية تستمد بعد المفاهيم و العناصر التواصلية من الحقل السيميائي، إضافة إلى أن أشهر الباحثين التداوليين ينتمون أصلاً إلى الحقل السيميائي. (شارل موريس) احد علام السيميائية، يعتبر أن التداولية من أهم المكونات الرئيسية للسيميائية، انطلاقاً من تقسيمه المذكور أعلاه. إضافة إلى التقارب الموجود بين السيميائية و التداولية فيما يخص الموضوع () .

² - انظر هربيرت باركلي، مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة د.قاسم المقداد، وزارة الثقافة، ط1 لغوية(1) 107.

³ - طه عبد الرحمن، تكامل المعارف، اللسانيات و المنطق، مجلة دراسات سيميائية أدبية، ص120.

⁴ -

Dominique Maingueneau, les termes clés de l'analyse du discours, ed Seuil, Paris, 1996, p65.

ويهتم المستوى التداولي من هذا التقسيم بعلاقة الرموز بالمؤولين لها. كما ربط (شارل موريس) بين التداولية وفكرة الأثر، " ...الذي تحدثه العلامات في المرسل إليهم بها، ولا شك أن رؤية (بيرس) للتداولية في هذا الشأن تفسح لهذه المسألة مجا "1...
استعار (شارل موريس) مصطلح العلامة من الحقل السيميائي باعتباره سيميائيا بالدرجة الأولى، وجعل منه النواة الأساسية في تعريفه للتداولية، لأن هذه العلامات ذات الشحنات العالية في التبليغ، والتي بمقدورها تحقيق أكبر قدر من التواصل و التفاهم.

لحديث عن مفهوم التداولية عند (كارل أوتوآيل)، فإننا نجده يعتبر التداولية أداة فعالة في مشروعه اللساني الذي نادى من خلاله بالتداولية المتعالية التي تعد " ... غاية تحول المثالية المتعالية الكانطية تحت تأثير تحول اللسانيات إلى الفلسفة (Linguistique imphylosophy) أي الوعي بالطابع الوسيط، و الأساسي للغة في كل معرفة وكل أنطولوجية "2...
فاللغة عند (آيل) هي أساس كل معرفة التي لا تعتمد اللغة أساسا لها لا يمكن عدها معرفة، لأن التواصل باعتباره عنصرا فعالا في كل المعارف لا يقوم إلا على أساس لغة ما، ولعل (كارل أوتوآيل) في كل ذلك متأثر بفلسفة كانط المثالية³ كما ينطلق أيضا في مشروعه هذا من سيميائية (بيرس)، كما فعل (شار موريس) في تأويل العلامة اللغوية تداوليا ضمن المؤسسة الاجتماعية. وهو في ذلك يربط اللغة بالواقع، أي يضيف عليها الطابع المادي، وهذا الواقع اللغوي لا يمكن تأويله إلا تداوليا، ضمن الكل الاجتماعي لتحقيق التواصل.

من التداولية المتعالية إلى التداولية العالمية مع (هابر ماز) (Haber Mas)

جذورها إلى ك من (كانط، هيغل، وماركس، ولوكاتش).

يقول (هابر ماز): " ..الكفاءة التواصلية ها نواة عالمية كذلك كما هو الأمر

للكفاءة اللسانية، إذ تصف النظرية العامة للفعل الخطابي النظام الأساسي للقواعد التي يلم بها الفاعلون، المتكلمون الكبار، والتي تسمح لهم باستيفاء الشروط لاستعمال خاص للجمل من خلال

4..

¹ - أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، التعاضدية التأويلية في النصوص، ترجمة انطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، 1996 I الدار البيضاء بيروت، ص51.

² - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص80.

³ - يهتم كانط بالتفكير الواقعي القائم على التجربة، ولقد تأثر (أوتو آيل) أيضا ب(بيرس) الذي اعتنى في بداية تأسيسه للتداولية كمنطقي (بفن التفكير الواقعي وتقنياته) أي بالواقع.

⁴ - المرجع نفسه، ص83.

إن تداولية (هابر ماز) عبارة عن كل مركب يستمد أفكاره من مجموعة من المبادئ المختلفة و المتباينة لـ: كانط، وهيغل، وماركس، ولوكاش، ومن هنا اعتبرها طابع عالمي، تماما مثل الكفاءة اللسانية، التي تندمج مع التداولية في إطار نظرية عامة للفعل ويقوم هذا الفعل بالبحث في شروط التبليغ التي يحتاجها المرسل لتحقيق وإنجاز الأفعال اللغوية الخاصة.

2 التداولية ونظريات التلقي:

لقد بدت آثار التداولية واضحة، طاغية على حقل التلقي، خاصة عند النقاد الامريكيين مثل (جونتان نولد) (Jonathan Nolde) و (ديفيد بليخ) (David Blikh) وغيرهما، لأن استجابة القارئ متوقفة على مدى قدرة المرسل في تبليغ قصده و التعبير عما يريد، وكلما كان التبليغ جيدا ومفهوما، كانت الاستجابة كذلك. وعلى رأي (جويس) فإن " ...العلاقة بين الأدب الجمهور تستقطب اكثر من حقيقة ان كل عمل له جمهوره التاريخي و الاجتماعي المحدد، وان كل كاتب هو نتاج نظرة جلية، إيديولوجية قارئية، وأن النجاح الأدبي يستدعي كاتباً يعبر عما يتوقعه الناس من الكاتب، او كاتباً يقدم الناس في صورة معينة ..."¹

يتبنى (جويس) في هذا النص بعدا تداوليا، لأنه يربط نجاح أي عمل أدبي بنجاح الكاتب في التعبير عما يتوقعه المتلقي، والقارئ، او القراءة هي التي تعطي الحياة للأعمال الإبداعية وغيرها. والعمل الناجح هو الذي يحقق تواصلًا، واستجابة لدى المتلقي، وهذا النوع من التواصل يقوم على أساس المنفعة، لأن " ... القراءة لست مهارة لفظية فحسب بل مهارة فهم ما يقرأ، والاستجابة له، والتفاعل معه، واستعماله في أحوال الحياة ومواجهة المشكلات اليومية"²

وفي إطار التلقي ونظرية القراءة، تظهر إلى الوجود (الذرائعية الأدبية)³ (Pragmatisme litteraire) التي تركز كثيرا على عنصر الاستقبال. وفي ذلك يقول (فان ديك) (Van dick): " الذرائعية الأدبية موروثه عن الذرائعية اللغوية وهي تنطلق من السيميوطيقا التي حددها (موريس) بأنها تدرس العلاقات التي تقوم بين المرسل و المستقبل، والدليل (Signe)، والسياق الاتصال، في حين أن يدرس علم الدلالة (Semantica) العلاقات بين الدليل

¹ - يوسف نور عوض، نظرية النقد الادبي الحديث، دار الأمين القاهرة، ط1 1994 56.

² - بشير ابرير، القراءة مفهومها وانواعها من جهة نظر علم تدريس اللغات، مجلة المنهل العدد 556 61 2001، السعودية، ص47.

³ - الذرائعية توجه أمريكي، وتيار فلسفي ظهر بزعامة الفيلسوف و المنطقي (شارل سندريس بيرس)، اما أصل التسمية " ذرائعية" فيعود إلى كل من (موريس، وبيرس، وجون ديوي)، وفي أوائل الثمانينات برز هذا المولود الجديد إلى النور إثر نشر الأمريكيين (ستيفن ناب) و (ولتر مايكلز) مقاله بعنوان (ضد النظرية عام 1982) اما وصف هذا الاتجاه بالذرائعية فيعود إلى كونه امتدادا لفلسفة معروفة بهذا الاسم أسسها الفيلسوف الأمريكي (شارل سندريس بيرس) في القرن التاسع عشر. وقد أصبح مصطلحا فلسفيا عام 1878، غير أن بيرس صاغ المصطلح باسم مختلف Pragmatisme 1905 ليكون شارة على مناه الخاص في هذا الاتجاه، ولم يعرف الناس الذرائعية إلا على يد (وليم جيمس) الذي عدلها وقدمها نظرية " قوامها أن قيمة الأفكار تقاس بمدى انطباقها على الواقع، أو بإمكانية تبلورها عمليا ... " (انظر ميجان الرويلي، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2 2000 102.

و المتعلق به (Référent) المعبر عنه، وأن يدرس علم النحو (Syntactic) العلاقات التي تقرب بين العلامات بعضها ببعض...¹

يذهب (فان ديك) إلى أن الذراعية الأدبية ذات أصل سيميائي تعود جذوره إلى مشروع (شارل موريس) كما انها تهتم بدراسة العلامات في علاقاتها بالمستعملين و المؤلفين لها ضمن سياق الاتصال. كما اعتبر الذراعية الأدبية مكملًا أساسيًا لنظرية النص، إثر التحول الذي عرفه من المثولية حتى " ... اقتراحه الحالي، وهو إنشاء نظرية أدبية عامة تشمل على نظرية للنصوص الأدبية ونظرية للتواصل الأدبي ..."²

كما كان مشروع (بيرس) الخاص بالذراعية الأدبية نتيجة حتمية للتحول الذي عرفه الحقل اللغوي. وانتقاله من فكرة القائلة بأن اللغة لا تدرس إلا ضمن الرؤية المثولية، التي لا ترى فيها سوى صياغة لفظية، إلى دراستها على أساس أنها نظام للاتصال الاجتماعي برمته³ وهذا ما يجعلنا نلاحظ ان (فان ديك) كان من منتقدي الاتجاه القائل بأن اللسانيات تتمثل في الجملة كوحدة ليست لها الطاقة التعبيرية الكافية، التي تجعلها كفيلة بالدراسة، ومنه دعا إلى ضرورة قيام علم قواعد النص الأدبي، وكانت الذراعية الأدبية بمثابة اللبنة الأساسية لهذا العلم، وجوهر نظرية النص، لأنه ينظر إلى اللغة عامة، واللغة الأدبية خاصة، على أساس أنها أداة اصل، الأدبي بالعناصر الداخلية، وإنما بعناصر خارجية وهو في ذلك يقول: " ... وهذا لا يعني أن ما هو أدبي لا يتحدد بواسطة الأدبية (وهي مجموعة الخصائص البنوية أو الملامح اللفظية الملازمة)، وإنما يتحدد بصفة خاصة بواسطة الاعتراف بنوعية معينة من الإنتاج،
(Communication)⁴

وهذا ما يؤكد أهمية التحول، والتطور الذي عرفته التداولية مع (فان ديك) الذي أشار عام 1979 إلى هذا التحول، وانتقل التداولية من دراسة استعمال اللغة انطلاقًا من الجملة إلى ميدان النصوص، و الأعمال الأدبية. حيث أصبحت الأدبية عنده تحمل بعدًا تداوليًا، انطلاقًا من كون أن أدبية الأعمال لا تتحدد إلا باستقبال يتم في إطار تواصلية معين وليس بالخصائص اللفظية الداخلية، فكلما حقق العمل استجابة أكثر لدى المتلقي، كلما حقق أدبية أكثر أي أن الأدبية عنه تصبح رهينة استقبال معين.

¹ - فان ديك، النص و السياق، ترجمة عبد القادر قنيني، ص88.

² - خوسيه ماريًا بوثولو إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة د. حامد أبو حمد، مكتبة غريب، القاهرة، سلسلة الدراسات النقدية (2) 76.

³ - 76

⁴ - فان ديك، النص و السياق، ص77.

فأدبية الأعمال أصبحت تتحدد من خلال عناصر خارجية يسميها (فان ديك) (المداخل الأدبية)، التي " ...تطرح نفسها على أنها نظرية للاستعمال الأدبي للغة، أو بتعبير آخر على أنها نظرية للاتصال الأدبي في إطار الاتصال الفني، وهذا الأخير في السياق العام للاتصال

1...¹

فالذراعية الأدبية أصبحت عنده تمثل نظرية للاتصال الأدبي و الفني ضمن إطار اجتماعي وفي إطار الحديث عن العوامل الخارجية التي تساهم في تحديد أدبية الأعمال وعلاقتها ي، نشير إلى أن هذه النظرية التداولية، قد تجسدت في يومنا هذا وأصبحت عنصرا مهما وفعالا في حياتنا اليومية، من خلال إقبال الجمهور على العمل الفني. ولعل هذا تيار تداولي (براغماتي) متأثر بتوجه عام متعلق الفكر الرأسمالي، والذي يعطي الأولوية للتسويق، وبالتالي أصبح هناك تنافس في أي السلع أكثر رواجاً.

ومن هنا، لا بد من اختيار السلع التي توافق ذوق الجماهير العريضة من خلال النوعية، ومن خلال التركيز على عملية الإشهار، وهو الأمر نفسه الذي سيطر على هذا المنحى في الأدب و الفن بصفة عامة. فالأدبية هي ما وافق هوى لدى الجماهير الواسعة، وبالتالي أصبح للمتلقى أهمية كبرى، وهذا ما تذهب إليه نظرية التلقي بجميع تفرعاتها خاصة الذراعية الأدبية.

3 التداولية و الصورة الشعرية:

ومن مجال الأدب التداولية إلى مجال الصورة الشعرية، التي " ...لم تحظ من التداولية إلى بدراسات قليلة، ولعل أشهرها دراسة لجون سورل (john searle) ضمن كتابه (المعنى و العبارة) ودراسة ج كليبرت (Gklebert) أولية الاستعارة ..."² وهي دراسات حديثة لأن مجال الصورة الشعرية من أحدث و آخر الميادين التي اقتحتها التداولية، لأن حسب بعض الباحثين في هذا الميدان لم تقدم التداولية ما هو منتظر منها في مجال الصورة الشعرية.

وتتحدد مهمة هذا العلم الوليد في البحث في شعرية الصورة من خلال عناصر غير نصية وعوامل خارجية. وهذا المذهب يصدق على ما قال به (فان ديك) من خلال مشروعه الخاص بالذراعية الأدبية، والرامي إلى البحث عن أدبية الأعمال انطلاقاً من عناصر خارجية. فالبحث

1- 77.

2- ، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 28.

عن مواطن الشعرية أو الأدبية بالنظر إلى هذه العناصر يعد بمثابة الثورة على الأدبية البنوية التي لا تتحدد إلا من داخل النص، " ...فقد كانت البنوية تعمل جاهدة لأجل تلافي كل العناصر غير النصية ولذلك فإن كثيرا من المشاكل بقيت معلقة لأنها لم تجد علاجا داخل النص حتى جاءت التداولية فحاولت الإجابة عن كثير من الأسئلة ..."¹

ولية إذن بانتقالها إلى البحث في مجال الصورة الشعرية تكون خطت خطوة كبيرة، وحققت نقله نوعية في مجال الدراسات الحديثة على الرغم من أنها لم تقدم بديلا جذريا، لكنها على الأقل أوجدت بعض الحلول لبعض القضايا العالقة، اثر اهتمامها بعناصر جديدة، وهي العناصر الخارجية، وكذا تركيزها على الجوانب العملية و الاستعمالية من اللغة.

4 التداولية وسيمياء التواصل:

وللحديث عن تطور التداولية، وعن مختلف التيارات التي تكونت نتيجة لتراكم الدراسات و الأبحاث في هذا الحقل، كان لا بد لنا من الإشارة إلى سيمياء التواصل التي تركز على در العلامة بوصفها حركة تستعمل تحقيق تواصل معين. وتنقسم سيمياء التواصل إلى محورين اثنين هما:

1- التواصل السيميائي بنوعيه اللساني وغير اللساني.

2- العلامة بأصنافها الأربعة، الإشارة و المؤشر، والايقون، والرمز.

مع العلم ان سيمياء التواصل التي تهتم بالدال و المدلول و القصد تختلف عن سيمياء الثقافة التي تهتم بالدال و المدلول و المرجع.

ومن أهم أعلامها نذكر (بويسنس) (Buysens) و (بريتو) (Prietto) و (مونين) (Mounin) و (غرايس) و(فيتغشتاين) ...، فهؤلاء الأعلام " ...يعتبرون أن العلامة تتكون من وحدة ثلاثية المبنى: الدال و المدلول و القصد، وهم يركزون في أبحاثهم على الوظيفة التواصلية أو الاتصالية التي لا تخص هذه الوظيفة بالرسالة اللسانية فحسب، بل توجد أيضا في البنيات السيميولوجية التي تشكلها الحقول غير اللسانية، غير أن هذا التواصل مشروط بالقصدية وإرادة ي الغير ..."²

¹ - المرجع نفسه، ص29.

² - عبد الله إبراهيم وبخرون، معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ط2 1996 84.

فالنص يعكس لنا اهتمام هذا الاتجاه المنصب على العلامة ووظيفتها التواصلية المشروطة بالقصد، و التأثير في المتلقي، وهو من أهم المبادئ التي تقوم عليها التداولية بمفهومها الواسع، والمعاصر، وهذا ما ذهب إليه الكثير من الدارسين في مجال التداولية سواء القديمة أو الحديثة. كما يؤكد أصحاب هذا الاتجاه، أي سيميائى التواصل، على الوظيفة التواصلية باعتبارها الأساس و الأصل في أي علامة لغوية، و حول هذه الفكرة تقول الأستاذة (سامية أحمد) في مقال بعنوان (الدلالة المسرحية): " ... وبهذا يرفض أنصار هذا الاتجاه السيميائية التي بدراسة مختلف البنيات التي تؤدي وظائف متعددة غير التواصل المعتمد على شروط القصديّة، ولهذا عرف روبرت العلامة بأنها حركة يقصد بها الاتصال بشخص ما، أو إعلامه بشيء ما ... " ¹.

كما أشار الدكتور (مبارك حنون) إلى " ... أن أنصار سيميائى التواصل قد قاموا بتطوير الفكرة القائلة أن اللغة هي نظام من أنظمة الاتصال، فقد شهد هذا الاتجاه الازدهار و التطور مع نشأة العلوم بالاتصال، وتقدمها باعتبار أن التواصل المقصود هو من جنس التواصل اللساني لأن هذا التواصل هو التواصل الحق ... " ²

¹ - سامية أحمد أسعد، الدلالة المسرحية، عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الرابع 1980 66.

² - مبارك حنون، دروس في السيميائى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1990 73.

إن النصين السابقين يؤكدان على أن سيمياء التواصل تنطلق من العلامة، باعتبارها عنصرا مهما في عملية التواصل، بما تتضمنه من حركية و حيوية، فهي تمثل الجزء الأساسي الذي يجسد الطابع الإتصالي الحق، و المتمثل في التواصل اللساني، بالإضافة إلى اهتمام أصحاب هذا الإتجاه بالقصد، و شروط القصدية، و هذه الشروط هي الأساس في نجاح الأفعال الكلامية بالنسبة لنظرية أفعال الكلام .

5- الفعل اللغوي :

يتحدد الفعل اللغوي بتحديدات مختلفة تعود إلى اختلاف المرجعيات و المنطلقات التي انطلق منها الدارسون، لتحديد مفهوم الفعل اللغوي. و مع ذلك فإن المتفق عليه هو أن ".....تكلم لغة ما أو التحدث بها يعني تحقيق أفعال لغوية، و منها أفعال تصلح للتأكيد على أشياء، أو إعطاء أوامر، أو إثارة أسئلة، أو القيام بوعود، أو غير ذلك من الأفعال اللغوية....."¹

و يعتبر الفعل اللغوي محور اهتمام الدراسات التداولية التي تركز على تأويل النصوص باعتبارها أفعال للغة ، أو مجموعة من المتتاليات لأفعال اللغة ، كالوعود ، و التهديدات ، و الإستفهامات ، و الطلبات ، و الأوامر ...و بتعبير أدق فإن التداولية تقوم بتحويل مختلف الموضوعات إلى أفعال لغوية ، و للإشارة فإن الفعل اللغوي يرتبط ارتباطا وثيقا بالقصد . و قد عني القصد باهتمام كبير في الدراسات التداولية المعاصرة ، حيث تناولت هذه الدراسات "....قضية المقاصد و النوايا في الخطاب الأدبي ، و اللغوي عموما، في إطار دراستها لقضايا الأفعال اللغوية وهي قضايا تدخل في صميم البحث عن مقاصد المتكلم في الخطاب، وهي مقاصد تختلف باختلاف نوايا المتكلم، و الوضعية السياقية التي تكشف خطابه....."²

اللغوية من هذه الوجهة تعد مبحثا أساسيا في دراسة مقاصد المتكلم و نواياه، فالقصد يحدد الغرض من أي فعل لغوي، كما يحدد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية التي يتلفظ بها ، و هذا ما يساعد

المتلقي على فهم ما أرسل إليه. و من ثم يصبح توفر القصد و النية مطلبا أساسيا و شرطا من شروط نجاح الفعل اللغوي ، الذي يجب أن يكون متحققا و دالا على معنى .

و البحث عن مثل هذه الشروط يعد من الوظائف الأساسية للتداولية، التي تتجاوز ذلك أيضا إلى البحث عن أهم المميزات المطلوبة في الجمل حتى نتمكن من استعمالها أفعالا لغوية .

¹ محمد أديوان ، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني، الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل ، معهد اللغة العربية و آدابها ، تلمسان، العدد الأول ، 1994 ، ص 39.

² المرجع نفسه ، ص 38

فالطلب مثلا غالبا ما يأخذ صيغة السؤال : "هل بإمكانك أن تعيرني قلمك ؟" مع أنه قد يأخذ أيضا صيغة القول : كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه و سلم في قول جبريل : "...و قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام..."¹ . فالفعل اللغوي هنا يراد به الطلب لأن (جبريل) طلب من الرسول صلى الله عليه و سلم إخباره عن الإسلام . و الطلب جاء في صيغة الأمر (أخبرني). إن صيغة الأمر التي ورد بها الطلب تكشف لنا عن المبالغة في أسلوب التي يريد من خلالها المرسل ، تحقيق نوع من التواصل المقرون بالفائدة.

و لكي يكون الحديث عن أفعال اللغة وافيا و ملما بكل جوانب الموضوع كان لا بد من التطرق إلى مساهمات كل من (أوستين) و(سورل) ، لأن جهودهما في مجال الحقل التداولي مهمة و فعالة، إلى درجة اعتقاد أن هذا الحقل هو ناتج أعمال كل منهما ، و ذلك من خلال دراستهم لأفعال اللغة. و لعل المبحث الأساسي لأعمالها التحليلية هو الأفعال الإنشائية ، و شروط استعمالها في سياقات الحديث المختلفة ، كالسؤال و التقرير "... كما تبحث عن مختلف الوسائل السانية التي يتوفر عليها المتحدثون لكي يتواصلوا و يبلغوا فعل الكلام صراحة أو ضمنا، تحليل فعل الكلام باكشف عن النية أو القصدية الإنشائية التي يبلغها المتحدث إلى المستمع ..."² وقبل هذا، لابد من الإشارة إلى البدايات الأولى للأفعال اللغوية عبر الحقب التاريخية المختلفة.

لقد ارتبطت هذه البدايات بدراسة القضايا المنطقية في إطار دراسة أقسام الكلام مع الفلاسفة اليونان ، و بخاصة (أرسطو) ، حيث تم التمييز بين مجموع القضايا التي تنطبق عليها خاصية الصدق و الكذب ، و الصيغ الخبرية التي تميزت عن الصيغ الأخرى كالأمر و النهي...

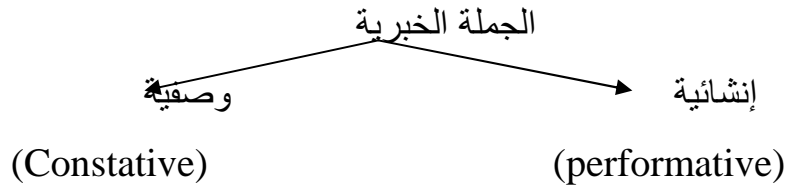
و في العصر الحديث ، و تحديدا عند (كانط) وقعت الصيغة الخبرية تحت طائلة نقد مؤداه أن هناك جملا لها هذه الصيغة لكنها لا تقبل الصدق و الكذب و أنها بالتالي تخرج من مجال المنطق و

¹ - الإمام محي الدين بن شرف النووي ، الأربعون النووية و شرحها ، دار عمر بن الخطاب ، الإسكندرية (دت)، ص10.

² - كميلة واتليلي، كتاب الإمتناع و الوؤانسة لأبي حيان التوحيدي، بين سلطة الخطاب و قصدية الكتابة ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو 1999 2000 المقدمة ، ص د

.....¹ و نتيجة لهذا النقد تكون تكون الإتجاه الوضعي الذي عمل على إزاحة جزء كبير

و يعد الفيلسوف الإنجليزي أوستن من أهم الدارسين الذين قدموا جهودا معتبرة في هذا المجال ، حيث قام الفيلسوف اللغوي بتمييز نوع الجمل التي تحمل الصيغة الخبرية مما لا يقبل الصدق و الكذب ، و قسم الجملة الخبرية إلى :



هو ينطلق هذا تقسيم من أقسام الجملة الإنجليزية التالية:

1-خبرية Déclarative

2- أمرية Impérative

3- استفهامية Interrogative

فالجمل الإنشائية عنده تحمل معنى الفعل ، أي يراد بها الفعل ، بينما يراد بالجمل الوصفية

حظ (أوستن) أن الجملة الإنشائية في النحو الإنجليزي تحتوي على فعل يحمل صيغة المضارع المعلوم للمتكلم المفرد. كما أضاف الكثير في مجال الأفعال الكلامية كإطلاقه لقيمتي - صائبة و خاطئة - بدلا من لفظي - صادقة - ، و قام بتقسيم الجملة الإنشائية - التي

ن بعضها لا يحتوي على الفعل المذكور سابقا ، و مع هذا فإن التلفظ بها معناه القيام بفعل معين لا وصفا يقبل الصدق و الكذب - الى :

1-إنشائيات أو لية² Primary performative

2- إنشائيات صريحة¹ explicite performative

¹ طالب هاشم طبطائي ، نظرية الأفعال الكلامية ، مجلة الفكر العربي المعاصر مركز الإنماء القومي ، لبنان 1998 -
1999 ، ص 65
² - لمرجع السابق ، ص 66.

لكن هذا التقسيم الذي وضعه (أوستين) للجمل الإنشائية عرف نوعا من التعقيد
التداخل بين الجمل التي تقبل الصدق و بين التي لا تقبله.

و من خلال كل ما تقدم نلاحظ أنّ اتجاه (أوستين) اللغوي في مجال الدراسات التداولية
و مذهبه الخاص يرى أنّ وظيفة اللغة هي استعمال و إنجاز لمجموعة من الأفعال اللغوية. مما
جعله يتجاوز مستوى الجملة ، و النظرة التي ترى في الجملة أداة للتواصل الإنساني ، إلى الأفعال
اللغوية باعتبارها أصغر وحدة للتواصل . و لقد سمي هذا الإتجاه (بالإتجاه الأوستيني) نسبة إليه
، حيث يعتبر " أكسفورد جون.ل.أوستن رائد الإعتقاد السائد في النظرية الكلاسيكية لأفعال
اللغة ، أنّ الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني ليست هي الجملة ، و لا أي تعبير آخر لا هي
... "2. نظرا لما تمتلكه الأفعال من قدرة في تجسيد خاصية ()

الإستعمال ، و الإنجاز لما يتمتع به الفعل من حركية ، و حيوية لأنه يتضمن معنى الحدث .
فالنص السابق يترجم اتجاه (أوستين) اللغوي، في مجال الدراسات التداولية ، و مذهبه الخاص
الذي يرى أنّ وظيفة اللغة هي استعمال ، و إنجاز مجموعة من الأفعال الكلامية ، مما يجعله
يتجاوز مستوى الجملة ، و النظرة التي ترى ف
اللغوية باعتبارها أصغر وحدة للتواصل ، و من هنا تفرغ اتجاه (أوستين) في دراسة الأعمال عن
طريق المحادثة، و سبل المتكلم في التعبير عن نفسه بصورة تجعل المخاطب قادرا على فهم
مقصده باستعمال عمليات ذهنية معينة ،

و أكبر أعلامه : غرايس ، 3

Argumentation et présupposition من أعلامها دكرو Ducrot ... "1)

الأوستيني ظهرت مجموعة من التيارات التي تنطلق من أفكار (أوستن) في الكثير من القضايا .

وتكون خارج هذا الاتجاه أيضا تيار يضم مجموعة من الباحثين الذين تخلوا عن أهم مبادئ

(أوستين)، ولم يكن التيار الذي انضوا تحته لنتيجة لحركة (أوستين) التداولية. كما تشكل –

هذا الاتجاه – (Benveniste) (Jakobson) يهتم

1 - المرجع نفسه ، ص 66.

2 - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية ، ترجمة سعيد علوش ص 60

1 عبد القادر المهيري وآخرون ، أهم المدارس اللسانية ، ص 96 .

ونشأت أيضا مجموعة من المدارس التي تصب اهتمامها على الدراسات النحوية، التي تكون بعضها في إنجلترا، وبعضها الآخر في أمريكا. ومن المدارس الإنجليزية نذكر : (مدرسة أكسفورد) التي تهتم بدراسة السياق، وهي في ذلك متأثرة (بمالينيفسكي (Malinevski) اهتم بدراسة العلامة ضمن المؤسسة الاجتماعية .

(أوستين) في أغلب أفكاره من هذه النقطة لأنه من المتأثرين (بمالينيفسكي). أما المدارس الأمريكية ،فإن أغلبها كان متأثرا بالحركات المنطقية التي ظهرت في أمريكا آنذاك ، بالإضافة إلى وجود نوع آخر من هذه المدارس، التي تأثر أصحابها بأعمال (سورل) أحد رواد أفعال اللغة. وقد نحا (سورل) منحى (أوستين) نفسه، في ما ذهب إليه بالنسبة إلى الأفعال المنجزة ،لأنه لا يمكن إنجاز افعال لغوية إلا من خلال علاقاتها بالمقاطع الأخرى في الجملة النص إلا أن (سيرل) وجه بعض الانتقادات الرامية إلى وجود بعض النقائص في دراسات (أوستن) للأفعال اللغوية ،التي لم تبين على أصول واضحة،بالإضافة إلى وجود بعض التداخل بين مجموعة الأفعال اللغوية ،نظرا إلى عدم وضوح الأساس الذي قسم من خلاله هذه الأفعال .⁽²⁾

2 قسم أوستن الأفعال الكلامية إلى :

(Verdicatives) الحُكميات

(Exercitives) الإنفاذيات

(commissives) الوعديات

(Behabitives) السلوكيات

: انظر طالب هاشم طبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية ، ص 67 (Expositives)- التبيينيات

وكذلك ، فإن جهود (أوستين) في هذا المجال كانت موجهة نحو دراسة الألفاظ وليس الأفعال ، أي دراسة لفظ الفعل، وليس الفعل منجزا بكل ما يحمله من حركية ومادية.

وهذا ما أشار إليه (سيرل) عندما أكد على "... أن أصل المشكلة في تقسيم أوستن أنه عبارة عن تقسيم لألفاظ الأفعال " Verbs " " Acts " الكلامية وليس ... " (1) .

ومن ثم فإن مساهمات (سيرل) في هذا المجال تعتبر مهمة وفعالة. فلقد انطلق من إيمانه الخالص بأن نظريته في الأفعال الكلامية لا تكون إلا بالرجوع إلى الفعل، ومن هذا المنطلق بالذات عمل على تحليل الفعل اللغوي إلى (قوى متضمنة في القول) ومنه ميز بين (فعل القول)، و(الفعل المتضمن في القول)، وهو من أهم ما جاء به (سيرل) في مجال نظرية أفعال الكلام.

كما عمل على تحديد كل العوامل والشروط التي تسهم في نجاح الفعل اللغوي، واعتباره هذه الشروط بمثابة المنهج الذي سار وفقه لتحديد فعل نموذجي ناجح، وهي كالاتي: (الغرض (2) (3) (4) (5) (6) (7) (8) .

-
- 1 المرجع السابق، ص 71.
 - 2 مثال : غرض الوعد هو إلزام المتكلم نفسه بعمل شيء معين .
 - 3 وهي طريقة الإنجاز، التي تتطلب جملة من الشروط ، والظروف التي تساهم في تحقيق أغراض الأفعال(الأمر الإداري يختلف عن الأمر العادي).
 - 4 وهي درجة إنجاز الأفعال: (الطلب الإصدار).
 - 5 هو تعبير صوري استخدمه (سيرل) للفعل المتضمن في القول، فالوعد يتطلب فيما يرتبط به من قضية شروطا لا يتطلبها الإخبار.
 - 6 الشروط التي يجب أن تتحقق ليكون الفعل ناجحا، يكون الوعد ناجحا لكنه فاسد إذا كان الأمر الموعود به ليس في صالح المخاطب.
 - 7 من يقرر فهو يعبر عن اعتقاد، ومن يعد يعبر عن نية، ومن يصدر أمرا إداريا فهو يعبر عن رغبة أو إرادة .
 - 8 المتكلم الذي يطلب ويعبر عن رغبته بقيام المستمع بشيء ما إذا استجدى أو توسل يعبر عن رغبة أقوى .
- انظر: طالب هاشم طبطباتي ، نظرية الأفعال الكلامية ، ص (68 70) .

وترتبط الأفعال الإنجازية بمجموعة من الشروط، من بينها شروط النجاح، والفشل، والفعل الذي لا يحقق نجاحا لا يمكن عده فعلا، وبالتالي فهو ليس موجودا. كما يرتبط الفعل الإنجازي أيضا بالعرض الذي يتخذ من الفعل حيزا له، ولا يكون هذا الفعل مؤثرا إلا إذا تطابقت نتيجته مع هذا

وهناك جملة من الشروط التي لا يسع المجال لذكرها، والتفصيل فيها، وتتنصر مهمة التداولية في البحث عن هذه الشروط. كما يتجاوز اهتمامها بالبحث في النصوص معزولة إلى الاهتمام " ... بشروط الأفعال التي تتمحور حول النصوص الأدبية... " (1) لغوية كبرى انطلاقا من مجموعة المتواليات الفعلية

ولكي يكون الحديث عن الأفعال الإنجازية وافية، كان لا بد من الإشارة إلى (فان ديك) (2) الذي يرتبط بين الأفعال الإنجازية، والتأويل السيميائي، لأن الفعل المنجز يتطلب ملقيا، يعمل على تأويل ما يتلقاه، وفق عدة معطيات متعلقة بالمواضعة، والسياق وأحواله.

ويتوقف التأويل عند (فان ديك) على مدى استجابة المتلقي للرسالة، وكذلك على مدى قدرة المرسل على تبليغ خطابه، والتعبير عن قصده لتحقيق التواصل. كما أكد على أن الأعمال الفلسفية، والمنطقية السابقة في مجال التداوليات من أهم المواضيع والأبحاث في النظرية اللسانية العامة. وأن استعمال اللغة ليس معناه إنجاز فعل خاص، وإنما هو جزء من التفاعل الاجتماعي، أي أنه ليس عملا فرديا، بل هو عملية يتم من خلالها تفاعل الأفراد فيما بينهم داخل المؤسسة الاجتماعية لتلبية احتياجاتهم مما يجعل الطابع العلمي، الوظيفي للغة مهيمنا.

1 زيكفريد ج.، التواصل الأدبي، ترجمة نزار التحريتي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد 46، بيروت، باريس، 1987، ص 53.

2 يؤكد (فان ديك) أن أصول التداولية فلسفية تمتد إلى أعمال الفلاسفة والمناطقة الذين كانوا ولا يزالون محور اهتمام الدراسات اللسانية الحديثة، لأن أغلب رواد هذه النظرية هم فلاسفة في الأصل، أي أنها بقيت محافظة على الأصل والطابع الفلسفي الذي يميزها إلى يومنا هذا. والكثير من الباحثين اليوم يعتبر التداولية أداة عقلية، وهو ما قال به (فان ديك) من خلال تبنيه الرأي القائل: " إن قدرتنا في التحكم هي جوهر فلسفة العقل" إضافة إلى أن قضية استعمال اللغة ليس عملا فرديا، بل عملية اجتماعية تتم من خلال تفاعل الأفراد فيما بينهم [انظر: فان ديك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيتي، إفريقيا الشرق، لبنان، 2000، ص 227]

ومن هنا يربط (فان ديك) التداولية بالأفعال اللغوية لأنها تمثل الجزء الناطق الحيوي من اللغة ، وهذه الأفعال اللغوية تفتح مجالا واسعا للتأويلات السيميائية.

6 السياق :

ومن أهم الشروط التي يجب توفرها، حتى يكون للفعل اللغوي معنى هو السياق (le contexte) الذي يتم فيه الفعل.

ويندرج الاهتمام بالسياق، تحت تداولية المعنى والمفهوم التي تركز على العناصر الآتية: المخاطب، والمتلقي، والسياق، والتأويل، في إطار المعارف المشتركة بين المتكلم والمتلقي. ويتكون السياق من عوامل نفسية واجتماعية، كالرغبات، والإرادة والمعر لا يتحقق إلا بتوفر سياق مناسب له، والمتكلم هنا يكون راغبا في شيء ما لنفسه، وله استعداد لفعل هذا الشيء .

ولقد عني السياق، باهتمام كبير من مجموعة من الباحثين والمدارس اللسانية التي تهتم بقضايا التداولية خاصة، حيث تهتم (مدرسة أكسفورد) بالسياق، وهي في ذلك متأثرة (بمالينيفسكي)"...وتعتبر اللغة جزءا من ثقافة المجتمع، وتدرس الدلالة في هذا النطاق، وتعتبرها غاية الدراسة اللغوية، وتعتبر دراستها ناقصة إن لم تضع في الاعتبار مقام التخاطب ، (du discours situation)"⁽¹⁾

وترتكز هذه المدرسة على السياق والدلالة باعتبارهما عاملين أساسيين في العملية التواصلية، وكان هذا الاهتمام نتيجة تأثرها بأعمال (مالينيفسكي) ، الذي اهتم بدراسة العلامة ضمن المؤسسة الاجتماعية .

أما المدارس الأمريكية التي تهتم بالسياق، فإن أغلبها كان متأثرا بالحركات المنطقية التي برزت في أمريكا آنذاك، ومن أهم ممثليها نذكر (موريس) ومساهماته الفعالة في هذا المجال⁽²⁾ وكان بعضها امتداد وتطورا" داخل المدرسة التوليدية، ويمثل جزءا من الدلالة التوليدية التي "...⁽¹⁾ وأصبح اهتمام هذه المدارس منصبا على البحث في البناء الدلالي

1 عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية ، ص 97.

2 انظر المرجع نفسه، ص 97 98 .

1 المرجع السابق ، ص 98 .

ويضاف إلى ذلك اهتمام التداولية التي تطورت عن الاتجاه الشكلي، - " الذي نبه إلى شروط الحقيقة ، والجمل... التي تخضع... إلى سياق التلطف....⁽²⁾ بالسياق الذي تنتج فيه الجمل، وهو الذي يحدد مدى حقيقتها، وانطباقها على الواقع، أي أنه يحدد وظيفة الجمل. ومنه فإن التداولية الشكلية تهتم بالبحث في وظيفة العلامات داخل سياق معين، وفي هذا المجال ركز (ستالناكر) stalinker و(هانسون) Henson جهودهما على دراسة الرموز الإشارية، والقضايا في علاقتها بالجمل المتلفظ بها، ونظرية أفعال الكلام، واستعمال اللغة ، وذهب (ستالناكر) إلى التفريق بين سياقين، هما سياق الإخبار والسياق الذهني" ... فسياق الدرجة الثانية عند ستالناكر هو ما يحد سبه المخاطبون، فهو سياق الإخبار، والاعتقادات المتقاسمة لا السياق الذهني بل السياق المترجم إلى تحديدات العوالم الممكنة.⁽³⁾

نلاحظ أن (ستالناكر) يجعل من السياق محورا رئيسيا في دراسته للتداولية إذ أنه ينطلق من هذه الفكرة لدراسة القضايا المتعلقة بها. ويرى أن المهمة الأساسية لهذه المقاربة هي إخضاع القضايا للسياق الذي يحدثه المخاطب، أي سياق الإخبار.

وحول هذه القضية أشار (فان ديك) إلى أن " ... المهمة الثانية للتداولية، يجب أن تنزل هذه الأفعال في موقف معين، وأن تصيغ الشروط التي تنصب على أي العبارات تكون ناجحة، في أي موقف من المواقف، أعني أننا نحتاج إلى وصف مجرد لهذا الموقف، لفعل كلامي متداخل الإنجاز، واللفظ التقني الذي نستخدمه في هذا الموقف هو مصطلح السياق..."⁽⁴⁾ ويعتبر (فان ديك) السياق من خلال هذا النص من أهم القضايا التي يجب أن تهتم بها التداولية، وذلك بإخضاع الأفعال الكلامية لموقف معين وصياغة الشروط التي تتحقق من خلالها هذه الأفعال في هذا الموقف التواصلية، أي أنها تبحث عن شروط تحقق الأفعال اللغوية في سياق معين، وهو يتضمن توفير هذه الشروط، وهذا وهذا يختلف عن سياق (ستالناكر) الذي يركز على الإخبار، في حين يتحدث (فان ديك) عن السياق باعتباره موقفا تاليا يعبر عن فعل منجز.

كما اعتبر (ستالناكر) السياق عنصرا مهما في الدراسة التداولية" ... لأن السياق الذي تخضع له الجمل هو الذي يستعمل في تحليل أفعال اللغة، والذي يعبر من خلاله عن قواعد منطلق ..."⁽¹⁾

2 المرجع نفسه ، ص 18 .

3 المرجع نفسه ، ص 38.

4 فان ديك ، النص والسياق، ص 257.

1 فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية ، ص 49.

ومجمل القول، إن التداولية نظرية فلسفية ظهرت كطريقة في التفكير قبل أن تعرف باسم (البراغماتية) على يد (شارل ساندريس). وشهدت التداولية أثناء رحلتها نحو النشأة والتطور، عدة وتداخلات مع حقوق أخرى، خاصة المجاورة لها. كما استعارت من هذه الحقول مجموعة من المبادئ والمفاهيم، وأصبح أشهر الباحثين من الميادين الأخرى، كالسيميوطيقا، والفلسفة، والمنطق، واللغة، والأدب، والفن، من أبرز رواد هذه النظرية. مما جعلها تتحول إلى طبع الانطلاق منه لدراسة مجموعة من المعارف، كالنظرية الأدبية مثلا.

كما نشير إلى أنه نظرا إلى اختلاف المنطلقات والحقول المعرفية التي ينتمي إليها كل باحث، عرف مفهوم التداولية اختلافا وتباينا بين هؤلاء، وبناء عليه اختلفت أيضا الأبحاث في - في تحديد مفهوم التداولية، وتباين مهامها، ووظائفها

بخصائص الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه. وانطلق هؤلاء الباحثون من زوايا مختلفة في تحديد مفهوم التداولية، فهناك من اعتمد على تحديد مفهومها انطلاقا من اهتمامه بالمخاطب، وقال بأنها نظرية تخاطبية تدرس اللغة في استعمال الناطقين بها. وذهب آخرون إلى تحديد مفهومها انطلاقا من تركيزهم على السياق، وأشاروا إلى أن "... مهمة التداولية، أن تعدد هذه الشروط التي ينبغي أن تتوفر في فعل لغوي لكي يكون مناسباً لسياق خاص ... " (2).

وهناك من ذهب في تحديد مفهوم التداولية، انطلاقا من البحث في شروط التبليغ، وقال بأنها نظرية استعمالية "... تعالج شروط التبليغ والتواصل ... " (3)

كما حدد مفهومها أيضا (محمد الولي) منطلقا في ذلك من اهتمامه بالحالة النفسية للمتكلم، والمتلقي، فالتداولية عنده "... تهتم بدراسة الحالة الذهنية للمؤلف، تلك الحالة التي ت ظهور القصيدة أو الحالة الذهنية للقارئ لاحقا ... " (1)

في حين نجد أن (هربرت باركلي) ينطلق في تحديد مفهوم التداولية من خلال البحث في الأفعال اللغوية، واعتبر أن "... مهمة البراغماتية هي البحث عن شروط أفعال الكلام ... " (2).

وينضاف إلى ذلك كله اهتمام بعضهم بقصد المتكلم من وراء استعمال اللغة. وهناك من يذهب أيضا إلى التركيز على استجابة القارئ، والأثر الذي تتركه فيه الرسالة التي يتلقاها، وهذا في إطار نظرية القراءة، بالإضافة إلى أن اهتمامات التداولية لم تبق محصورة في هذه الحقول المعرفية فحسب، بل تعدت ذلك وتجاوزته إلى مجالات أخرى، وفي ذلك يقول (دفيد

2 إرود إيش وآخرون نظرية الأدب في القرن العشرين، ص 37.

3 طه عبد الرحمن، تكامل المعارف، اللسانيات والمنطق، مجلة دراسات سيميائية لسانية أدبية، ص 121 .

1 محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص 121.

2 هربرت باركلي، مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ص 110.

هيوم)"...هدف البلاغة هو الإقناع، وهدف التاريخ هو التعليم، أما هدف الشعر فهو الإقناع من خلال الانفعال والخيال،وينبغي أن توجد هذه الغايات بداخلنا، ونحن نتصدى للحكم على هذه الأعمال، ونرى مدى وفاء هذه الأعمال (الوسائل)، ونجاحها في الوصول إلى هذه الأهداف(الغايات)..."(3).

فالأسلوب والعلم والفن والتاريخ والبلاغة تصبح كلها ذات غايات وأهداف نفعية انطلاقا مما ذهب إليه (دافيد هيوم).

وفيما يخص الفن والإبداع عامة،فبإمكانهما أن يحققا تواسلا من نوع خاص،من خلال اعتقاد(كروتشه) إن الفن عملية تواصلية عندما قال:"...أن ثمة تواسلا (communication) يتحقق بيننا وبين الفنانين عبر تلك الأعمال الفنية التي عبروا فيها بأنسهم،صحيح أن الفنان لم يعمل، ولم يفعل،اللهم إلا من أجل تلك الصورة الفنية التي أبرزها إلى الخارج الموعضي على رة من اضطرابه الانفعالي،ولكن من المؤكد مع ذلك أن هذه (lyrique) التي اغتبط الفنان بنجاحه في إبداعها، هي في الوقت نفسه" صورة" يغتبط الآخرون لرؤيتها،وكان انفعالات الفنان قد أصبحت انفعالاتهم أو كأن غبطة الإبداع قد استحالت ..."(1).

لية انطلاقا مما ذهب إليه (كروتشه) —قد غزت كل الميادين بما في ذلك ميدان الفن، لأن عملية التواصل من خلال هذا القول تعتمد على التفاعل، والانفعال الحاصل بين الملتقي والموضوع الجمالي.كما تحدث(كروتشه) أيضا عن نفعية الفن وبراهماتيته من خلال قوله "... وليس النشاط الإبداعي تأكيدا للطابع الذاتي للفنان، بل يدل على اتصال أو تواصل (communication contact) بين الفنان والآخرين من الفنانين أو المتذوقين،وهذه الصلة تجمع بين البشر جميعا، وهي بمثابة نوع من المشاركة الذوقية للأثر المبدع أو المنصف الفني..."(2) اع عند (كروتشه) يحمل طابعا نفعيا يقصد من ورائه تحقيق التواصل ، سوء كان هذا التواصل بين الفنان وآخرين أو الموضوع والمتلقين.

وجملة قولنا إن التداولية مقارنة تهتم بدراسة مختلف استعمالات اللغة، وكذلك مختلف علاقات العلاقات بمستعملها المؤولين لها من أجل تحقيق ا الأفعال الكلامية التي ينتجها المخاطب ، مع مراعاة قصده ونواياه.كما تهتم بالبحث في الشروط

3 شاكر عبد الحميد،التفضيل الجمالي،دراسة سيكولوجيا التذوق الفني،سلسلة المعرفة،مطابع الوطن، الكويت،مارس 2001 ، ص 86.

1 محمد أديوان،نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني،ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، ص 32.
2 محمد عزيز نظمي سلم،قراءات في علم الجمال حول (الإستطيقا، النظرية والتطبيق) نظريات الإبداع الفني، الجزء الخامس، مؤسسة شباب، الجامعة الإسكندرية 1996، صص 26.

الملائمة لنجاح هذه الأفعال ضمن سياق معين مع مراعاة مدى استجابة المتلقين لها من خلال الأثر الذي تتركه فيهم.

تحتل الأسلوبية، بوصفها منهجا من مناهج قراءة النص، مرتبة للبنية في سلم المراتب التي تتبناها زوايا النظر النقدي الحديث، وقد جاءت هذه المرتبة نتيجة ضرورية لاعتماد الأسلوبية معطيات الدرس اللساني في اكتناه لغة الشعر عامة ولغة النص الأدبي على وجه الخصوص.

" والأسلوبية علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب ولكنها أيضا علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس"¹ ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات متنوع الأهداف والاتجاهات.

- و المؤكد أن مفهوم الأسلوب لا يزال غامضا ملتبسا لا سبب نقص ما كتب عنه، و تداوله بين النقاد و الدارسين، فقد تعددت تعريفه وتنوعت مقاصد الباحثين من إيراده وهو بصورة مجملة يعرض للطريقة الفنية في التعبير عن الدلالات أو المعاني. " لكنه يمتزج في أحيان كثيرة بمفاهيم متعددة في البلاغة و النحو وسائر علوم اللغة و الأدب، فكل باحث يحمله إلى مرجعيته ويفرقه اعتمادا على الحقل الذي ينتمي إليه أو يعني به"²

ولقد عرف التراث العربي الظاهر الأسلوبية، فدرسها ضمن الدرس البلاغي، وللمتأمل في هذا المقام التأكد من أن الدرس البلاغي العربي إنما كان درسا أسلوبيا على وجه الإجمال لأن لغوي كان سابقا على الدرس البلاغي في التراث العربي. وهذه نقطة اختلاف مع التراث اليوناني الذي كان الدرس البلاغي فيه سابقا على الدرس اللغوي.

لقد انطلق العرب في درسه اللغوي من النص. تنظرا وممارسة فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانت نظرتهم للأسلوب – في جلة تلك العلوم. أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنیان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص، وعلى العكس من ذلك نجد أن الدراسات اليونانية ووليدتها الغربية قد انطلقت في درسها البلاغي و اللغوي من الشخص – تنظير وممارسة. فجاءت العلوم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له، وكانت نظرتهم للأسلوب أنه أثر من آثار الشخص، ونتيجة من النتائج الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنیان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة الشخص وكانت نتائج اختلاف هذين الموقفين عظيمة.

¹ منذر العايش: الأسلوبية وتعليل الخطاب، مركز الأنماط الحضاري ط2002/1 27.

² أماني سليمان داود: الأسلوبية و الصوفية: دراسة في شعر الحلاج. دار مجدلوي 2002 26.

لقد اهتم الدارسون المحدثون بالأسلوب اهتماما واسعا، فدرس في ضوء المعطيات الجديدة
- حتى بات يتحدد بالاستخدام

الخاص لها بمختلف مستوياتها ومكوناتها.

ولعله من المفيد أن نقف على مفهوم الأسلوب و الأسلوبية من

حققه هذا المنظور من تجاوز وإحاطة.

لقد جاء في الموسوعة الفرنسية Encyclo poediauniversalis أنه: يمكن استخلاص
معنيين لكلمة أسلوب ووظيفتين، فمرة تشير هذه الكلمة إلى نظام الرسائل و القواعد المعمول بها
أو المخترعة ، و التي تستخدم في مؤلف من المؤلفات، وتحدد - خصوصياته
ووسمة مميزة: فامتلاك الأسلوب فضيلة¹

وتقول الموسوعة أيضا: "إننا إذا أولينا الاهتمام بالنظام وقدمناه على الإنتاج فإننا نعطي
الأسلوب تعريفا جماعيا ونستعمله في عمل تصنيفي، ونجعل منه أداة من أدوات التعميد²
ويعتبر "شارل بالي" هو المؤسس الأول لعلم الأسلوبية في العصر الحديث و الجدير بالذكر أن
كل الدراسات التي جاءت بعده، قد أخذت عنه أو استفادت منه إن في المنهج أو الموضوع وتأتي
أهمية بالي أنه وللمرة الأولى في تاريخ الثقافة الغربية نقل الدرس الأسلوب من الـ
إلى ميدان مستقل صار يعرف بميدان الدرس الأسلوبي أو الأسلوبية وقد انطلق بالي في تحديد
ميدان الدرس الأسلوبي من زاويتين:

- الزاوية الأولى: ويضع فيها وقائع التعبير اللغوي.

- الزاوية الثانية: يضع فيها أثر الوقائع على الحساسية.

يقول في ذلك " تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية أي تدرس
تعبير وقائع الحساسية المعبرة عنها لغويا، كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية³
أما عن موضوع لدراسات الأسلوبية فيقوم على أمرين اثنين:
الأمر الأول: علاقة اللغة بالتفكير.

: سلوبية خارج دائرة الدرس اللساني للنص الأدبي.

والسبب في ذلك على حد قوله " نرى أن موضوع الأسلوبية يمكن في التعبير المنطوق وليس في
حدث التفكير¹ وبالنسبة للأمر الثاني يقول " إن ما تلاحظه الأسلوبية يتجلى في البحث عن معنى

¹ عن كتاب الأسلوب و الأسلوبية عبد السلام الحدي، ص108

² يسرجيرو: الأسلوب و الأسلوبية، ص5 - منذر العياشي.

³ عن كتب الأسلوبية وتحليل الخطاب: د. منذر عياشي ص31.

العبارة وعن سماتها الوجدانية وعن مكانها ضمن النسق التعبيري وفي الطرق التي تعطي لهذه العبارة صورتها"²

عن التعريفات المتعددة للأسلوب تحدد لنا زاوية الرؤية للقضية ويمكن أن نقسم هذه التعريفات إلى

:

1- التعريف الشائع وهو التعريف الذي يأخذ الصيغة التعميمية كقولهم " الأسلوب هو الرجل " وهو " طريق في الكتابة " و " طريق في الكتابة لجنس من الأجناس " و " طريق في الكتابة "

2- التعريف الأكثر تحديدا و الذي يرتبط برؤية الكاتب ويكون الأسلوب فيه سمة أصلية من سمات الفكر الفردي، فشبهاور يقول عنه أنه " مظهر الفكر " أما فلوبيير فيقول " الأسلوب لوحده طريقة مطلقة لرؤية الأشياء " وهناك مستوى آخر أين يكون الأسلوب فيه أداة، فهو بالنسبة إلى ستندال " يضيف إلى فكرة ما، الظروف الملائمة لإنتاج أثر من المفروض أن تحدثه هذه الفكرة " وعلى هذا الأساس قامت " الأسلوبية".

3- التعريف اللساني حين ظهرت اللسانيات علما يدرس اللغة و الكلام على يد " سوسير " في بداية القرن العشرين ومع ظهورها تغيرت اتجاهات الدراسات اللغوية، واكتست طابعا علميا في البحث وقد شملت مناهجها كل ميادين اللغة، فصارت الأسلوبية من ثم جزءا لا يتجزأ من الدرس

وقد حدد اللسانيون موضوع علم الأسلوبية على ضوء الدراسات اللسانية على أنه " دراسة للتعبير"³ وبعبارة أخرى " إن أسلوبيتنا دراسة للمتغيرات اللسانية إزاء المعيار القاعدي" وذلك لأن " القواعد ... مجموعة من القوانين، أي مجموعة من الالتزامات التي يعرضها النظام و المعيار على مستعمل اللغة و الأسلوبية تحدد نوعية الحريات داخل هذا النظام" ومن ثمة إن " القواعد هي العلم الذي لا يستطيع مستعمل اللغة" أن يصنعه، أما الأسلوب فهو ما يستطيع صنعه"⁴.

- ويبقى الأسلوب حدث يمكن ملاحظته: إنه لساني لأن اللغة أداة بيانه وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه، وهو اجتماعي لأن الآخر ضرورة وجوده.

- أما الأسلوب فتتصل بكل ما له دور في تشكيل النص من مكونات لغوية أو صوتية أو جمالية أو دلالية بتنوع العلوم الفرعية التي تنتمي إليها هذه المكونات كما أنها تهيمن على " رقعة اللغة كلها،

¹ المرجع نفسه، ص31

² المرجع نفسه، ص31.

³ يسرجيرو: الأسلوب و الأسلوبية، منذر عياشي، ص6.

⁴ 8.

فجميع الظواهر اللغوية ابتداء من الأصوات المدروسة وجميع الوقائع اللغوية مهما تكن يمكن أن تكشف عن لحظة في حياة الفكر بأكملها...¹

وتهتم الأسلوبية بدراسة النص دراسة وضعية وتحليلية بمعزل عن العوامل الخارجية عنه وعادة ما تتوقف الأسلوبية عند السمات أو الأنماط التي تتجاوز وظيفة الإبلاغ أو الأخبار، فدورها أن تدرس كل ما يؤدي وظيفة أدبية أو شعرية أو ما يمكن أن تشمل عليه الوظيفة الإجمالية². إن الأسلوبية تتأمل طريقة استخدام اللغة في العمل الإبداعي لتستخلص في تلك التفاصيل و الجزئيات تعميمات تحليلية تدل على طبيعة الأسلوب عند كاتب أو شاعر وهذا التحليل يتم وفق مستويات التحليل الأسلوبي من الناحية العملية وهي المستوى الصوتي، المستوى التركيبي،

أما أهم المعايير التي تعتمد عليها الدراسة الأسلوبية في سائر المستويات اللغوية فيمكن إجمالها فيما يلي:

1 المنظور الإحصائي: ويطبق من خلال الاهتمام بمعدل التكرار لبعض العناصر اللغوية، فالعنصر الذي يتكرر أكثر من غيره أولى بالدراسة يعني أنه سمة أسلوبية في النص شرط أن لا يتحول إلى جداول صماء تخنق روح النص وتكتم أنفاسه.

2 مبدأ العدول: ويسمى " الانزياح " أو " الانحراف " وهو الخروج من المؤلف في اللغة إلى استخدام جديد شرط أن يصاحب هذا العدول وظيفة جمالية تعبيرية.

3 مبدأ الاختيار: ويتم على أساس انتقاء الوسائل اللغوية المناسبة من النظام اللغوي لتأدية المعنى و التعبير عنه و " يتم على أساس التعادل أو التشابه أو الاختلاف أي على أساس الترادف و

3»

4 التأليف: وهو التنسيق بين المواد الخام للبناء حتى يتم له الشكل الفني ويقوم في أساسه على النحو و الهدف من التأليف النحوي " أن يتم التوافق بين المعاني النفسية المراد التعبير عنها و طريقة الأداء اللغوي لها عن طريق القيم النحوية التي تراعي خلال تأليف العبارة"⁴

اتجاهات الأسلوبية وحدودها:

1 شارل بالي: علم الأسلوب وعلم اللغة العام ت شكري عياد ط1
2 جورج موان: مفاتيح الألسنة: ت الطيب البكوش منشورات جديدة
3 - صلاح فضل، علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، مجلة فصول 5 1984 4 .56
4 1 دار الطليعة بيروت 1983 : .52

- ليس ممكناً أن تتم العملية الإدراكية للنص دفعة واحدة بل إن الإدراك يتم بالممارسة وعبر القراءة و التفسير و التأويل، لذلك فالأسلوبية لا ترى في النص جوهرًا ثابتًا من ثم فهي لا تدعي الإحاطة به فهما، ولكنها تعمل على توسيع فهمه باستخدام الأسلوب الذي صار بالنسبة لها تعبيراً عن متغيرات لا تنتهي.

- وهذا الانقسام اوجد نزعات فردية في النظر إلى الأسلوب، و اجتماعية ونفسية وسلوكية كما أدى إلى خلق اتجاهات فيها، وصار للأسلوبية اتجاه عام هو دراسة الأسلوبيات العام، واتجاه خاص وهو الدرس الأسلوبي الخاص بلغة من اللغات فعزز هذا استقلالها علماً ضمن الدراسات اللسانية يقول يسرجيرو " نشأ نظامان عن تجديد المذاهب اللسانية في بداية هذا القرن، فشكلا باسم الأسلوبية، دراستين منفصلتين ومتميزتين ...¹ " وهما:

1 أسلوبية التعبير: ومدارها علاقات الشكل مع التفكير وهي لا تخرج عن إطار اللغة كما أنها وصفية وترتبط بعلم الدلالة أو بدراسة المعاني (الأثر).

2 أسلوبية الفرد: ومن خصائصها: نقد الأسلوب ودراسة العلاقات التعبيرية مع الفرد أو مع المجتمع الذي أنشأها واستعملها، كما أنها تذهب إلى تحديد الأسباب بدراسة التعبير نفسه غزاء المتكلمين مما يجعلها أقرب إلى النقد الأدبي.

والخلاصة أن الدرس في أسلوبية التعبير يقوم على إبراز دور العلاقات التي تربط بين الشكل اللغوي و التعبير الوجداني المتضمن فيه ولكنها لا تتجاوز في الوقت نفسه حيز اللغة من حيث هي حدث لساني لخطاب نفعي، يتجلى في استعمال الناس له في حياتهم الاتصالية اليومية وتتحدد نظرتها إلى النص في البحث عن البن اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي.

إن الكلام عن الأسلوب يحتاج إلى طرح عدد من الأسئلة لرصد الظاهرة الأسلوبية ومعرفة حدود التحليل الأسلوبي و السؤال الذي نطرحه: هل الأسلوب سمة من سمات الشخصية الفردية؟ أم انه اجتماعي ينعكس فيه المجتمع ونظامه؟

- فإذا اتجه النظر إلى اعتبار الأسلوب سمة من السمات الشخصية فإن البحث سينتهي إلى الوقوف على الشخصية ككائن متميز تكشف فيه العبقرية و البراعة...

أما إذا اعتبرناه اجتماعياً فإن حدودا ستفرض عليه الاستثمار للبحث لا يستطيع تجاوزها. وفي الحالتين سيأخذ الحكم طابع التعميم: أسلوب خطابي، أسلوب سياسي، أسلوب قضائي، أسلوب اجتماعي، أسلوب عاطفي أو أن تقول أسلوب عصر أسلوب أمة، أسلوب طبقة من الطبقات الاجتماعية.

¹ بيرجيرو: الأسلوب و الأسلوبية، ص(28 29) - مذر عياش - بيروت.

وعليه فإن حدود التحليل الأسلوبي ترسمها الصورة التالية وهو أن الإنسان محدود بكائنه الاجتماعي ولذا فهو مرغم أن يدل بأدوات اجتماعية، واللغة محدودة بكائنها القاعدي ولذا فهي مرغمة من أن تدل بأدوات قاعدتها. وهذا يعني أن كلا الإنسان واللغة محكوم بقضاء المكونات الاجتماعية وقضاء المكونات اللغوية فهو لأنه اجتماعي، يريد أن يفهم ويغير هذا يمتنع التواصل، أي لا يستطيع الإنسان أن يحقق كائنه الاجتماعي، ولكنه كي يفهم مضطر أن يقول ويغير هذا يمتنع الفهم، واللغة كذلك إنها محكومة بقضاء المكونات اللغوية وقضاء الوجود الإنساني، فهي بحاجة إلى مكونات القاعدي، أي إلى مجموع نظامها الصوتية والنحوية والدلالية وبغير هذا لا تقوى على الإيصال ولكنها كي توصل محتاجة إلى الإنسان، يجليها ويستخدمها وبغير هذا لا تدل أي لا تستطيع أن تحقق كائنها اللغوي. وهذه صور الأسلوبية.

- " " ن يتجاوز الوظائف التقليدية للكلام ويعني بذلك الوظيفة الانفعالية وهي

() و الوظيفة الافهامية (المرسل إليه) و الوظيفة المرجعية

() () المتحدث عنه، وعمد إلى التوسيع هذه الوظائف وجعلها ست وظائف

أي أضاف إليها ثلاث وظائف أخرى: الوظيفة الشعرية، و الوظيفة الانتباهية، والوظيفة الواضحة

إلا أن هذا العدد لا يحيط بكل وظائف اللغة، بل إن كل نص يشكل وظيفة الخاصة وقد يختلف هذه الوظائف من أمة إلى أمة ومن عصر ومن حضارة إلى حضارة بل ربما تعددت الوظائف في الواحد الذي يقوم هو بإنتاجها.

ولعل أهم الوظائف هي الوظيفة الشعرية التي تجعل التركيز على الرسالة لصالح الرسالة الخاص وفيها يتحرر النص من كل رقابة . والنظر إلى النص بهذا المعنى أي من خلال أدائه الايصالي يحيل النص إلى نظام إشاري يقوم على متغيرات شكلية عديدة تحددها متغيرات وظيفية لا حصر لها. ولذا فإن اللسانيات في دراسها له، لا تميز بين الشكل والمضمون، وإنما تجعل المضمون موضوعا له شكل تقول لغته ويرده نظام الخطاب إلى جنسه الأدبي.

اللغة و الإيصال:

اللغة طاقة خلاقة كائنها ليس فيما نفكر فيه ولكنه فيما تقول ذلك أن جوهر اللغة يمكن في النشاط الإنساني وجوهر النشاط الإنساني يمكن في الكيفية التي يتم الانجاز اللغوي بها.

ولقد لاحظ الدارسون أن اللغة ذات مستويات عدة وتؤدي وظائف لا حصر لها واهتم بدراستها أداة بها يكون إيصال الإنسان وبها يكون حفظ بقائه وبها ينشغل الإنسان من كائنه الإنساني إلى كائنه الكلامي، ومن كائنه الشخصي إلى كائنه النصي.

وسنحاول في هذا العنصر التركيز على جانب من الدراسات و التي تختص بالعمل اللغوي تحديدا قصد توضيح علاقة اللغة بالإيصال: إذ اللغة مشترك الدراسات اللسانية و السيميولوجية والدلالية والأسلوبية والنقد الأدبي بل إنها أي اللغة نظام الأنظمة ومصدر إنتاج لكل هذه الدراسات فما اللسان (اللغة وما مفهومه عند اللسانيين؟).

يقسم علماء اللغة العربية اللسان إلى ثلاث أقسام: اللغة والكلام والقول وفي تعريف اللغة يقول ابن جني " إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹

أما الكلام " فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحو يرى الجمل نحو زيد أخوك، فكل لفظ مستقل بنفسه وجنيت ثمرة معناه فهو كلام"²

وأما القول " فأصله إن كان لفظا مدل به الإنسان تاما كان أو ناقصا، فالتام هو المفيد اعني جملة وما كان في معناها، والناقص وما كان بغير ذلك نحو: زيد وعمرو، وإن فكل كلام قول، وليس قول كلاما"³

1	:	1	.33
2	:	17	
3	:	17	

أما اللسانيات الحديثة فقسمت اللسان إلى قسمين: الكلام و اللغة، و هي تعتبر أن كل البشر يملكون استعدادا خاصا للتواصل فيما بينهم من جهة و لنقل أفكارهم و التعبير عن مشاعرهم و رغباتهم في جهة أخرى و هذا ما جعل سوسير ينظر إلى اللسان على أنه مكون من بعدين - فردي و اجتماعي - " إن للكلام وجهها فرديا ووجهها اجتماعيا و لا يمكن وجود أحدهما دون الآخر"(01) . و لما كانت اللسانيات قد وضعت نفسها ضمن إطار الدراسات الإنسانية فقد حدد ميدانها " إن الكلام الذي يدرسه اللساني في الكلام الإنساني"(2) .

و الكلام "يعني بصورة خاصة الموهبة التي يملكها الناس للتعلم و ذلك عن طريق إشارات سمعية"(3) .

يقول " تشومسكي" في تعريف اللغة " نطلق اسم " لغة " من الآن فصاعدا، على مجموعة دودة أو غير محدودة من الجمل. و تمتاز كل جملة بطول محدود، و تتكون من مجموعة من العناصر، و إن كل اللغات الطبيعية ، مكتوبة أو متكلمة - تنطبق على هذا التعريف و ذلك لأن اللغة الطبيعية تحتوي على عدد محدود من الفونيمات أو الحروف ، هذا مع العلم أن عدد الجمل غير مت " (4) .

و إذا نظرنا إلى الفرق بين اللغة و الكلام وجدنا أن اللغة نظام يقوم على التنسيق بين الصور السمعية و المفاهيم و امتلاكها يقوم على استخدام الإمكانات الذهنية أو الذاكرة. أما الكلام فهو الاستخدام الفعلي للنظام اللغوي و أن نشاط مرتبط باللغة يعد من خصائص الكلام لهذا فالكلام ظاهرة فردية.

و منه فالكلام يدخل في دائرة اللغة و لا تدخل اللغة في دائرة الكلام و هذا يعني أن اللغة أوسع دائرة من الكلام أو أنها تتضمنه .

1- Cours de linguistique générale .P7.

2-3- Elements de linguistique générale .P7.

4- Structures syntaxiques P15.

أما الكلام فهو مجموع العبارات التي ينطق المتكلم بها و ينقسم إلى عدة مستويات:

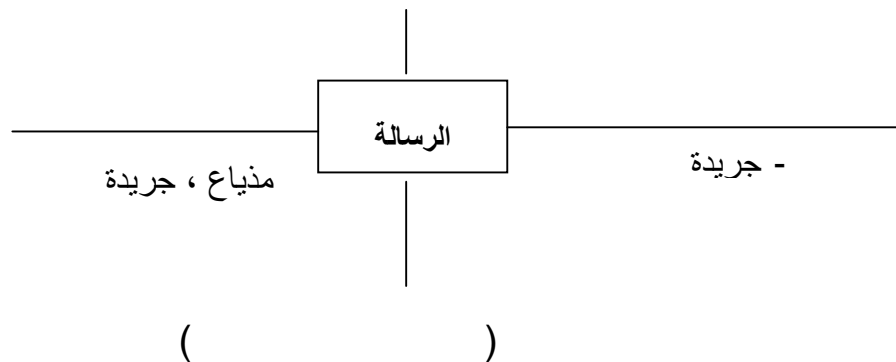
1 مستوى غير مباشر: وهو المستوى الذي يكون الفرد فيه متلقيا فقط أو منعدم الفاعلية. أي أنه يذوب لتظهر فيه الشخصية اللغوية للمجتمع الذي ينتمي إليه.

2 مستوى مباشر: وهو المستوى الذي يستعمل فيه المتكلم شفويا أو كتابيا طرائقه الخاصة في تنفيذ عملية الكلام دون أن يعزل عن الأسرة اللغوية التي ينتمي إليها.

علاقة اللغة بالإيصال :

من الإشارات فإنها أي أداة تستخدم لنقل بين المتكلمين ، و عملية نقل هذه بين المتكلمين . تحقيقا للشرط الإنساني هي ما يسمى عند علماء اللغة : الإيصال.

إن هذه العملية تربط بين طرفين بين اللغة نظاما ، و الإيصال هدفا للمتكلمين ، ويكمن ضمن علاقة تمثل فيها اللغة أداة الإيصال ويمثل الإيصال فيها وظيفة اللغة . و يقدم لنا جاكسون رسما يمثل بيانا لهذه العملية.



و يمثل هذا الرسم الشكل الإجرائي للإيصال كما يتم في الحياة اليومية أو عبر اللغة غير أن هناك أشكالا أخرى تبني اللغة فيها شكلها الخاص لتكون غاية نفسه و لنفهم هذا

:

1- اللغة أداة الإيصال :

أن أشرنا في معرض حديثنا عن مفهوم اللغة و قلنا أن اللغة نظام من الإشارات تستخدم في نقل رسالات إنسانية و هي لهذا كانت ذات طبيعة اجتماعية .
- أما الكلام فهو ذو طبيعة فردية ذلك لأنه الإنجاز و التنفيذ أو هو الأداء الفعلي للغة ، وهذا الأداء يقوم به الفرد الذي يكتسب اللغة اكتسابا و معرفته بنظامها القاعدي ذات طبيعة ضمنية ، و هذا ما يسميه "تشومسكي" الكفاية و الت .

2- الإيصال:

الإيصال جملة من الأخبار أو المعلومات المنقولة على تسميتها الرسالة و هذه الرسالة يتم نقلها إلى سامع أو قارئ أو مخاطب و يكون ذلك عبر قناة تسمى الإيصال. وتتكون هذه القناة من أدوات مختلفة، قد تكون مذياعا أو جريدة أو لوحة ذات ألوان أو رسما من الرسوم كالخرائط لغة هو الإنجاز و .

وتطبيق قضية الشكل في الكلام على كل الأشكال الأخرى لأدوات الإيصال غير الكلامية كالألوان و الكتابة و الرسوم في الأشكال المرئية و كالأصوات و الموسيقى في الأشكال و العطور في الأشكال الملموسة كالنعومة و الخشونة و الأشياء الذوقية.

علما أن المعني يأتي إلى كل هذه الأشكال من اتفاق مسبق و تواضع قائم بين المرسل المرسل إليه (المستقبل) و لذا فإن "الإيصال لا يقوم على مستوى دلالي إلا عندما يتصرف كل الباث و المتلقي على الشيفرة نفسها في بناء الرسالة و تفكيكها¹.

و متى أنفق الباث و المتلقي على اتخاذ اللغة أداة للإيصال يكون الإيصال وظيفة اية، في هذه الحالة يصبح من مهمة اللغة ووظيفتها نقل المعلومات و إيصال الأخبار بواسطة شكل لغوي متفق عليه بين الطرفين.

و حين تكون اللغة أداة للإيصال و الإيصال هدفا للغة فإن الكلام يكون جوهر العملية الإيصالية، لتدخل اللغة بذلك مع الإيصال في علاقة تبادلية .

إلا أنه قد تخرج اللغة عن الإيصال حين لا يتحقق على الشكل اللغوي للرسالة بين الباث و المتلقي، فتحصل القطيعة من قل اللغة على مستويين :
1 وضعها أداة.

2- على النظم التي يقع في إطارها : المرسل المتلقي صوتا و نحوا و دلالة لتخرج من

- وهذا الشكل الخاص الذي تشكله يسمى الأسلوب. اللغة خاصة من خواص نفسها .
هذا تخرج اللغة اختياريا عن الإيصال لتبني شكلها الخاص و لتصبح غاية نفسها ، لنكتشف أن تجليات هذه اللغة المتمردة أكثر ظهورا مع الأسلوب ذلك لأن الأدب لا يعيد إنتاج الواقع كما في لغة الإيصال للخطاب اليومي و ل نه يقرأ الواقع وفق نظامه الخاص .

¹ Galisson D. Coste : dictionnaire de didactique des langues. P 306

- لهذا فتعددية الأصوات في النص الأدبي ليست انعكاسا لرؤية بلاغية تصنيفية تقوم على تعددية المستويات الاجتماعية خارج النص و لكنها تعددية افتراضية كامنة في اللغة تظهرها نظمها و طاقتها التوليدية عبر إنجازاتها المتعددة و أداء إشارات اللامتناهي .

- و إذا كانت أدوات الإيصال غير اللغوية لا تؤدي إلا وظيفة نقل الخبر فإن اللغة تمتاز منها بأداء افة إلى أخرى كلها تدل على فاعليتها و استقلال كائنها:

أ- الوظيفة الأولى: و تتجلى أنه تعطي الأشياء أسماءها و دلالتها.

ب - الوظيفة الثانية: الأشياء التي يتكلم عنها.

ج - الوظيفة الثالثة: و هي من أطر وظائف اللغة و تتجلى في قدرة اللغة على خلق الأشياء بعد

د - الوظيفة الرابعة: و تتجلى في إعطاء الأشياء معانيها معاني إضافية إلى معانيها.

هـ - الوظيفة الخامسة: معاني ليست من مسميات

أشياءها أصلا .

ز- الوظيفة السادسة : و تتجلى في رسم موقف إنساني يدخل دائرة معرفة الإنسان بنفسه

لكن اللغة تجعله خلقا آخر ليخبر به عن مكنونه في صورة جمالية .

- إن للغة طاقة و قدرة على الخلق لا يمكن معها جمع النماذج التي تتجلى فيها تلك القدرة

تلك الطاقة كما لا يمكن إحصاء كل الأشكال التي يتجلى فيها دور اللغة في إنتاج كائنها

تحديد وظائفها.

الأسلوبية و علم الخطاب :

إن الأسلوبية محتاجة إلى رؤية شمولية بها تدرس أجزاء الخطاب ،كلمات و جمل ،و بها

تحليل هذه الأجزاء و تخرجها من نظامها الخاص إلى نظام الخطاب و يقوم كل من الأ،

الخطاب على تبادل الوظائف فالأسلوب "خطاب" لا يعترف إلا بنظامه الخاص و الخطاب أسلوب

يقيمه نظامه و لذا يبدو الخطاب في الحالة الثانية و يفة للخطاب في أداء نظامه .

إن الأسلوبية موقف من الخطاب و لغته ،و يتجلى هذا الموقف في عمل اللغة نفسه ذلك لأن

اللغة نشاط لأن كل نشاط لغوي إنما هو رهن حاجته إلى إنفاذ قضائيين: قضاء نظامه القاعدي

الذي به يقوم و قضاء و جوده الإنساني الذي به يتجلى .

فإذا تمت اللغة قولاً أو اكتملت نصاً لنفاذ القضائيين فيها من جهة و لحصولها في الإيصال

على مكوناتها الثلاثة {المرسل و الرسالة و المرسل إليه} من جهة أخرى فإن الموقف الأسلوبي

سين لا محالة حينئذ و سيصبح في العدد أقسامه ثلاثة :

- القسم الأول : يرى أن عملية الإيصال لا يتم بعناصرها دون نقص {مرسل،رسالة،ملتقى}
- القسم الثاني: يرى أن عملية الإيصال شكل راق و صيغة مخصوصة فلا تحتاج إلا إلى مرسل

- القسم الثالث : يرى أنه إذا تم هذا الشئ الراقى أنقطع عن المرسل لتبقى العلاقة بين المرسل و المرسل إليه .

و قد ترتب على انقسام هذا الموقف كل ما بنته الدراسات اللغوية و الأسلوبية قديما و حديثا من مناهج الدرس و طر مدارسها و مذاهبها .

إن مقصود التصنيف في هذا القسم يقف عند حدود الإيصال الذعي التداولي و ذلك لأن أي عملية إيصالية من هذا النوع تكون اللغة اليومية أدواتها فإنها تحتاج إلى مكوناتها الثلاثة التي أشرنا إليها سابقا {المرسل، المرسل إليه، الرسالة} ذلك أن الخطاب فيها يقوم على استهلاكية مباشرة ، و هذا طبيعي مادام الإيصال هو غايتها و مادام الخبر و الإفهام عبر الرسالة المنقولة هو هدفه .

- إن ثمة شرطين في العمل يجب أن يتوا أو أن يتحققا من غير النفعية بل ربما من غير الموقف و المقام أيضا ، هذان الشرطان هما شعرية الخطاب و أدبية الأسلوب و لا يمكن لهدية بين أن يكونا ما لم يكن الخطاب قائما على الخصائص التالية :

1- أن يكون هو مرجع ذاته فلا تفسر اللغة المستخدمة فيه و لا تؤول إلى به.
2 يفتح للتخيل بابا بحيث يصبح هو ية مكان الفعل المتبادل بين اللغة فاعلة في الخيال و بين الخيال فاعلا في اللغة.

3- أن يكون الأسلوب فيه ليس موضوعه فقط و إنما أدواته التي يميز بها من غيره، أي أدواته التي يمتلك بها خصوصيته و تتحقق بها أدبيته.

إن توافر الخطاب على هذه الخصائص لأمر يجعل من النص الأدبي حدثا و يجعل من هذا الحدث شكلا خاصا من أشكال اللغة و إنتاج المعنى أي أسلوبا يقول الخطاب و يحيله إلى جنسية الأدبي.

ولعل في ردود الفعل هذه، إشارة الأثر الأني الذي تحدث عنه (حازم القرطاجني)، وغيره من الباحثين العرب القدامى، لأن هذه الردود تعكس لنا بقوة بلوغ المعنى، والقصد وتمام الفائدة وبما أن الأثر يتعلق بالمتلقي، فإن هذا دليل على الأهمية التي حظي بها هذا العنصر في الدراسات العربية القديمة والحديثة لاسيما في الدراسات التداولية المعاصرة، " ... بل إن اهتمام بهذا المخاطب يكاد يغطي على أي اهتمام بجانب المتكلم ..."¹.

كما لاننسى اهتمام (حازم القرطاجني)، وغيره من البلاغيين العرب القداماء (بمقاصد المتكلم)، وهو يعرف في التداوليات المعاصرة بـ(نوايا المتكلم) التي تعمل على توجيه الخطاب أو النص وتساهم في إنجاحه.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، تحدث (حازم القرطاجني) عن اختلاف مقاصد الشاعر باختلاف نواحي تأثيره في المخاطب، فالعلاقة بين مقاصد الشاعر ونواياه، ونواحي التأثير عند المخاطب هي علاقة تلازم. ويكرنا هذا التلازم بمقولة شهيرة (لالبوت) كان يردد من خلالها أن " ... القصيدة تقع في مكان ما بين الكاتب والقارئ ..."².

ولكي يكون الحديث عن العملية الكلامية وشروطها مكتملاً عند (حازم القرطاجني) ينتقل بنا إلى الحديث عن السياق ودوره الفعال في عملية التواصل، وكذا الوظائف المختلفة المتعلقة به. فالمقام كفيل بالمحافظة على معانى الخطاب، لأن فقدان المقام لخصائصه، وشروطه ينعكس سلباً على الخطاب الذي يصبح خالياً من المعنى.

وعموماً فإن فكرة التداولية عند (حازم) تظهر أثناء حديثه عن القصد، والفهم، والمنفعة، والتأثير و التأثير، وأحوال الخطاب، والمرسل والمتلقي، إضافة إلى السياق الذي يتم فيه التواصل، وهي خصائص ومفاهيم تداولية معاصرة جداً، تعكس عمق النظرة عند حازم القرطاجني.

وانطلاقاً من هذه النظرة يصبح الخطاب عنده بصفة عامة، والشعري منه بخاصة، يحمل بعداً تداولياً معاصراً جداً لاقتترانه بالفائدة.

¹ - محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، ص242.

² - نجيب فايق أندراوس، المدخل في النقد الأدبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1974 106.

وتجلت ملامح التداولية عند (ابن خلدون 732 808هـ) بشكل مخالف لصورها عند بقية الباحثين العرب القدامى، حيث كان تجليها يقتصر عند الواحد منهم على عنصر من عناصرها القصد و النية،... وغيرها من عناصر المنظومة التداولية.

لأن تجليها عند (ابن خلدون)، يقترب مما يعرف اليوم الفكر الأمريكي بـ: الذراعية النفعية (pragmatisme)، إذ نظر إلى الغاية من دراسة الأدب، واكتساب الملكة اللسانية بشكل شمولي حيث يقول: " الأدب هو حفظ أشعال العرب، وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف "ثم يضيف: " إنما المقصود منه (يعني الأدب) عند أهل اللسان، ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم"¹

فابن خلدون في النص السابق يحدد الغاية الكبرى للادب بشموله، ممثلا في أشعار العرب، وأخبارها، وأيامها، وكل روافده من العلوم الأخرى، فلا يتعدى بها هدفا واحدا يتمثل امتلاك ناصية الكلام على أساليب العرب في الفصاحة.

وقياسا على الأدب يرى أن امتلاك اللغة بشمولها، يجب أن يكون من أجل الإبانة، والإفهام وهو أقصى ما تذهب إليه التداولية الحديثة مثل ما هو موضح في النص التالي: " أعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها، بحسب تمام الملكية أو نقصها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكية التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة..."²

من خلال النص يمكننا أن نستخلص المفاهيم التداولية التالية: " الملكية اللغوي "، " الجودة "، " التعبير عن المعاني المقصودة "، " مراعاة التأليف "، " مقتضى الحال "، " التبليغ "، " الغاية من إفادة المقصود "، " السامع "، " البلاغة "،... وهو ما يمكن التعبير عنه في اللسانيات الحديثة بالمعاني التالية: (الأداء، الكفاءة، القصد، التركيب، السياق، المتلقي وغيرها).

¹ - مقدمة، دار الرائد، بيروت، لبنان، ص553.

² - المرجع نفسه، ص554.

ولعلنا لا نجد صعوبة في استنباط قاموس ثري من المفاهيم التداولية التي تعرض لها العلامة ابن خلدون في شكل واضح، وبمنهج لا يمكن أن يلتبس على أحد. ولعل أرقى ملامح التداولية عند (ابن خلدون) تجلت في النص التالي الذي عنونه بأن ملكة اللسان غير صناعية، يقول " نجد كثيرا من جاهابذة النجاة و المهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين (يقصد قوانين النحو)، إذا سئل في كتابه سطرين إلى أخيه، أو ذي مودة، أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام العبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي، وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، ويجيد الفنين من المنظوم و المنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية " ¹.

من أحسن التعليقات على هذا النص وجدتها عند الدكتور (سالم علوي) في مقال له بعنوان ابن خلدون وعلوم اللسان العربي: " نخلص إلى أن الملكية في التأدية، فالملكة لا تحصل إلا بالمران و المعاناة، و التكرار، حتى تعود صفة راسخة في المتكلم، أما التأدية فحال متغيرة غير راسخة، وهذا الكلام فيه سبق لا نجده إلا في اللسانيات الحديثة مثل ما هو الحال عند تشومسكي، الذي فرق بين الملكة و التأدية (la compétence et la performance) أو دوسوسير الذي فرق بين اللسان و الكلام (la langue et la parole) " ²

فمن النص السابق نلاحظ ان التأدية أمر ضروري لكل علم من علوم اللسان، فلا النحو مثلا معزولا عن الإجادة في الكلام و الفصاحة، إذ العبرة بالفائدة، و القدرة على الإبلاغ و الإفهام بشكل جيد وفعال، وهو أعلى مراتب التداولية الحديثة.

ولا عجب أن ينحى (ابن خلدون) هذا المنحى لأن علوم اللغة كلها نشأت في نظره لهذا أكبر وهو إدراك إعجاز القرآن، ومعرفة الشريعة، وبالتالي لا يجب أن تكون غاية مجردة لذاتها، بل هي الوسيلة لفائدة ومنفعة أكبر، فلنتابع قوله - وهو يتحدث عن علم البيان، حيث يقول: " إن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام من الكمال " ³

¹.560

² سالم علوي، ابن خلدون وعلوم اللسان العربي، حوايات جامعة الجزائر، العدد الثامن، 1994، 192.

³.552

إن هذا المنحى المنفعي الواقع في الدراسة لا يبلغ ذروته إلا في المنهج التداولي الذي جاءت به اللسانيات الحديثة، فالأدب ثمرة، واللغة هدف، وللنحو غاية، وللبيان قصد ومهمة، وهكذا ...

وكلما شرفت الغاية شرفت الوسيلة، لتكون الغاية الأسمى هي فهم القرآن الكريم والمحافظة على الشريعة.

لقد تناول (ابن خلدون) كثيرا من المفاهيم التداولية تعرض لبعضها بتفصيل كبير (الدكتور محمد عيد) في كتابه الملكة اللسانية عند ابن خلدون يمكن العودة إليه لمن أراد التفصيل.¹

خلاصة:

لاصحة القول: إن ملامح التداولية تجلت بوضوح عند هذه الكوكبة من العلماء العرب القدامى، من خلال اهتمام كل واحد منهم بعنصر معين من عناصر العملية التواصلية. 1 فقد تبلورت فكرة التداولية عند الجاحظ من خلال اهتمامه بفكرتي (الإقناع و التأثير) مما يترتب عنهما التركيز على كل عناصر الخطاب من (المرسل، الرسالة، ومرسل إليه). ولعل المنطلق عند الجاحظ كان (اللفظ و المعنى) اللذان يتعلقان بمفهوم البيان عنه، وتحقيق الفهم والإفهام.

2 أما ابن جني، فتحدث عن جملة من المفاهيم التي تعتبر تداولية في صميمها، كالكلام ومخاطبة بما يعتاد ويأنسه، و القصد، والمعنى، والتواضع، والنطق، والمخاطب، والفهم... الخ. 3 واما أبو هلال العسكري، فقد كان حديثه متمحورا: نوايا ومقاصد المتكلم، ومراعاة أحوال المستمع، والمقام الذي صدر فيه الخطاب، ويقترن بالفائدة، و الإيجاز، والإقناع، والتأثير. وينضاف إلى ذلك كله حديثه عن التداول الذي خصص له باب كاملا في كتابه (الصناعتين) واعتبره من أهم المكونات البلاغة، فالتداولية عنده تظهر من خلال حديثه عن: (المرسل، والرسالة، والمرسل إليه، والقصد، والمقام، ومراعاة مقتضى الحال، و الفائدة، والتداول، و (...)

4 أما ملامح التداولية عند (ابن سنان الخفاجي) فإنها تظهر في حديثه عن مفهوم الكلام، واعتباره أن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل، والتواضع، والمرسل و المتلقي، وقصد المتكلم، ونواياه و الفائدة، والتأثير.

¹ - محمد عيد، الملكية اللسانية عند ابن خلدون، عالم الكتب، بيروت 1979.

- 5 وقد ظهرت بعض الملامح التداولية عند (عبد القاهر الجرجاني) أثناء حديثه عن وضعية المخاطب، واهتمامه بقضية (اللفظ و المعنى)، والتأثير في المتلقي، و الوضوح.
- 6 تحدث السكاكي في جملة من المفاهيم التي تعكس بعض الملامح التداولية كاهتمامه بمراعاة مقتضى الحال، وربطه الكلام بحالة المتلقي الذهنية والمقام، والفهم، و القصد، ونوعية الكلام المرسل، والأساليب الإنشائية وهو ينطلق في ذلك كله من إشكالية (اللفظ و المعنى).
- 7 أما ملامح التداولية عند حازم القرطاجني، فإنها تظهر من خلال حديثه عن العملية التواصلية، واعتباره أن الكلام هو الوسيلة الأولى للتواصل، والقصد، و الفائدة و التأثير، والمتلقي، والوضوح، و الإيجاز، والمقام.
- 8 وقد تجلت ملامح التداولية عن ابن خلدون من خلال حديثه عم شمولية الأدب وثمرته، وعن الإبانة و الإفهام، والملكة اللغوي، والجودة والقصور، والتعبير عن المعاني المقصودة ومراعاة مقتضى الحال، والغاية من إفادة المقصود، والبلاغة، والسامع، وكلها مطالب أساسية في التداولية الحديثة.

بين يدي المدونة:

- ينتمي كتاب الاشارات الالهية الى المرحلة الأخيرة في حياة أبي حيان التوحيدي اذ يقول : " أنا نطقت بهذه الالغاز بعد سبعين سنة وقد تحطمت قناتي و تكمشت شواتي و تقلت صفاتي "(1)
- وقد اطلق عليه ابو حيان اسم الاشارات الالهية و الأنفاس الروحانية (2) و تم تحقيق الكتاب مرتين
- المرة الاولى و كان ذلك في الخمسينات على يدي الدكتور عبد الرحمان بدوي بالتحديد سنة 1950
- المرة الثانية : وتم التحقيق سنة 1973 على يدي الدكتورة وداد الرسائل التي حققها الدكتور عبد الرحمان بدوي 10 رسائل وقصيда لأبي العتاهية والكتاب موضوع التحقيق الثاني هو الذي نتاوله بالدراسة هذه.
- أما حجمه الحقيقي فألف ورقة و هذا حسب التوحيدي نفسه "ترنح في هذا الفضاء الذي قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقة متنزها"(3).
- و موضوعه الرئيسي في التصوف و الشكوى من الدهر و انقلاب احوال المجتمع و بين ثنايا ذلك تأمل في القيم الاخلاقية و دورها في بناء شخصية الفرد و تدعيم الكيان الاجتماعي و الانساني.
- و اما عن اسباب تأليفه فقد اكتفى ياقوت الحموي بالقول ان الكتاب في جزئين (4) دون أن يذكر اسباب و ظروف تأليفه

1 الاشارات الالهية : تحقيق وداد القاضي - دار الثقافة بيروت لبنان 1982

2 8

3 172

4 ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج15 - الدكتور فريد الرفاعي مصر 1988 7

نطقناها فإننا نقف عند سببين اثنين لا يتعارضان و انما يتكاملان:

السبب الاول: رد على مسألة أو مجموعة من المسائل اذ أن الكتاب نفسه لا يقدم لنا يقينا فهو يقول: "و جواب مثلك على مسائلك انما يكون بصدر لا حرج فيه و لسان لا لكنة به ... (1) و يقول " ني رفق الله بك و عطف على قلبك ان اذكر لك الغريب و محنه " (2)

السبب الثاني:التكسب: ويبدو أن الكتاب ليس موجها الى شخص محدد او اشخاص و انما كتبه لنيل الحضوة لدى هذا او اولئك فهو يقول مستعملا ضمير المفرد " حتى تتفضل بما ملكك الله و تسدي ببذل المزيد" (3) او يقول: "اعطني اجرتي على سعبي , اشكرني على سهري لك , أمن

"(4)

و بالنظر الى طول الكتاب الذي يبلغ ما يزيد على الاربعة مائة صفحة و تعقد لغته و تنزله ضمن جنس أدبي و هو (أدب الترسل) , فإننا قد وجدنا صعوبات كبيرة في الولوج اليه و تحليله وبيان ابعاده و قيمته الفنية و الفكرية ذلك ان المراجع حول الكتاب قليلة جدا فهي و ان وجدت فلا تفي بالحاجة, اذ تتعلق في أغلب الاحيان بأدب الرجل عامة و هي قاصرة عن افادتها في هذا البحث.

18	4
30	2
74	3
360	4

و لهذه الاسباب حاولنا في تناول الكتاب توظيف المعارف اللغوية و البلاغية و الأدوات المنهجية الاسلوبية منها و التداولية قصد استنطاق الخطاب التوحيدي بما يمكننا الالمام بقوانين انتاجه اذ

النص حسب جاك دريدا "سرداب مظلم يفتح على منافذ من ناحية ، و هو غامض
ناحية أخرى" (1)

- و قد لجأت الى المزج بين المنهجين اولاً: نظراً لصعوبة التعاطي مع النص التوحيدي و
- **ثانياً:** الرغبة في التنوع لتحقيق التكامل الموصل الى نتائج اقرب الى حد ما للموضوعية
ذا كان المبدع يتخير من الالفاظ و التراكيب ما يخدم موضوعه و فكرته فان الدارس يختار
ليفسر عملية الخلق.
- و تضم مدونة الاشارات الالهية لأبي حيان التوحيدي اربعا و ستين رسالة يمتد القسم الاول من
الصفحة الاولى الى الصفحة السادسة و التسعين بعد المائة الثالثة , اما الملحق فيبتدئ من الصفحة
الموالية الى الصفحة الثامنة و الستين بعد المئة الرابعة.
- و هذه الرسائل متفاوتة في حجمها اي عدد صفحاتها ومختلفة في بنائها الداخلي و الملاحظ على
هذه الرسائل انها منفصلة عن بعضها فصلا تاما لأنها كتبت فيما يبدو في فترات متباعدة
اختلفت في مواضيعها و نفسها العام .
- اما زمن كتابة الاشارات فالإجماع بين الدارسين قائم على انه يمثل المرحلة الاخيرة من مؤلفات
التوحيدي مستنديين في ذلك على قرائن تاريخية تستمد من النص نفسه او من نصوص اخرى
للمؤلف وردت فيها تواريخ و احداث ذات قيمة مرجعية, قد تمكن الدارس من ترتيب المؤلفات
على خط الزمان و معرفة السابق منها على اللاحق.

1 عبد العزيز بن عرفه مقالة بعنوان: التفكيك و الاختلاف مجلة دراسات عربية ع 4 1988 36.

- إلا ان نص الاشارات مجرد من كل اشارة تاريخية و خال من القيمة الوثائقية, فصلته
قطوعة لا يكاد يرجع اصداءه او يبوح بأحداثه أو ينطق بأسماء أعلامه. فإذا نطق كناها

و ما سماها فضلا عن انعدام " اقتباسات من هذا الكتاب و في كتب أخرى للتوحيدي نفسه
غيره" (1)

و هذا ما يجعل القطع في مسألة زمن الكتابة أمرا متعذرا, يقول عبد الرحمان بدوي صاح
التحقيق الاول للكتاب "أين يمكن ان نضع هذا الكتاب في مراحل حياة التوحيدي الروحية؟ سؤال
لن نجد عنه فيما بين أيدينا منه جوابا حاسما. اذ ليس فيه أدنى اشارة تاريخية الى أحياء
" (2)

و هذا ما دفع الباحث وغيره الى التماس سبيل أخرى يثبت بها تأخر الكتاب و انتسابه الى المرحلة
الأخيرة من تجربة أبي حيان في الكتابة, و ذلك بالنظر في أسلوب الكتاب و مقارنته بالأساليب
المتوخاة في غيره من مؤلفات الكاتب كالإمتاع و المؤانسة أو المقابسات أو الصداقة و الصديق
" و لهذه الأسباب كلها نرجع أن يكون هذا الكتاب من كتب التوحيدي الأخيرة, و مما كتبه في آخر
" (3)

- وهذا ما توصل اليه الباحث عبد الرزاق محي الدين من أن مؤلفات التوحيدي تنقسم الى
:

- طور أول غلب فيه على المؤلفات طابع "الحشو و الاستطراد" و السير في الكتابة على
غير نهج واضح , يتجلى ذلك في كتاب "البصائر " (4)

- طور ثان تتسم الكتابة فيه بعمق التناول ودقة التعبير و اتضاح المنهج و الحكام في الربط
بين الفكره و الفكرة و من مؤلفات هذه المرحلة "الامتع و المؤانسة, و مثالب الوزيرين
الصداقة و الصديق" (5)

1 - الاشارات الالهية 27

2 رات الالهية ص32 33

3 المصدر نفسه ص34

4 5 عبد الرزاق محي الدين- أبو حيان التوحيدي, سيرته : 2 المؤسسة العربية للدراسات و النشر

1979 342

- أما الطور الثالث فالأسلوب فيه يختلف عن سابقاته سواء في الفكرة أو العبارة "الفكرة
تقصد لتنمية الذوق و تعليية الوجدان (...) و العبارة تراد للتأثير لا لمجرد التصوير ولا الهاب

الشعور و لا لتطمين العقل (...) و تلك كانت سمة أسلوبه في كتابه "الاشارات الالهية" و هو فيما نرجح آخر مؤلفاته عهد التأليف"⁽¹⁾

- ولقد عقد من كثير الدارسين مقارنة بين التوحيدي و كتاب عصره "فكان أساليب عصره ضيقا بهذا الذي يشاع فيها في زخرف الصنعة و تكلف البديع, كما كان فنه أوسع أفاقا و مرمى من تلك الأفاق الفنية التي كادت تقصر على الرسائل الاخوانية و الديوانية العهود و المواثيق ثم المقامات"⁽²⁾

كما أعتبر نثره من نثر الجاحظ يقتدي به و يسير على نهجه في الكتابة "فكلاهما حريص على هندسة الجمل و موسيقاها و توازن الجمل بعضها مع بعض, فهما معا يكثران من التوسل, لكن ترسلهما عذب، لأن فيه تقسيما بين الجمل و اتساقا يجعل وقعها لطيفا على السجع، وهما معا يكثران من الازدواج"⁽³⁾ مما يدل على اعجاب التوحيدي بأسلوب الجاحظ و يتعصب له حتى لقب

ولعل من المصاعب التي يجابهها قارئ نص الاشارات جنسه، وهي مسألة سكت عنها الدارسون.

-
- 1 عز الدين محي الدين- أبوحيان التوحيدي : سيرته و آثاره : ص344
 - 2 المرجع نفسه ص347
 - 3 المرجع نفسه ص327

دت الدراسات البلاغية خاصة، ذلك الارتباط بين اللغة و استعمالها في السياق و من الذين سبقوا الى هذا المقام الجرجاني في نظرية النظم، اذ النظم دليلا على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل في انجاز الخطاب، بناء على الموازنة بين الكفاءة اللغوية الكامنة في الذهن عناصر السياق الخارجي.

- و بالنظر الى مكونات الخطاب التي تدرسها العلوم الانسانية و التي لا تقبل الاختزال فقد تأكدت الحاجة الى استعمالات الدراسات اللغوية في التواصل ضمن الاطار الاجتماعي الامر الذي دعا الى الى دراسة السياق موضوع التلفظ بالخطاب اللغوي و دورها في تشكيل الخطاب و أهدافه و مقاصده و معرفة أنواع السياق كالنفسى و الاجتماعي و تأثير ذلك على توليد الخطاب...

ولعل الدراسات التداولية خير من مثل الاتجاه التواصلية.

و تؤدي اللغة وظائف شتى إلا أنه لا وظائف تداولية للغة خارج سياق الاتصال و من أكثر الباحثين شهرة في تناول وظائف اللغة في البحث المعاصر جاكبسون اذ عمد الى العناصر المكونة لعملية الاتصال و قام بحصرها في ستة عناصر و هي :

- 1 المرسل: و هو الطرف الاول
- 2 المرسل اليه: الطرف الثاني
- 3 المرجع : و هو المحتوى الذي تشير اليه
- 4 القناة : و هي ما يسمح بنقل الرسالة من المرسل الى المرسل اليه
- 5 السنن : و هو مجموع العلامة التي تتشكل منها الرسالة و شرطها أن تكون مشتركة ليفهمها طرفا الرسالة
- 6 .

و اللغة من وجهة نظر جاكبسون (شئ خارج عن هذه الاطراف و يصبح التحكم في توظيفها ، ادة المرسل الذي يمثل طرف العملية التواصلية الأول و لذلك جعل كل عنصر من هذه العناصر ، مرجعا في تحديد واحدة من الوظائف ليصبح للغة ست وظائف و هي:

- 1 الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية
- 2 الوظيفة الايعازية أو الندائية

3	الوظيفة المرجعية
4	وظيفة اقامة الاتصال
5	وظيفة ما فوق ا
6	الوظيفة الشعرية

و هذا ما سنقوم بتطبيقه على الخطاب التوحيدي في اشاراته ذلك أن الوظائف اللغوية تحاول الربط بين الوظيفة و الاستعمال الذي يخرج بالدرس اللغوي من الانكباب على الشكل البحث الى دراسة الخطاب تداوليا تحقيقا للتواصل و الانجاز في اطار شروط السياق و محدداته.

✓ اللغة و الرؤيا و الاشكال:

عندما تنظر الى الظاهرة البلاغية باعتبارها ظاهرة لغوية متجسدة في خطاب ، و متحققة فيه ، خاضعة لشروط القول و التلقي فإننا نكون أمام خطاب تواصلية يمتاز بخصائص بنائية براجماتية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات الاخبارية ، السردية و الحكائية ، و بالتالي فان مقارنة هذا النوع من النصوص سوف تكون مختلفة ، لأن التعامل النقدي في هذه الحالة سيكون من نوع خاص من التخاطب ، اذ ان أي محاولة لرصد الصور الأسلوبية و البنائية في القول البليغ ستجد

نفسها أمام ظواهر بلاغية (أسلوبية و بنائية و حاجية) ، تحتل فيها القصدية و التأثير و النجاعة مكانة مهمة ، مما يفرض على الدارس استحضار مقاصد المتكلم و السياق التداولي الذي يتم فيه التخاطب الأدبي.

ان ما يميز بلاغية النص الأدبي عن غيره من التحقيقات النصية الأخرى هو استناده الى مرجعية أو سياق مشترك بين المخاطب و المخاطب و بالتالي بروز قيمة القصدية بالنسبة الى الذوات المتخاطبة ، و بذلك ينتمي القول الشعري الى مجال التداوليات و هو مجال شاسع يسمح لنا بالقول ان هناك تداولية بلاغية الى جانب التداولية اللسانية و المنطقية و الفلسفية ، فالبلاغة تتحدد بكونها فنا أي مجموعة من القواعد المعيارية التي تتيح الاقناع أولا ثم التعبير الجيد لاحقا، و من ثم نظر الى البلاغة بوصفها عتادا بنائيا و تبليغيا يتقصد أساسا التأثير في متلقي الخطاب ، و هو ما يكشف عن البعد التداولي و المقامي للبلاغة ، اذ يمكن للبلاغة و بالرغم من طابعها المعياري أن "تصبح بلاغة وصفية ، بل أيضا بلاغة تاريخية و تأويلية تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي الشارح (للنص) انها مؤهلة في هذه الحالة ، لتكوين أسس نظرية تداولية للنص".⁽¹⁾

1 هنريش بليث : البلاغة و الاسلوبية... نحو نموذج سميائي لتحليل النص ترجمة محمد العمري أفريقيا الشرق

لقد توصل هنريش بليث الى هذا الاقناع بعد استعراضه لمقصدات البلاغة القديمة ورصده طابعها التداولي ، حيث كانت البلاغة القديمة تميز بين ثلاثة انماط من المقصدية :

- 1 **المقصدية الفكرية** : وتضم مكونا تعليميا و حاجيا و اخلاقيا.
- 2 **المقصدية العاطفية** : و تضم مكونين احدهما غائي يكون هدف الاقناع فيه خارج النص و الاخر غير غائي يكمن في احالة النص الى نفسه مما يولد المتعة الجمالية.
- 3 **مقصدية التهيج** : و تكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة التي تسيطر على الجمهور لتحقيق تهيج عاطفي وق .

- و قد ذهب هنريش بليت باقتناعه بإمكان تأسيس لنظرية تداولية انطلاقاً من البلاغة الى اقصى حدودها، باعتبارها تمثل منهجاً للفهم النصي مرجعه التأثير و عندما نفكر، وفق المفاهيم البلاغية فإننا ننظر الى النص من زاوية نظر المستمع /القارئ، و نجعله تابعا لمقصدية الا .

- و لعل دراسة الخطاب التوحيدي وفق المنهج التداولي يتأسس على فروع ثلاثة و نعني بذلك:

1 النحو و التراكيب (syntax) : وهو دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها البعض.

2 : (semantic) و هي: دراسة علاقة العلامات بالاشياء التي تؤول اليها هذه العلامات.

3 والفرع الثالث: التداولية (pragmatics) و هي دراسة علاقة العلامات بمستعملها بمؤوليتها.

و قد عمد الباحثون الى هذا المنهج ليمدهم برؤى متعددة نتيجة لقصور الدراسات الشكلية اهمالها لمقاربة اللغة في تجليها الحقيقي، اي في الاستعمال التواصلي بين الناس، و لم يكن الداعي الى تتبع الوظائف اللغوية إلا محاولة للربط بين الوظيفة و الاستعمال. الذي يخرج بالدرس اللغوي من الانكباب على الشكل البحث الى دراسة الخطاب تداوليا و من ثم لدراسة الاستراتيجيات الخطابية التي يمارس المرسل من خلالها التواصل و الانجاز في سياقات لها شروطها و لها محدداتها.

و بهذا يتضح أن وظيفة اللغة تلعب دوراً أساسياً في صبغة الدرس اللساني و في البحث لتحليل الأشكال اللغوية و تركيبها , و لهذا لا يكفي أن يكون موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم – ن وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية هي وظيفة التواصل على اطلاقه ، ولكنه كذلك في حيز كبير منه و هذا ما يجعل من الخطاب فعلاً في السياق مرتكزاً في ذلك على تداوله.

و بالرغم من أن الفهم و الافهام هما محور التخاطب في عمومه ، إلا أن ذلك لا يغطى اللغة احدى أهم وظائفها و هي وظيفة التعمية ، اذ يعتمد طرفا الخطاب على استعمالها لحجب مقاصدها ، فلا يفهم بعض الحاضرين من خطاباتهم شيئاً .

و بهذه الوظيفة اي وظيفة التعمية يتحقق التواصل اللغوي من خلال خطاب ذي لغة مؤسسة على المواضع بين طرفيه مع المحافظة على الخصوصية في القصد و سرية ا .

و يظل واضحاً ، انه مهما تتبعنا الحديث عن وظائف اللغة فإننا قد لا نظفر برؤى محددة ، و متفق عليها ، اذ ان تحديد الوظائف، يظل متأثراً بالحقل المعرفي للدارس الذي ينتمي اليه اساساً، فهاهو الاعلامي ، ايضا يرى "ان وظيفة اللغة الأساس هي وظيفة اعلامية".

لاتفاق حول إمكانية التعدد في هذه الوظائف بناء على الاختلاف في النظرة الى اللغة
فالقول باحداها او ببعضها لا يلغي الوظائف الأخرى, اذ ان المقاربة هي التي تحدد نوعها
اهميتها.

و لم يكن الداعي الى تتبع الوظائف اللغوية إلا محاولة للربط بين الوظيفة و
يخرج بالدرس اللغوي من الانكباب على الشكل البحث الى دراسة الخطاب تداوليا
لدراسة الاستراتيجيات الخطابية التي يمارس المرسل من خلالها التواصل و الانجاز في سياقات
لها شروطها و لها محدداتها.

و بهذا يتضح ان وظيفة اللغة تلعب دورا اساسيا في صيغة الدرس اللساني و في البحث لتحليل
الاشكال اللغوية و تركيبها , و لهذا لا يكفي ان يكون موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة
التواصلية للمتكلم – المخاطب , لان وظيفة اللغات الطبيعية الاساسية هي وظيفة التواصل على
اطلاقه , ولكنه كذلك في حيز كبير منه وهذا ما يجعل من الخطاب فعلا في السياق مرتكزا في
ذلك على تداوله.

- ان استعمال الانسان للغة باعتبارها احد انظمة العلامات انما لغرض تحييد قصده و تحقيق هدفه
, اي لتحقيق الافهام و الفهم بين اطرافه , من جانب و تحقيق ما يصبو اليه هو من جانب اخر .
إلا ان اهميتها , تتجاوز وظيفة نقل الخبر او وصف الواقع الى انجاز اعمال لا يستطيع الانسان
انجازها من دونها باعتبارها الشفرة الرمزية المهيمنة في العملية التواصلية , التي تخرجها من
حالة السكون , الى موقع التبادل و نعني بذلك الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج و بالتالي
يكتسب هذا الخطاب قيما رمزية تنبع من التجارب الفردية و من التضمين و الايحاء , حينئذ
يبني التواصل بين المتحدثين كونهم الممثلين الاجتماعيين على مبدأ الحوارية و تعدد الاصوات .و

يعد ابداع العلاقات الاجتماعية من الاهداف النفعية للاستعمال اللغوي فكثيرا ما تتبلو الناس من خلال انجازهم لأفعالهم اللغوية .

لقد ادرك التوحيدي خلال تجربته ان للعناصر السياقية سلطتها على المرسل , كما ان له سلطته على ما حوله , يتضح ذلك من سلطة اللغة عليه , فبعض الافعال لا ينجزها إلا باستعمال اللغة , بوصفها أدواته الرئيسية و الاهم في التفاعل مع المرسل اليه , و هذا احد اقوى الادلة على سلطتها في نظامها الصرفي و الصوتي و المعجمي و الدلالي و التركيبي لأنها اصبحت جزءا من كفاءته او قدرته اللغوية . و ذلك عند استعمال اللغة في الخطاب فاللغة سلطة تشريعية اللسان قانونها.

كما ينعكس هذا العدول على اخضاع اللغة لسلطة اخرى هي سلطة المرسل بوصفه الفاعل الرئيسي في الخطاب فالقدرة على الاذعان لقواعد اللغة و قيودها او خرقها او التلاعب بها هي كفاءة تواصلية , و عندما يستعمل المرسل الكفاءة التواصلية ليؤثر في سلوك الاخرين لينصب من نفسه الانسان المرجع في مجتمعه او ليعلي من قدره و مرتبته فإننا نتحدث عن تأثيرات تنم عن دهاء.

و يحقق المرسل هذه التأثيرات ، عبر التلاعب و استغلال القواعد و الاستثناءات و الاختيار من المواد المخزونة و بذلك فانه يشيره في خطابه الى معنى اجتماعي و يعد ما يفعله المرسل من قبيل المهارات التواصلية.

ان ازمة التواصل التي واجهت الخطاب الصوفي من خلال محاصرة ضغوط التلقي التي مورست على الخطاب ذاته ساهمت في خلق وعي للتلقي يدفع المتلقي الى سحر الرمز الاشارة و التأويل التي اهلت تلك النصوص لتكون ضمن دائرة الاتصال الادبي . و لعل كتاب "الاشارات الالهية" استطاع ان يجسد بشكل جلي كيفية تحقيق التواصل في كل مستوياته داخل النص, في حين تسد كل منافذ التواصل في وجه صاحب ذلك النص الذي تملكه الاحساس المدمر بضيق العبارة وسعة الاشارة يقول التوحيدي "لقد ضاق اللفظ و اتسع المعنى".

الاحساس بضيق العبارة قاد التوحيدي الى اشتغال واسع و متميز عليها

الجمالي تقوم على المشاركة في عملية التخاطب التي ولدت خلال عملية النشوء و التكاثر ما يسمى بـ "التحاور" تلك الفعالية الخطابية التي تقوم على التعارض كآلية أساسية ، و قد عرفها طه عبد الرحمان بقوله "هو ان يتقلب المتحاور بين العرض و الاعتراض ، منشأ لمعرفة تناظرية وفق مسالك معينة".⁽¹⁾

و قد رأى التوحيدي في اشاراته ان انجاز الفعل التخاطبي و تحقيق القصدية لابد ان يتجاوز التعبير عن التجربة الروحية الى ممارسة رؤيا معينة للعالم بما فيه ، بالوقوف عند الممارسة الخطابية التي يخترق بها الفاعل / الكاتب و عناصر هذه الممارسة في تفاعلها من اجل احداث الاثر . وهذا يعني ان القائم بفعل التماور ينشق الى ذات عار ()
اخرى معترضة(مقول لها) , الاولى تعرض و الثانية تعترض, فنقرأ في النص التماوري

1 طه عبد الرحمان في اصول الحوار و تجديد علم الكلام :المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع الرباط 1987

43

تشكيلا تعارضيا , يتكون من عملية انشاء الكلام ذاتها . فالمتكلم ما ان يشرع في النطق حتى يقاسمه الخطاب مخاطب , كما لو كان المتكلم يسمع كلامه بأذن غيره او ان غيره ينطق بلسانه كما يتجلى التعارض أيضا من خلال العلاقة التخاطبية التي تقام في النص بين متكلم و مخاطب حقيقي أو مفترض .

- ان تضمين الاخر في الخطاب هو المعطى الاساس الذي يتطلبه كل حديث بل ان المتحدث بمجرد الاعلان عن نفسه كمتكلم يكون قد وضع شخصا اخر أمامه و حدد لكلامه المقام الخطابى بين أنا و أنت .

و اللافت للنظر عند أبي حيان التوحيدي هو أن هذه السمة تحققت و في أعلى مراتبها من خلال المناجاة التي هي - ()

لذلك اعتبرها القدامى حديثا شخصيا سمي " حديث النفس " غير أننا نجدها تتحول عند التوحيدي الى حديث مونولوجي الوظيفة-

معا و كأنه أدرك أنه طبيعى أن لا شئ يمنع خطابا مونولوجيا أن يظهر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في شكل محادثة , ذلك أن الخطاب يمكن أن يكون باعتبار شكله و وظيفته حوارى الشكل و حوارى الوظيفة ، و مونولوجى الشكل حوارى الوظيفة ، و المناجاة باعتبارها يا ، افترض فيها أبو حيان وجود تبادل خطابى و ان كان المتكلم هو نفسه

المخاطب لكنه اصطنع لهما (المتكلم و المخاطب) تشكيلا تماوريا تتحكم فيه مجموعة من القوانين المرتبطة و المتداخلة كقانونى الاخبار و التأثير. و هكذا نقلت المناجاة الهم الوعظى

الاخلاقي، الى الهم المعرفي، و تحولت معه فاعليه الارسال نحو مفاهيم التجربة
و بمثابة مركبات دلالية كبرى.

و ترى الدكتورة آمنة بلعلي أن مناجاة التوحيدى و بعد الاستقرار تقوم على بنيتين هما : البنية
المؤطرة و بنية الاستدراج.

- و تعني بالبنية المؤطرة : تلك القوة الابتدائية التي تنطلق بها المناجاة ، و تؤطر في الوقت
نفسه خطابها ، حيث يبدأ الحديث و يختم بها عبر عن ذلك بقوله "اللهم انا نفتتح

4 آمنة بلعلي : تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة . منشورات الاختلاف 1 2002

96

ك , ليكون نصيبنا منك ، يحسب تفضلك ، لا بحسب استحقاتنا
، و نختم أيضا كلامنا بما بدأنا به رغبة في رحمتك لنا و تجاوزك عنا و رفقك بنا و اهدائك ما
لا ندرىه و لا نتمناه الينا " (1)

و الدعاء هو فعل الكلام الذي تجتمع فيه أفعال جزئية كالطلب بالأمر و النداء

هي وسائل تمتلك الكفاءة اللازمة التي يتم بها تحقق النشاط الخطابي و ضمان المشاركة
احداث الاثر لما يحمله الدعاء من قوة كلامية تريح المتلفظ به. لأنه فعل الكلام الذي لا يتحقق إلا
بالتلفظ به لذلك قال أبو علي الدقاق " الدعاء مفتاح الحاجة ، و هو مستروح أصحاب الفاقات و
ملجأ المضطرين و متنفس ذوي المأرب "

و لقد أدرك التوحيدى من خلال تجربته في الممارسة الخطابية أن المشروعية الخطابية لقول ما
تقاس بمدى فائدته و ليس بقدرته على الاخبار لذلك جعل من الدعاء أداة السلطة الخطابية التي
يمارسها مع الآخر.

ان فعل الدعاء لدى التوحيدى الدعامة الاساسية التي حقق بواسطتها استراتيجية التحوار
لا أدل على ذلك من تلك المخاطبة التي أخفق فيها في اقامة تفاعل بينه و بين قوم بدأ يخاطبهم
بدون دعاء " يا قوم ، مالي و ما بالي ، و ما الذي غيبيني عن حالي أما فيكم من يقابلني بوجهه و
يقابلني بما عنده من غيبه و شاهده بالحجة و الشبهة ... لعلني أرى بيمنه ما قد غيبت عنه ، و أدنو
بهديته الى ما قد بعدت عنه ؟ ... أنتم صبوحى و على خدمتكم و مودتكم وشجت عروقي ...

"(2) لكنه سرعان ما ينهي المخاطبة لتكون أقصر نص في

الإشارات و يكون الدعاء اعلانا عن اخفاق المتكلم في فرض التواصل حيث يقول " الهى لا خير في خلقك فكن لي بما أردت , فالصبر على البؤس معك أمتع من النعمة لتعرض غيرك يا ذا
" (3)

1 - الإشارات الالهية لأبي حيان التوحيدي - دار الثقافة بيروت 1982 180

2 الإشارات الالهية ص139 140

3 الإشارات الالهية ص140

ان الاخفاق في احداث التواصل داخل النص يشير الى تلك الازمة التي كان يعيشها التوحيدي مع الآخرين و التي وجد لها البديل السيميائي في باقي مخاطبات الإشارات ، و ان كنا لا نعدم فيها تلك الإشارات المباشرة و غير المباشرة للدلالة النفسية و المعرفية و الاجتماعية للأزمة.

وتبدو اشارات التوحيدي على المستوى الضمني موجهة للتوحيدي ذاته ، حيث يلعب دورين فاعلين متكلمًا و مخاطبا يعكسان جدل الذات ، ويجسدان كل الثنائيات التي يقع فيها المتصوف السالك و العارف الراجع من عين الجمع. وهي حالة خاصة لوضع نفسي و اجتماعي و معرفي نقف عليها من خلال وحدات خطابية كثيرة داخل الإشارات وتلخصها رسالة "الغريب" التي تختزل مفهوم الاعتراف بكل شموليته و اضاءاته الوجودية و المعرفية و الاجتماعية و النفسية في حياة أبي حيان التوحيدي . وقد خاطب محدثه قائلا: "خذ حديثي جملة فتفصيله باهظ ، وأقتع بالعنوان فمفوضه موحش... ان العارف و ان ترقى في سلالمة المعرفة بحقائق الحال على تبيين اهدة ليس له ان يخير إلا بعد الاذن له، و اذا ورد الاذن ليس له إلا

الجمجمة اذا قال و المهمة اذا سكت حتى يدرج فيها اليه تدرج و يعرج الى ما عنه تعرج , لذا و الله مشكلة و علة و الله معضلة" وهي دلالة على ان هذا النوع من الخطابات له وضع خاص في

نلمح في الإشارات اختيار معايير في الكتابة و سبل في التأثير البياني يستخدمها مراعيًا في ذلك قدر هذا المتقبل الذي يوجه اليه الخطاب على انه وضع معين وقدر خاص لأنه كما ذكر ابو هلال العسكري "ينبغي ان تعرف اقدار المعاني فتوازن بينها و بين أوزان المستمعين و بين

المقامات و أقدار المستمعين على أقدار الحالات"⁽²⁾ ولا شك أن الدعاء كان من الآليات التي تقطن

التوحيدي الى انها تمكنه من النفاذ الى النفس و القلب و العقل معا و تحقيق القصد من

- 1 الاشارات الالهية ص376 377
- 2 العسكري ابو هلال الحسن.كتاب الصناعتين: تحقيق مفيد قميحة ط1 دار الكتب العلمية بيروت ص81 153
- 2 اما بنية الاستدراج: فتعني تركيز التحوار على العلاقة الداخلية و الموضوعية القصدية بين مشاركة المتكلم و اخر يستحسنها و يقدرها باعتبار ان قارئ النص الادبي يهتم بالعلاقة بين المتكلم و المتلقي و كيفية تشكلها النص و كيف استطاع الكاتب ان يضمن التفاعل و استمرارية النشاط الخطابي بينه و بين مخاطبه الذي يفترضه.

لقد وظف التوحيدي بنية الاستدراج باعتمادها في مخاطباته من خلال النداء وهو فع
المخاطب و دعوته للمشاركة في الحديث عبر عنها بالتناجي و التخاطب و التحوار و كلها
مصطلحات تعكس خاصية التفاعل الذي يقتضيه تبادل الحديث بين اثنين حتى يصير الواحد منهما
الآخر يقول التوحيدي "فلعلك اذا احببت ندائي و فهمت دعائي درجت معك ،
منهجك ، فاني من حيث أناديك مجاب، و أنت من حيث تجيب منادى، فإذا التأمت الكلمة الكلمة
بالدعاء و الاجابة، صار الداعي مجيبا و المجيب داعيا،و اذا صحت هذه الاشارة كنت أنا القائل و
أنا السامع، و كنت و اياي في هذا الذكر الجامع"⁽¹⁾

ولقد أدرك التوحيدي بحطم معاشته ذلك الانتقال في السلطة الشفهية الى سلطة الكتابة أن
السماع هو بمثابة القانون الاول الذي تنبني عليه المشاركة في الخطاب بل انه في كثير من
المواقع يحدد له شروط السماع و وظيفته"و السماع و بال على السامع من لم يؤكد بما يشهد
الوجد به"⁽²⁾ و مرة أخرى يقول له"غب عن سماع قولي بمسموعه, فلعلي أيضا أغيب عن قولي
بحقيقة مقولي, فان قلت لي لو بدأت في قولك بالتحقيق لحصلت في سماعي على التصديق كان لك
"⁽³⁾

ان الاستماع في نظر التوحيدي لا يؤدي فقط دور طلب المشاركة في الحديث بل يحل اشكالا لا
يحصل أثناء المخاطبة و هو عدم التجاوب الذي يلاقه من مخاطبة وخشية توقف الفعل التواصل
بعد خنوته أو أن يوهم بتجاوب قد وقع.

لذا يبدأ المتكلم في استدراجه للمخاطب يتقدم عروض مختلفة لإنشاء الحديث تحمل في طياتها توقع قابلية حصول التفاعل, نظرا للإغراءات التي يقدمها بحصول الفائدة النفسية خاص , الرغم من أنه يضع شروطا للتواصل حيث لا يرغب في أن يكون الحديث

1 الاشارات الالهية ص120

2 الاشارات الالهية ص349

3 الاشارات الالهية ص435 4 5/ 155 231

الذي ينشئه قائما على التنافس و اثاره الغلبة من موقع استعلائي, انما على اتيان الفائدة التي تظهر آثارها في النفس و الهيئة كالبشر و التأثر و الفهم و القبول بالنسبة للمخاطب و قوة الاقناع و الامتاع و هذه نماذج من العروض كقوله "اسمع يا هذا بدعا من الكلام و غريبا من المعاني, فاني أقول لاجت بوارق التمني فسمت نحوها نواظر الافتقار، و تهيأت صور المعنى فتقطعت عليها أكب (4)

فأستعمل الرفق حتى يخف على امثاله و اذا نهتني عن شئ فلا طفني حتى يتسارع استعماله, وصف لي أيضا من حالك ما اكون بمعرفته من شريكك" (5).

يطرحه التوحيدي يخلق تقلبا في المواقف إلا أننا نجده مصرا على التواصل الخطابى يتجلى ذلك أنه كلما طرح فيها انهاء الخطاب يبادر الى فرضيات خطابية جديدة يفتح من خلالها آفاقا للفعل

لقد سمحت بنية الاستدراج للمتكلم و المخاطب بتعدد المواقف الخطابية و تعدد ذواتهم و تداخلها و

- ان الاقناع بالحجة يبدو في الاشارات بمثابة القانون الالزامى الذي يحدث التفاعل به هو لا يرتبط بالاكره أو الاحراج و لا يقصد به ما يضر بأحد المتخاطبين لأن ذلك من المهاترة التي لا تخلق آليات لفرض وضع القبول كما هو الشأن في الاشاء يقول " من المهاترة و المناظرة و المذاكرة ، فأما المهاترة فباب ينشأ من التنافس و ايثار الغلبة ، و أما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة كالرأى المعروف على العقول المختلفة ، الى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق و أما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة المنافسة و قد توجد بها الفائدة و هي كالفاكهة بين العلماء " (1)

ان هذا الوعي المنهجي للتخاطب يجسد صورة أخرى لاشتغال المتصوفة الذي يمزج بين القلب و العقل كما أنه يؤكد تأثر التوحيدي بأساليب الاشتغال المنهجي عند المعتزلة يضاف اليه أن الفعل

التواصل في المخاطبات يقتضي مثل هذه الصياغة ذلك " أن كل نظرية للفعل التواصلية تخفي وراءها نظرية في البرهنة هي عبارة عن صياغة شكل عقلائي للغة " (2)

1 107.
2 - / 46 -
بيروت 1987 11

- و الملاحظ أن الممارسة الخطابية في مناجاة التوحيد من بدايتها حددها قصد خطابي يتجلى من خلال الدعاء كبنية مؤطرة تقترن بجلب مبدأ الفائدة للمتكلم و المخاطب على السواء. هو اخر وسيلة تستعمل لتحقيق حاجة ما فانه عند التوحيد اضافة الى ذلك هو نقطة للتقاطع بين العبادة و العبارة، اما الحال فإنها ترتب الانسان في محل السائلين و اما الحقيقة فإنها تروح عن قلوب الصادقين. و اما الوجد فانه يستخرج عين اليقين، اما الاستكانة فإنها تهون على ما يبدو على صاحبها السكين، وأما العبادة فإنها تؤدي حق التكليف، و اما العبارة فإنها تقف صاحبها على مدرجة المتلطفين المترفين (1).

ويبدو التوحيدي في أغلب المخاطبات ملتزما بالحجة قولا و انجازا يطالب بها الطرف الآخر باعتبارها قانونا للممارسة الخطابية التي تحفظ فيها حقوق المتخاطبين و واجباتهم التي لا تخرج عن المعيار المنطقي و الخلق في الوقت نفسه الذي أساسه الصدق في القول و جلب المنفعة للأخر يقول التوحيدي في هذا المعنى "ان القول حجة على القائل ما لم يؤيده بما يحققه" (2)

لقد تمكن التوحيدي بما يمتلكه من معطيات معرفية و قدرات لغوية تحليلية في استنباط العلل و شرح الظواهر الفكرية المختلفة وفق أساليب فيها من القدرة على الاقتناع و التأثير ما يكسب خطابه نوعا من الشمولية التي يعطي فيها المتكلم المعارف اللازمة للمخاطب وذلك بوساطة الشرح الذي هو "زيادة عن كونه نشاطا معرفيا و نتاجا للمعرفة و موضوعا للفكر له قواعده منطقته الداخلي فهو نشاط ابعاده عن النشاط اللغوي: انه أسلوب عقلائي للحديث عن التجربة كما تبدو أهميته بالنسبة للمحاجة.

- لقد كشفت لنا الاشارات الالهية عن مستوى دلالي أكبر و أشمل و هو فعل السؤل

يمارسه التوحيدى و يعكس هاجس ثقافة السؤال و هاجس اللغة التى بها الحوار و بها و بها الجواب و هذا الهم الأكبر الذى هو الهاجس التواصلى فى كنف مناقضته بحكم (3) فكأن كل المحاورات هى محاكمة للذات و فى الوقت ذاته دعوة الى ادراك الذات وهى بداية المعرفة لأن فعل السؤال هو جوهر الفعل المعرفى داخل ثقافة كان يعيش آثارها المتجلىة فى أزمة التواصل مع الغير الذى أراد أن يعلمهم ثقافة السؤال التى تراهن على حد تعبير الدكتور المسدي "على الحيرة و تراهن على اخصابها بواسطة الشك المنهجى قبل أن يتخلق الشك المنهجى و لعل الذى حصل لأبى حيان أنه أراد أن يزرع فى شك فى المسلمات فإذا بهم يشرعون بتطبيق الشك عليه فأسقطوا عنه يقينهم به، فتسلط الشك على سلم القيم و رفع السؤال على غير مراتبهم" (4) وفعل السؤال الذى شكل دليل وحدة الاشارات هو تعبير عن رؤية و موقف عام من خلل عام كان قد عم القرن الرابع حيث كان مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين: أهل السنة و الشيعة... وكان الخلاف قائما

لقد حملت أقوال المتكلم معاناة عامة هى أزمة التواصل التى حاول أن يجد لها بديلا سيميائيا من خلال استراتيجية التحاور التى أقامها على التشكيل التعارضى تبادلتها الأنا و الأنت. ولأن كان التوحيدى حتى وهو يكتب خارج الثقافة الرسمية مثلما يشير الى ذلك عنوان الإشارات الأهلية"لم يجد حرجا فى أن يتعامل مع مقولات البلاغة الرسمية لأنه على رأى المسدي"كان ينشد من وراء الكتابة البلاغية مصاهرة الخطاب الرسمى فكان لذلك يغازل مقولاته، فلما كبا جواد سيزيف عمد إلى إحراق كتبه" (1) لقد تملك هاجس السؤال أبا حيان التوحيدى وعرفنا كيف احتك فعل الثقافة و العقل معا مع هذا الهاجس لينتجا مع هاجس اللغة البديل الخطابى الذى افتعل فيه ذاتا بديلة يحاورها بعد انفصام العلاقة بالواقع و فى صلب هذا القمع الرسمى شيد

التوحيدي إشاراته الالهية لعلو مصدرها وهي دلالة سيميائية على أزمة التواصل التي عاشها التوحيدي في رحلة بحثه عن الحقيقية خارج الواقع.

1 - التوحيدي و سؤال اللغة ص154

التحليل الدلالي و التركيبي:

1- **أبنية الرسائل:** يتداخل في الإشارات الإلهية نسان:

1- **النص الأول:** يتوجه فيه الكاتب بالخطاب إلى الله أطلقنا عليه -
"مناجات" بحسب تعبير التوحيدي.⁽¹⁾

2- **النص الثاني:** مقصد الخطاب فيه إنسان يتنوع و يتغير من رسالة إلى أخرى أو داخل الرسالة الواحدة فهو تارة مريد يسعى إلى المعرفة و يتقبل النصح و الإرشاد و هو قطب كبير أو جماعة من المتصوفة يشناق إليهم التوحيدي فيشكو إليهم حاله أو يطلب منهم العون و أطلقنا على هذا المصطلح "خطاب" و كثيرا ما يعمد التوحيدي إلى نوع من المراوحة بين النصين فيتداخلان جاة أحيانا و بالخطاب أحيانا أخرى . إلا أن التوحيدي يلتزم بأن ينشئ رسائله إنشاء يستجيب الى ترتيب معين يكون فيه البدء بالدعاء (المناجاة) لتنتهي الرسالة بما بدئت به و في ذلك يقول التوحيدي "نفتتح كلامنا بذكرك (وهو يخاطب الله) و دعائك استعطافا لك ليكون نصيبنا بدأنا به رغبة في رحمتك لنا و تجاوزك عنا و رفقك بنا"⁽²⁾

- بهذا الكلام يلزم التوحيدي نفسه باتباع شكل معين في كل رسالة , ومن البدء يمكن أن

:

النموذج الأول: ويتكون من عناصر رئيسية ثلاثة : الخطاب وهو العنصر الأول و يتوسط

عنصرين آخرين يتمثلان في مناجاة اولى تتصدر الرسالة و مناجاة ثانية تختتمها . وفي هذا الضرب من الرسائل تكون المناجاة عنصر استقطاب يشد الكلام من طرفية إلا ان هذا النموذج لهية فهو لا يتجاوز تسعة عشر رسالة يضاف اليها بعض

الرسائل التي و إن لم تبدأ بالمناجاة فهي قد بدئت ب"ذكر الله ودعائه" أو بشكل مختلف كالقرآن أو البسملة أو الحمد له. وإذا كان التوحيدي قد اتخذ من هذا النموذج نظاما

-
- 1 الإشارات الالهية ص210
 - 2 الاشارات الالهية 130

في رسائله فانه قد خرقه في بقية الرسائل مما ولد نماذج أخرى .

النموذج الثاني:

في هذا النموذج من الرسائل يسقط الكاتب أحد طرفي الاستقطاب (المناجاة) في بداية الرسالة مستهلا كلامه مباشرة اما بمخاطبة الإنسان أو بافتتاحه بمجموعة من الحكم التأملات وعددها 24 .

النموذج الثالث:

ويتسم هذا النموذج بشكل خاص بحذف المناجاة في بداية الكلام و نهايته و حذف المناجاة بداية الرسالة و نهايتها لا يعني – بالضرورة إلغاء المناجاة داخل الخطاب الموجه الى الانسان ، بعبارة أوجز لا يلتزم التوحيدى بما التزم به من ضرورة بداية رسالته"بذكر الله" على حد تعبيره وهي ثلاثة رسائل.

النموذج الرابع:

و تبدأ فيه الرسالة بالمناجاة لتتغلق فجأة دون مناجاة و عددها أربعة عشر رسالة. والملاحظ أن النماذج الأربعة الأولى لا تخلو مطلقا من المناجاة فان حذفت من بداية الر أو في آخرها فقد تتخللها مناجاة داخل الخطاب .

النموذج الخامس:

و يمثل هذا النموذج مبدأ الخروج المطلق عن القاعدة التي التزمها التوحيدى اذ تخلو بعض رسائله ، خلوا تماما من المناجاة سواء في البداية أو النهاية أو في ثنايا الخطاب ، لتي تندرج ضمن هذا النموذج ثلاثة حيث ينحصر موضوعها في مخاطبة الإنسان وتخلو كليا من المناجاة .

لقد عمد التوحيدى في كتاب الاشارات الى ادماج نصوص متنوعة المصادر و المداليل فدخلت النسيج العام للرسائل وقد تبناها الكتاب و عدت معبرة عن مواقفه وهي تنقسم الى قسمي .

- **قسم نثري:** ويضم القرآن و الحديث و الأمثال و شيئا من النصوص المقدسة القديمة (كالإنجيل مثلا)⁽¹⁾
- **قسم شعري:** وهو متنوع جدا.

النصوص النثرية: تخترق هذه النصوص الرسائل و تنبئ القارئ بسعة اطلاع التوحيدي قدرته على الحفظ و تتراوح من الآية الواحدة لكي لا تتجاوز آيتين على أقصى تقدير⁽²⁾. أما اذا كان الامر متعلقا بحديث أو مثل فان التوحيدي يجنح عادة إلى الإشارة دون إثبات المثل أو الحديث برمته⁽³⁾

وتمثل هذه النصوص آلية نفسية يركن إليها التوحيدي فهي الجذور و المعين و الأصول الأم التي يستلهمها و يجد عبرها معوضا عن عزلته و إحساسه بالقطيعة و التواصل مع محيطه أو يتخذها وسيلة لتأكيد آرائه وأفكاره.

النصوص الشعرية: تمثل النصوص الشعرية نسبة كبيرة في الكتاب تتجاوز النصوص النثرية المدرجة وهي أغلبها ذات طابع زهدي تأملي.

وأغلب هذه النصوص لأبي العتاهية ربما لما بينهما من وشائج قرى في الأوضاع والرؤى فأبو العتاهي مر بمرحلة مجون توجهها بالزهد ، وأبو حيان التوحيدي أحب الحياة و تعلق بها ورام المجد لكنه فشل فأنقطع الى الزهد .

فكلاهما فشل فعوض هذا الفشل بالارتقاء في أحضان الغيب ولهذا السبب نجد الإشارات الالهية تتوج بقصيد لأبي العتاهية نفسه في ذم الدنيا و التنبيه الى مخاطرها حتى لكان التوحيدي يبحث نفسيا عن يقاسمه وحدته و يشعره بأنه ليس المحروم الوحيد.

1	الإشارات الإلهية ص 175 الهامش رقم 4
2	الإشارات الإلهية ص 369
3	363

و هكذا تتساقق القصيدة ضمن الإطار العام 65.
إلا ان بعض النصوص الشعرية تبدو كالنشاز في النص فالكاتب في التصوف و لابد أن تكون كل مكوناته متنسقة مع سياقه العام , فمن الغرابة أن نجد التوحيدي يستشهد أحيانا بما لا يشهد له , فيدمج شعرا غزليا (1) يبدو -
- شديد التكلف منفصلا تمام الانفصال عن جو

و مما يستنتج أن الخطاب الموجه الى الإنسان يشكل كثافة و يسيطر سيطرة تامة على الرسالة . فغاية الرسائل في الإشارات الإلهية و هدفها الرئيسي إنما هو الإنسان و ما الله إلا (وسيلة و أداة للإقناع) . أفلا تصبح المناجاة و هي على هذا النحو، موضوع ، عرضيا؟ تجعل من التوحيدي عاجزا عن إدارة ظهره لقضايا الإنسان ؟

و بناء على هذا فان " الإشارات " تستحيل إلى ومضات و إحياءات هدفها إنقاذ الإنسان لتأسيس صورة جديدة له صورة بديلة تحلل قيما بديلة عن القيم المتدهورة أو بحسب تعبير الأستاذ **توفيق بكار** يرسم قيما منشودة بديلا عن قيم موجودة .

إن استنتاج الرسائل يبين أن هيكلها لم يأت على سبيل الصدفة المحض ، إنما يرضخ إلى دوافع و أسباب يمكن أن نصنفها و نفرعها الى فرعين رئيسيين :

1 أسباب نفسية: وفي رأس هذه الأسباب تتصدر محنة التوحيدي في عجزه عن الهروب الكلي من الإنسان. فهو مازال رغم فشله ملتصقا بالإنسان معبرا عن مشاكله. وليس هذا الاهتمام - - إلا دليلا على التعلق بالحياة و الإيمان بضرورة المساهمة دوما في إصلاحها مادام الأديب أدبيا والأدب أ .

ولعل هذا الإيمان بالإنسان و إمكانية إصلاحه لا يمكن أن يتجسم عمليا إلا في "امتلاك النفوس (1) و ذلك بنشر أدب صوفي يتقابل - -

المجتمع الصارخة سياسيا و اجتماعيا و فكريا و عقائديا.

2 **أسباب فنية:** حيث يتجلى التفاوت بين طبيعتي الخطاب في الرسالة (المناجاة – الانسان) اذ تختفي المناجاة احيانا او تكاد . و لعل التسامح في اهمال المناجاة في بداية الرسائل يعود في اعتقادنا الى:

1 **طبيعة المخاطب:** الذي وجهت اليه الرسالة فهو اما قطب صوفي يمثل المعلم المرشد بالنسبة الى التوحيدي او الى مجموعة من الصوفية . و لعل السبب في إهمال المناجاة عند توجيه الكلام الى هذا أولئك يعود الى اعتقاد التوحيدي أنها ثانوية او لم تعد لها اهمية فالتواصل قائم بين مثقفين ليسوا في حاجة الى حافز ديني يلهمهم و يدفعهم او يثير فيهم الإحساس بجلال الخالق تمهيدا للتلقين و التوجيه مثلما هو الحال عندما يكون الخطاب موجها إلى مرید صغير في اولى خطوات التصوف كم هو في حاجة الى مناجاة تذكره بضعفه امام الله.

و فعلا يتولد لدينا الاعتقاد بان التوحيدي يعتمد الى الحذف و الزيادة عن وعي ما وجدناه من تشابه كلي بين رسالتين وردتا في الجزء الاول:

07⁽²⁾ موجهة الى قطب صوفي.

الثانية رقم 25⁽³⁾ موجهة الى مرید.

اذ تبدأ الاولى مباشرة بمخاطبة الانسان في حين تستهل الثانية بالمناجاة مما يدل على ان الكاتب يغير الشكل اي بنية الرسالة بحسب المخاطب.

1 المركز الثقافي العربي بيروت لبنان 1991 232 :

2 الاشارات الالهية ص 47 50

3 المصدر نفسه ص 173 171

- تبدو المناجاة في اخر المطاف عنصرا تقنيا ثانويا يحضر و يغيب بينما يثبت الخطاب مكانه .

:

1 مجرد شكل يلعب دور التطريز الداخلي مثل اثر الأصوات المتداخلة في الموسيقى مما يضيف على الرسالة رونقا و جمالا و موسيقية داخلية .

2 عنصرا مهدئا يحقق للتوحيدي - هدوءه فتكون المناجاة بمثابة

الانغلاق الهادئ فهو يقول " اللهم اصرف عنا الشيطان و تغويله , و الباطل و تعليله" (1) و يقول

في موطن آخر " اللهم لا تأخذني بإقبالي على خلقك و بمسألتي اياهم على ما هو عتيد عندك" (2)

إن بناء الرسائل يفصح عن شخصية التوحيدي الممزقة بين الرغبة في البعد عن الدنيا بالتزهد

ف و الرغبة الملحة في ان يستفز الانسان و يثير فيه التساؤل و يدفعه الى اصلاح نفسه و

محيطه الاجتماعي .

و انطلاقا من هذا التصور تتدرج الاشارات الالهية ضمن الادب المستفز ، أدب يشك من أجل

اعادة البناء , ادب يطرح المسألة و يحيى في القارئ قضية.

المستوى التركيبي:

لا يمكن في هذا القسم من الدراسة الاتيان على كل خصائص الأبنية اللغوية في الاشارات بل

قصارى ما نود القيام به هو الوقوف على أهم مميزات الابنية التركيبية المتواترة و القائمة على

عناصر ثابتة تكاد بتكرارها و الحاح المؤلف عليها تكون ميزة الكاتب .

وهذا البني هي ترتيبيا :

-

-

- الجملة : لن نتناول الجملة تناولا وصفيا فقط وإنما نسعى الى النظر فيها اذا كانت تحمل

دلالة و معنى في بنيتها .

1 الاشارات الالهية ص 72

2 77

الجملة الفعلية: 1

- البسيطة: وهي من حيث كثافتها قصيرة و طويلة:

- القصيرة:

, ت و غششت , بعت واشتريت , فإذا بالجمال في تقابلها ورغم قصرها تمتص احساسه بالاضطراب و تغدو المعبر عن تقبله وحالة ضياعه و تمزقه بين الشئ و نقيضه.

- **الطويلة** : وهي الجملة البسيطة التي تجاوزت حدود عناصرها الأصلية الى المتممات فتراكمت و تكثفت عناصرها بواسطة العطف و دلالتها :

- العناية بالمتممات .

● **النعته**:

- **نموذج**: يقول التوحيدي " أفدي هذه الفنون المستخرجة من هذا المعنى المصوع"(2) تتركب هذه الجملة من : فعل+فاعل+مفعول به

+ +

ثل لنقطة الاستقطاب كما نرى هو النعت الذي قام بدور الافصاح لمعنى (- المعنى) بحيث يغدو النعت أداة يستقصي المعنى و تحلله أو تزيده اعرابا .

106 1

114 2

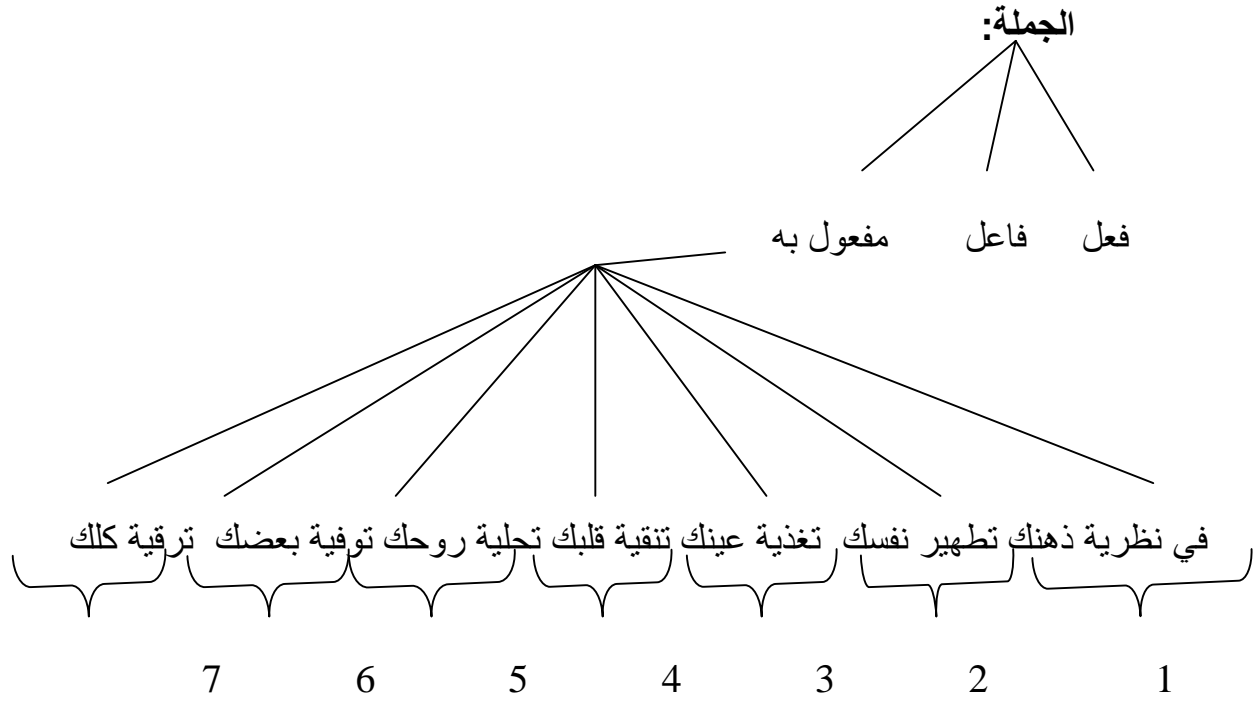
● **الحال** : وقد يكون الحال محل اهتمام الكاتب كقوله " جرد عزيمتك في نظرية ذهنك و تطهير نفسك و تغذية عينك و تنقية قلبك و تحلية روحك و توفية بعضك وترقية كلك"(1).

وتتكون هذه الجملة من:فعل : جرد

(=) :

مفعول به : عزيمتك

حال عطفت عليه أحوال أخرى



ولعل قيمة هذه الجملة تعبيريا تكمن في تفرعها لا عن عنصر أصلي بل عن متمم بحيث يصير انتباه القارئ مسلطا على الاحوال المتعاقبة الموضحة لكيفية تجريد العزيمة فتغدو الاحوال هادئة

وتتجلى قدرة التوحيدي في الايحاء و الاشارة توحيه مبنى يكاد يكون كالأزمة تظه
تتمثل في عنايته بالرقم (7).

هندسة الجملة :

● **البناء الدائري :** يميل التوحيدي أحيانا الى صياغة الجملة في شكل هندسي طريف . فهي أحيانا دائرة ينطلق فيها القارئ من نقطة ليعود اليها و يظهر ذلك في قوله :

" ة و الايماء الذي في الايحاء و الايحاء الذي في الانباء

الانباء الذي في الاغراء و الاغراء الذي في الاسراء و الاسراء الذي في الايفاء و الايفاء الذي في

الايراء و الايراء الذي في الاشفاء و الاشفاء الذي في الاغفاء و الاغفاء الذي في الالفاء" (1)

ان هذه الجملة تستمد جماليتها من بنائها . هذا البناء الذي ابتداء من عنصر بسيط لينتهي الى

عناصر أخرى فيبقى اهتمام القارئ منصبا على الجزئيات المعطوفة بعضها على بعض (مفعول

به معطوف على آخر الى آخر الجملة). واذا نظرنا الى هذه الجملة وجدناها تتكون من مجموعتين :



❖ الايمان الذي في الاحياء ...الالفاء

- تبدو المجموعة الاولى مستقلة عن عناصر المجموعة الثانية .
- المجموعة الاولى مركزها إشارة : معنى باطني أداته عبارة أي لفظ.
- المجموعة الثانية مركزها الإيماء : الإشارة و محيطها الالفاء (النظر) بصري و ذهني.

في هذه الجملة دوائر متداخلة تحيل الواحدة منها على الأخرى و هذه على تلك بحيث تصير قراءة النص عبارة عمل رياضي مجرد فيه تكتمل كل دائرة و تتم في معناها بما يحف بها من

اننا امام غرابة و غموض يحيلان على الإغراب , و بتعبير آخر نحن أمام عالم لغوي يغيب فيه المرجع الحسي كما الانسان في تأمله في الكون : " ثم أرجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير "(2).

فالجمله في تركيبها , كأنها تشبه بناء الكون وقد ركب من دوائر تمتد و تمتد فيحار أمامها الإنسان أو نحن بإزاء مركز هو (الله) تنبثق عنه بقية الدوائر الأخ .

1 الاشارات الالهية ص61

2 سورة الملك الآية 4

وبالإضافة الى هدف هذا التركيب الجمالي ومدلوله النفسي الذي قد يعبر عن نفس راغبة في الانغلاق , وتعذيب الآخر في نحت الكلمة و التطهير عبرها , فقد نرى في هذا البناء كذلك تجسيما هندسيا ل :

- رغبة التوحيدي في تجنب المبالغة .
- تصور عقائدي: لعله يعكس بذلك نظرية الفيض الصوفية.

ب المركبة:

- الدائرية : "يقول التوحيدي: أتدري ما الذي وجدت فيها ممن أوجد كل واحد ما وجد"(1)
- هذه الجملة تنبني على التداخل : فعل + فاعل + مفعول به (جملة موصولة) + تراكيب جزئية .
ويقوم حرف الجر (فيج) (- من) بدور كبير في اشعار القارئ بدائرية الجملة، فعبارة "الذي وجدت" تنزل منزلة المركز الذي تتولد عنه بقية الدوائر الأخرى.

اننا في هذه الجملة بإزاء تركيب أثير لدى التوحيدي في الاشارات، اذ ينزع الى التحليق بالقارئ فلا يسمى له الأشياء بأسمائها فيشير ولا يباشر ويلمح ولا يصرح. ففي الجملة لم يذكر الواجد وإنما اوحى اليه وأشار حثا للقارئ على أعمال العقل والإحساس ليبلغ (ربما) الواجد اي الله.

الفضاء لتؤلف جوا بديعا جميلا يدرك القارئ عبره قدرة التوحيدي على النحت والتركيب والبناء فتغدو الجملة متنفسا لهمومه وآلامه وتمتص شعوره بالقطيعة المادية التي يعيشها فينفى في جملته فناء لذيدا.

- الجملة الاسمية:

وتشترك الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية في بعض الخصائص مثل البناء الدائري والتراكيب

- **البسيطة :** وهي عادية ونعني بذلك الجملة التي لم تخرج من الاستعمال المألوف مقارنة ببعض الأبنية التي أختص بها التوحيدي : ومن أمثلة هذه الجمل

1 رجل ضعيف 3 عطش قديم (2)

2 الطمع خلق خبيث 4 القدر طالب حثيث (3)

1 113

2 213

3 333

ان هذه الجمل وعلى الترتيب تتكون من الحد الأدنى مسند ومسند اليه وهذا النوع من الجمل- على اقتضابه- يخبر عن حالة نفسية , معنى ذلك أن جملة التوحيدي مشحونة الدلالة حتى ولو كانت قصيرة جدا. أما الثانية فتتكون فيه الجملة من مبتدأ ورد لفظا واحدا وخبرا ورد تركيبا جزئيا لكن اللافت للانتباه في هذه الجمل القصيرة من هذا النوع أنها بالرغم من طابعها الحكمي الجاف تصطبغ بشيء من الجمال تضيفه القافية(ت خ). أما المثال الرابع فوردت فيه الجملة في أسلوب قصير غايته التأكيد و ابراز الخبر أو المقصور عليه .

- كما نجد الجملة الشرطية التلازمية تنبني على طرفين لا يتحقق الثاني إلا بتحقق الاول وهي تذكر عادة بأسلوب المنطقة في القياس و الاقتناع .

- أزمنة الأفعال و دلالتها :

تنقسم أزمنة الأفعال في العربية الى : ماض و مضارع و أمر إلا ان معاني هذه الأزمنة ليست ثابتة بل تتغير مدلولها بحسب السياق الذي وردت فيه .

● **الماضي:** في دلالاته الاصلية : معبر على لحظة مر عليها الزمن و ذلك كقوله "قد كان قوم أناخوا عندك و سألوك الرحيل و قدموا لك راحتهم و وعدوك ان يبلغوك غايتهم"(1) و هذا الماضي يشكل خلفية التوحيدي النفسية و احساسه بالقطيعة مع:

- محيطه فيغدوا كأنه يقف على أطلال فيتمتع بتذكرها متنفسا و معوضا لحالة الحرمان التي يعيشها.

- الدال على المستقبل : وهي الافعال الواردة في قوله "أنار الله صدرك"(2) .

- الدال على حاضر: "ههنا زلقت أقدام المتكلمين تحت أعلام المتحذلقين لأنهم سعوا في آياته متعاجزين"(3)

● **المضارع:** حاضر أليم "أقدح بزند مصلد و أنفخ في غير فحم , و أنادي من ليس بحاضر و أنصح من ليس بعاقل و أجيب من ليس يعقل" (4) .

42 1

123 2

111 3

139 4

ان الناظر في أزمنة الافعال يفضي الى تبين ان التوحيدي مزق في حقيقة بين زمنين:

- ماضي سعيد يتمنى عودته .

- مستقبل يرجو تحققه (الدعاء, الامر , النهي ...).

- و بهذا فالأزمنة مقسمة بين ماض مفقود ، حاضر مرفوض و مستقبل منشود .

فتكون الحصيلة ان التوحيدي لا يعيش عصره الا عبر الاحتجاج و الرفض ولا تربطه ه الا الاشارات يوجهها الى الناس ليرتدعوا و يصلحوا أخطاءهم .

الاستنتاجات:

- خلافا لما يذهب اليه بعض النقاد (1) فان الجملة في الاشارات الالهية ليست قصيرة بل

تنحو في أغلب الأحيان منحى الطول و التعقد لتستغرق في بعض المواطن فقرة بأكملها.

- وقد تتشابه هذه الجمل و لكنها لا تتكرر و انما التكرار يكمن في اصرار التوحيدي على

أبنية أثيرة لديه تحمل دلالات و اشارات مثل البناء الدائري أو الانتشار السباعي .

و كأنه بذلك يجهد نفسه في البحث عن الجدة و الطرافة فإذا هو نزاعة الى الغريب "لطف النجوى معك و شريف العبارة و غريب الاشارة نحوك"⁽²⁾ .

و من ميزات هذه الجملة ميلها الى التفرع لتكون أداة معبرة عن محاولة للتنفس فهي المتحركة تضج حياة و جمالا تقابل قبح المأساة التي يعانها .
و من هذه الزاوية تكون الجملة كالمهابة و السلوى فطالما يعاني من الفراغ و الوحدة فلتطل الجملة و ليكن الحرف غايته و منتهاه ، يفرغ فيه شحنه غضبه فهو قد فشل في تحقيق الخطوة لدى رجال السياسة و هو الفاقد للأسرة و الروابط الدموية (لم يتزوج) و هذه الجملة غامضة منطوية على ذاتها ، تعبر عن رفض في الانفتاح ، تدفع الآخر (القارئ) الى التأمل و التمحيص و تخرجه من سلبيته و كأنها تتحداه ،

-
- 1 محمد عبد الغني الشيخ:أبو حيان التوحيدي, الدا العربية للكتاب ج2 333 – 1988
2 الاشارات الالهية ص267

فتعبر عن نزعة اثبات الذات و تأكيد فحولة و في غموضها تتعارض اللغة اليومية المباشرة (الادب السائد) (المقامة و ادب الترسل التقليدي) . وتتسم الى جانب غموضها بأنها تنطوي على افعال تنبئ ازمته عن أزمة بين الكاتب و محيطه .

ان دارس الاشارات الالهية يدرك من اول قراءة غزارة المعجم و ثراه و تباينه في التعبير عن شتى المواقف و الاحوال ، ولا بد من الاعتراف بان ولوج عالم الكلمة لدى التوحيدي يمثل مغامرة ، فالنص ليس كبقية النصوص المتعارف عليها في الادب ا الكلامية و الاجتماعية و الساسية او المدونات اللغوية و الشعرية حيث مضمون الخطاب يتصدر الاهمية الاولى ، فاللغة في هذه الكتابات اداة تبليغ ، بينما تنحو نصوص المتصوفة نحو اخر فهي الغاز و غموض على غير اللغة العادية و المتعارف عليها .ولا تمثل مدونة التوحيدي شذوذا عن هذه القاعدة ، فمن البدء تعلن عن انتمائها الى صنف الادب "الرمزي" فهي اشارات اي تلميحات و ايماءات "هذا رمز وراءه رمز و اشارة فوقها اشارة و عبارة فوقها عبارة و لكن التقني ملجم"⁽¹⁾ . ونتيجة للإغلاق المقصود في الاشارات الالهية فان الدارس لا

يسعه الا ان يحاول خرق جدار الرموز بكل كثافتها لبلوغ عالم التوحيدي و مواقفه إزاء الحياة و الانسان و لتبين مدى تطور فكره و من ثمة نستطيع ادراك تركيبية الرجل النفسية لما فيها من عقد

المستوى البلاغي:

يستدعي المستوى البلاغي في الاشارات الالهية لوحده دراسة مستقلة بالنظر الى عمقه و تعقده و كثافته . إلا أنني اكتفيت ببعض الظواهر البلاغية التي بدت لنا مميزة في هذا الكتاب و أعني بهذه الظواهر:

- 1 - علم المعاني : دراسة مظهرين من الاساليب الانشائية (الاستفهام)
- 2 - لم البديع : نفتصر في دراسته على مظهرين :
- السجع باعتباره حركة صوتية .
- البناء التقابلي (الطباق و المقابلة) باعتباره يؤلف حركة ذهنية

❖ علم المعاني :

إن السبب في اختيار الاساليب الانشائية دون الاساليب الخبرية مرده الى أن الاساليب الانشائية بكثافتها و سيطرتها هي التي فرضت هذا الاختيار .

اذ أن المحلل الأسلوبي كما يقول الاستاذ محمد الهادي طرابلسي " همه من وظيفية الظاهرة اللغوية أولاً ما يرجع الى الطاقة الايحائية الخاصة التي تكون لها في السياق المعين ، و التي من شأنها أن تبرز انطباعاً سبق حصوله في النفس عند مباشرة النص فتخرج بما ينطبع في النفس هكذا من باب الانطباعات الذاتية الى باب التقديرات العلمية " (1)

- و اعتمدنا في الترتيب لهذه الاساليب مبدأ الاهمية و الكثافة بما يخدم الغرض و يفيد في معرفة النص و الولوج الى باطنه .

❖ الاستفهام:

يعد الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجاً ، و هو ما يتوسل به الكثير في فعلهم اذ أن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما اذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الاقرار بجواب ما ، كما يمكن أن يلطف

السؤال بين الطرفين من اختلاف اذا كان المخاطب يميل الى الاقرار بجواب غير جواب

و يشكل الاستفهام احدى الظواهر البارزة في المدونة و يكاد الكتاب يكون سؤالاً كبيراً يتوجه

به التوحيدي الى الانسان و الله

1 مقال : في منهجية الدراسة الاسلوبية عن اللسانيات في اللغة العربية - الجامعة التونسية - م الثقافية نوفمبر

1981 217

فإذا ما تصفح القارئ أي رسالة من الرسائل فإنه يجد نفسه أمام كم هائل من الاستفهامات

(1)

و من البديهي أن هناك سيطرة لبعض المعاني دون الأخرى سنوردها مرتبة بحسب كثافتها في

الاستفهام المعبر عن الحيرة : و هو استفهام يعبر به صاحبه عن قلق و تردد فكريتين و ترد فيه

عادة جملة من الامكانيات تتوزع ذهن المتكلم و هذا اللون من الاستفهام يتوفر بكثرة في المدونة

مقارنة مع غيره يقول التوحيدي : هذا نبأ غريب استنبط من الغيب المكتوب و الستر المخزون

فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين فأين يجده القلب؟⁽²⁾ و يقول في موضع آخر " فكيف

و هو ينادي صارخاً بصحة الولاء و شدة الوفاء و متابعة الدعاء؟ ما أصنع و القلب منظر؟"⁽³⁾

ان هذه الاستفهامات تعكس حيرة الانسان أمام القضايا الماورائية يوردها التوحيدي هكذا دون

فغاية الكاتب لا تتأسس على مبدأ البحث عن يقين بقدر ما تتأسس على محاولة خلق حالة نفسية

حائرة لدى القارئ فينبري - معه - باحثاً في ذاته و محيطه عن مواطن الخلل فيصلحها.

الاستفهام المعبر عن الاثبات : و هو استفهام غايته حمل السامع على الاقرار و من خصائصه

أن يكون الكلام منفياً فيخرج المعنى من الاستخبار الى التقرير ، و يأتي في

الدرجة الثانية و غايته تعليمية واضحة اذ ينبني على نفي النفي "أليس في جملة هذه النعم انف

"(4)

149	147	22	1
		6	2
		16	3
		11	4

كما في قوله "اما ترى تناثري في كلامي؟ و ترجحي في مقامي" (1).

ان هذا الضرب من الاستفهام يتلون بلونين :

- **تعليمي:** من خلاله يدعو إلى إعادة النظر في أمر ما "أما وفر طاعتك ؟ أما نهج سبيلك
" (2).

- **إخباري:** يقدم معلومة و خلال هذه المعلومة يشكو التوحيدى القارئ مأساة فردية
جماعية كأن يعبر مثلا عن حالة من الفراغ الديني كقوله: ألا قارع لباب الله ؟ الا قاصد الى الله
" (3).

الاستفهام الدال على التهكم : وهو استفهام يرمي إلى إحداث صدمة نفسية لدى المخاطب وهذا
اللون من الاستفهام كثير التواتر يبدو التوحيدى عبره كأنه يقف على ربوة ساخرا من مجتمعه
الذي انهارت قيمه " الى متى تظن أنك رابح و أنت خاسر؟ الى متى تحتاج و أنت مكفي؟
م تكن كالحمار فلم تتشبه به؟" (4)

ان الاستفهام غزير جدا في الكتاب و يبدو عموما حول هذه المعاني المذكورة ، و عموما
فالاستفهام لدى التوحيدى في الإشارات لا يرمي الى الاستخبار بقدر ما يرمي الى إشارة العقل في
الإنسان حتى يعي ذاته بشكل ايجابي و الى جانب ذلك فالاستفهام ينشط النص و يبعث فيه الحركة
و يكثف من التعبير عن حالة من القلق و الوحدة قصوى.

1 الاشارات الالهية ص 25

2 68

3 95

4 85

- قد يكون الحجاج من خلال استعمال الأسئلة التي تنتمي الى الاستفهام التقريري حسبما يقتضيه الاستلزام الحواري . فالأسئلة أشد اقناعا للمرسل اليه و أقوى حجة عليه و ذلك عندما يكون قصد المرسل غير مباشر ، فيدرك المرسل في هذه الأسئلة مسبقا أن المرسل اليه لا يخالفه ، الى حد كبير في أي جواب من الاجابات المتوقعة . لأنها معلومة لدى طرفي الخطاب. و هذا ما يجعل التوحيدي يختار هذا الضرب من الحجاج دون غيره. وتكمن قوة الحجاج في هذا الاختلاف التداولي و في الحدس بمدى استجابة المرسل اليه لما يريد ان يقنعه به . فمعرفة المتكلم بموافقة المخاطب او رفضه أجوبته لا تكون إلا من باب التوقع الذي تحدده معرفة الشخص ، كما تحدده م بما فيها المسألة المطروحة ، لذلك فصوغ السؤال يحتكم أساسا الى ما يتصوره المخاطب من علاقات اتفاق او اختلاف تربطه بغيره و بالعالم . و الاستفهام هنا هو الحجج ذاتها كما أنه فعل حجاجي بالقصد المضمّر فيه فوق ما يقتضيه السياق.

علم البديع :

السجع : يبدو أن التوحيدي و ان سجع أحيانا في بعض كتبه لا يعير اهتماما كبيرا لهذا المظهر البلاغي الجمالي لأنه لا يعشق اللفظ دون المعنى و لا يهوى المعنى دون اللفظ ، فهما متكاملان لا يجب تغليب أحدهما على الآخر و في ذلك يقول أحد النقاد " في كتابه الاشارات سجع متصل لا عهد لنا به في كل ما تقدم من مؤلفات أبي حيان التوحيدي ، اصطنع هذا النوع من النثر المسجوع للملائمة بين الشكل و الموضوع فالمناجيات و الابتهالات في أحوج ما تكون الى ايقاع في الالفاظ و تنعيم في العبارات" (1) و رغم ما في هذا الحكم من التعميم اذ أن الاشارات الالهية ليست فق مناجيات و ابتهالات فانه يصلح أن يكون دليلا على تبیین هذا الناقد لتمييز هذا الكتاب بكثرة

مما يجدر الإشارة اليه بداية أن السجع يكشف ذلك التفاعل الذي حصل في الاشارات بين الشكل و المعنى لا يقوى للرسالة الى الكتاب نسب إلا بهما , و هو قوة المناسبة بين ال بين الشكوى و وصف الحال موضوعا لها متى خرجت عنه .
كما وظف أبو حيان فواصل السجع لإبراز مكانة المخاطب لديه بأن جعل كاف المخاطب مقاطع لكلامه (بعدكم , نحوكم , شجوكم/ عليكم , اليكم) مما يؤكد أن

1 محمد عبد المنعم الشيخ: أبو حيان, الدا بية للكتاب تونس 1983 2 334

المخاطب مركز الخطاب عليه, عليه يدور و اليه ينتهي , و أنه قبله المتكلم و غايته التي ليس بعدها غاية.

يقول التوحيد " اللهم عزيز علي أن أقول ما أقول و نصيبي منه اللفظ المحبر
محصولي منه الامر المحسر/ فأما أنت أيها السامع فموكول الى شأنك ما أنت عليه
أهله و به من ودك و شأنك, لا سلطان لي على قلبك و لا مستنبت لي من غيبك" (1)

ففي هذا المثال يتداخل خطابان: مناجاة مقصدها الله و خطاب موجه الى الانسان انطويا الى :

- 1 / .
- 2 / .
- 3 قلبك / غيبك .

ينتمي الزوج الاول الى المناجاة , وينتمي الزوجان الآخران الى الخطاب الموجه الى الانسان و في المناجاة يتقلص السجع عادة فكأنه , أمام الله , ليس في حاجة الى التجميل و التوحيد فأنه عالم .
حتاج الى شكل يخدعه يستميله فهو يلجأ الى مجمل خارجي .

وفي مقام آخر يقول "فقل لي الان : كيف أرجو شفاء مابي ودائي من دوائي , طبيعتي ؟ اتصلت الحروف بالحروف و غارت الظروف في الظروف واشترك المستور

في هذا النموذج نلاحظ نهاية الفواصل :

- (-) :
- الفاصلة الثانية : (مستور -)-
- () - :

بحيث يقوم نصف الحركة (و) كالقاسم المشترك للتعبير بما فيها من طول و امتداد عن التوجع و يفتتح السجع بالفاء و ينتهي بنفس الحرف الذي باقترانه بالواو قد يعبر عن فجعية و تأوه لما للفاء من زفير .

1 353

2 342

وإذا نظرنا الى هذا النموذج "ما لذة خيش مرشوش و ما لذة طيب منشوش,و ما لذة شراب يصدع الرأس و يخثر الانفاس و يفضح الناس بين الناس" (1)

يقوم على لونين من السجع ينتهي الاول بروي (وش) و ينتهي الثاني ب (اش). و للدارس أن يتبين قيمة و دلالة الهمس الذي يوفره السين و الشين و هما يتتابعان موسيقيا,و ما في الشين وحدها من معنى الانبثاث و الانتشار و التوزع, فالسجع مثلما نلاحظ يلعب دورا تعبيريا جماليا الى جانب تعبيره عن أحوال النفس: ان السجع في الاشارات الالهية مستساغ محبب لأن صاحبه لا يعتبره عنصر جمال بقدر ما يتخذه وسيلة للتعبير و الافصاح فهو بسجعه الوظيفي يعبر عن رفضه للقوالب الجاهزة.

ية,فالسجع موسيقى داخلية

- فيها دفء و ايقاع و انسجام و نظام تساهم في رتق نفسية الكاتب المنطوية
ينضاف الى ذلك أن السجع باعتباره موسيقى يتدخل لتعويض حالة الفوضى الخارجية.
فكأننا بالتوحيدي يقول: ما دامت صورة المجتمع مشوشة مضطربة فلم لا يكون السد وسط هذه الفوضى العامة؟.

- **التضاد و التقابل:** و قد عدت من أبرز مقومات الشعر و النثر و مما يستخدم فيهما بكثرة و اقترنت بالطباق الى حد الاشتباه به,لهذا عمد ابن الاثير في القديم و محمد الهادي الطرابلسي في الحديث الى جعلهما واحدا و ذلك بادغام الطباق في المقابلة فأصبحت في معناها الواسع تقع على

و اذا كانت المقابلة في البلاغة القديمة من محسنات المعنى و مما يتناول في باب البديع فانها في
الدرس الحديث من مولدات الحركة و التوتر في الكلام تنته على المعنى و تسهم في شعرية
القصيدة و تكشف عن رؤية القائل و فهمه للوجود.

و قد أشار أكثر من دارس الى أن المقابلة من خصائص الأسلوب في أدب أبي حيان تجرى في
سائر مؤلفاته و تتكثف في نص الاشارات و تأتي لإكساب الفكرة قوة و وضوحا و تفسر بما
يعتري الذات الكاتبة من

فكثيرا ما يلجأ التوحيدي الى استعمال الكلمات المتضادة و المعاني المتقابلة مثل قوله " فاجتهد أن
تصفح عالم ربك المجيد فتعرف منه ما بطن و ما ظهر و ما علن و ما استتر و ما جل و ما
" (1) .اننا في هذا

النموذج أمام تقابل بين أفعال تتقابل في المعنى تقابلا بينيا , و قد يلجأ أحيانا الى أحداث تضاد بين
:

//

لينة // خشونة

ثقله // خفته

قربه // بعده (2)

أما في بعض المواطن الأخرى فيكون التضاد بين المعاني كما في قوله " ان كنت مع الظاهر فأين
الأدب ؟ و ان كنت مع الباطن فأين الطرب ؟" (3) . فالتضاد يتم لديه كما نرى في ثلاثة مستويات:

(, ,)

للنص محدثة داخله حركة ذهنية فيصير النص مبنيا على جدلية الحركة و السكون أو الايجاب و

و قد يلعب هذا التقابل فنيا دورا في التطريز الداخلي فينتقل بالقارئ من الحركة الى النقيض دفعا

و لعل التقابل و التضاد, نفسيا, يفصحان عن ازدواج في شخصية اللرجل و تمزقه بين الشك و اليقين و السخط و الرضى و لهذا كان دائم التردد و الترجح بين القوة و الضعف الذي بدا في شكواه الدائمة التي مل منها أصدقائه و عافه كثير من معارفه. فكلما تفاقم الصراع الداخلي تعاضم لشعوري للمأساة , مأساة الانسان يتمزق و يرى واقعه أكثر تمزقا و

- ان التوحيدي ينقل القارئ - من حالة السلبية و الكسل و الخمول الى حالة

من الحركة تطال العقل و الاحساس فتدفعه الى قراءة أدب جديد يختلف عن أدب الكدية بارة أخرى يسمى التوحيدي أن يكون أدبه مؤلما للآخر في قراءته و تأويله. هنا يصبح الالم بناء, صرخة فزع يطلقها ليثير الانتباه و يخرج الانسان من التلقي الى

ان لغة التوحيدي في الاشارات الالهية كلفة المتصوفة عامة, لغة غير شائعة تثير الدهشة المؤلف فليست المصطلحات وحدها جديدة لأنها تعبر عن باطن منفعل لذلك فهي

توحي و لا تعلن دورها يتمثل في الوصول بالقارئ الى الفيبي و التجارب الروحية.

فهذا التوحيدي يقول "هذا رمز وراءه رمز و اشارة فوقها اشارة و عبارة حولها عبارة " (1) و يقول مواطن آخر " ان اللفظ للعامه

" (2)

اننا مع التوحيدي في نظرتة الى اللغة ازاء اسباب اخرى غير الخيار المبدئي فلغته يحكمها منطق الحظر و الرقابة و المنع" فالتقي ملجم" و هي لكي تسلم من التأويل و يسلم صاحبها من الاضطهاد لا بد أن تكون منغلقة. و لحل السبب الثاني في غموض لغة التوحيدي تكمن في رغبته الدفينة في الانتصار على الآخر, على المجتمع, على قانون اللغة المتعارف اضافة الى أنه يتخذ من اللغة عالمه الذي يمارس فيه حريته لنسيان الواقع لذلك رأينا في التحليل الدلالي

المعجمي ميل الرجل الى تعقيد الجملة كأنه عبرها يتنفس و يجد الارتياح , و بواسطة اللغة يثور اعية , اعية افقدته دلالاته العميقة فصارت اللغة قوالب متحجرة دون روح, لذلك أعاد مثلما رأينا للسجع وظيفته في خدمة المعنى و التقابل دوره في التعبير عن الحيرة و

فالتوحيدي كأنه ينتهك الترابط التقليدي للغة و لوظيفتها اليومية و خاصة لغة الأدب السائد و المباشر الواضح الذي لا عمق فيه , هذا بالاضافة الى ان العصر قد اتسم بتمازج عرقي عجيب , الشيء الذي بات يتهدد اللغة العربية و لا غرابة ان نجد من المؤلفين من يكتب للدفاع عن العربية خوفا عليها من اللحن و التفكك بحكم هذا التمازج فقد كتب ابن خالوية في هذه الفترة كتاب (ليس (1).

أما اذا جارينا البعض في القول بأن اللغة كانت على الدوام مستودعا للسلطة بامتياز فانه يتأكد لدينا اصرار التوحيدي على التميز و مجارة الادب النظامي السائد و الذي يدعم السلطة و يدافع عنها و عن أخطائها .

و لئن كان المحرك الأساسي في اختيار التوحيدي لهذه اللغة الغامضة مبينا على ر يدخل في تكوين نظره التوحيدي الى اللغة فبعد ان كان في الامتاع و المؤانسة لا يرى مانعا في ادراج فاحش الكلام فانه في الاشارات الالهية قد جرد اللغة و صفاها فاذا هي نقية طاهرة فلم تعد لغة "امتاع و مؤانسة" بل تحولت الى لغة تحير و تستفز ، تجعل الآخر يدرك و يفهم ويحيا كما يحيا مبدعها .

وظائف اللغة وفعالية الخطاب (الشعرية الإقناع):

للغة وظائف كثيرة وتصنف هذه الوظائف وفق لاهتمام الدارس عادة، مثل وظائف التسمية و التغيير، وقد تعددت هذه الوظائف بتعدد زوايا النظر، ورغم أهمية كل وظيفة إلا أن اللغة من المنظور الاجتماعي (التداولي) وظيفتين رئيسيتين ترتبطان بمقاصد الإنسان الذي يستعملها وبوضعه الاجتماعي وأهدافه، فالناس لا يتحدثون لمجرد تحريك أعضاء النطق، ولكن ليؤدوا من خلال كلامهم هاتين الوظيفتين وهما: الوظيفة التعاملية و الوظيفة التفاعلية.

فالوظيفة التعاملية هي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات تبرز من خلاله قيمة الاستعمال اللغوي، فيركز المرسل جهده نحو بناء الخطاب ليستطيع المرسل إليه أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة و الدقيقة.

وتعد هذه الوظيفة إحدى مزايا اللغة الطبيعية التي تمكن الناس بها من تطوير ثقافتهم من خلال المعلومات المتناقلة، ومن تحقيق التواصل فيم بينهم، سواء أكان ذلك بغرض التوجيه، أم التعليم، أم غيره.

أما الوظيفة التفاعلية فهي التي يقيم الناس بها علاقاتهم الاجتماعية، ويحققون لأنفسهم غاياتها، وتتمثل في قدر كبير من المعلومات اليومية التي تحدث بينهم، فقد يقتصر دور اللغة في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها، وقد يتجاوز إلى التأثير وغيره.

وي ن دورها الرئيسي في التعبير عن المقاصد التي ينويها المتكلم، فاللغة هنا لا وظيفة مرجعية تحيل إلى مدلول، بل تؤدي وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد أو الهدف الذي من أجله سوق المتكلم خطابه، فقد يقتصر هدفه أحيانا على سد الفراغ في المحادثات أو التعبير عن اللطف و الكياسة أو إعلام الآخر بالاستعداد للدخول معه في أحاديث عفوية يتجاوز مقصده فيها .

ويندرج تحت هاتين الوظيفتين ل، مختلف الوظائف اللغوية التي برزت وفقا لمختلف الاتجاهات اللسانية عناصر الخطاب .

هاتان الوظيفتان من وجهة نظر تداولية على كون الخطاب أي خطاب قائما على جملة من العناصر الأساسية وهي: **المرسل**، فبدونه لا يكون هناك خطاب لأنه طرف الخطاب يتجه به إلى الطرف الثاني ليكمل دائره العملية التخاطبية، بقصد إفهامه مقاصده (الإقناع) أو التأثير فيه (الشعرية).

ولذلك فإنه يختار ما يتناسب مع منزلته ومنزلة المرسل إليه، بما يراعيه عند إعداد خطابه، وفق ما يقتضيه موقعه، إما الموقع الوظيفي أو غيرها كما يتوخى اختيار ما

يناسب مع السياق العام، فخطاب التاجر مع زبونه يختلف حتما عن خطاب تاجر مع مثله، كما يختلف خطاب العسكري عن خطاب المدني، كما أن المقاصد و الأهداف تتنوع بتنوع بعض العناصر السياقية، مما يفرض أطر معينة لا بد من الاستجابة لها فإن كان الهدف الإقناع فإنه يختار من الأدوات اللغوية و الآليات الخطابية ما يبلغه مراده، وإن كان هدفه السيطرة مثلا، فإنه يعتمد إلى الأدوات التي تكفل تحقيقها، وتتعرض هذه العوامل بثتى ضرورها في شكل الخطاب آلياته، وتصبح عنصرا فعالا في تحقيق الخطاب آثاره ونتائجه.

- **المرسل إليه:** وهو طرف الخطاب الثاني، واليه تتجه لغات الخطاب التي تعبر عن مقاصد المرسل وعليه فإنه يمارس بشكل غير مباشر دورا في توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه، وذلك بحضوره الذهبي أو العيني. انطلاقا من علاقاته السابقة بالمرسل وموقفه منه ومن الموضوعات التي يتناولها الخطاب.

السياق: وهو الإطار العام الذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام و الفهم بين طرفي الخطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر، فمن عناصره العلاقة بين المتخاطبين سواء أكانت سلبية أم ايجابية، ولذلك فعدم وجودها يعد توجيها للمرسل في اختياراته ومن عناصره الزمان و المكان اللذان يتلفظ فيهما المرسل بخطابه، فمعرفة عناصر السياق تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها، وعليه فإن اختيار الأدوات و الآليات اللغوية يعد انعكاسا للعناصر التي تشكل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز من خلال لغة الخطاب وبمعرفة يمكن تفكيك هذه اللغة للوصول إلى المعنى المقصود أو الـ

الخطاب: وهو ثمرة اجتماع العناصر الثلاثة السابقة، ففيه تبرز الأدوات اللغوية و الآليات الخطابية ، ومن خلال تتبع خصائصه التعبيرية يمكن معرفة الكيفية التي تعامل بها المرسل مع ذاته، ومع المرسل إليه، هل اجله واحترامه؟ أم أهانه وحقره ؟ هل حاول أن يقربه أم يبعده ؟ هل حاول إقناع أو فرض سلطته عليه مباشرة ؟ كل هذه الاعتبارات وغيرها تبين كيف يمكن للغة في هذه التساؤلات، بل أنها تعكس كل ذلك مباشرة بوصفها حقائق حاضرة.

ومن جهة أخرى يسعى الخطاب من خلال وظيفته التفاعلية و التفاعلية إلى التعبير عن مقاصد معينة وتحقيق أهداف محددة، إذ يبرز في الخطاب مقاصد كثيرة قد تظهر مباشرة من شكل الخطاب، وقد لا تظهر، وعندها تصبح لغة الخطاب شكلا دالا يقود إلى المدلولات المتمركزة خلفه من خلال المعطيات السياقية و العلاقات التخاطبية و الافتراضات المسبقة التي يدركها المرسل أو

يفترض وجودها، فيبني لغة خطابه عليها كما يدركها المرسل إليه، ليستدل على المقاصد من خلالها.

إن فعالية الخطاب لا يمكن أن تتحقق في منظور علم البلاغة إلا بتوفر شرطين أساسيين في النص باعتباره إنتاج لغوي لفظي، يتحدد بأنه ملفوظات لغوية خاضعة للتدوين أو للتحليل الشعرية و التداولية و هو ما يعني أن النص البليغ هو الذي يستعمل الإمكانات الشعرية للألفاظ ويمنحها دورا في الإقناع، يتعلق الأمر بشعرية وظيفية، فالعناية باللفظ لا تنفصل عن إستراتيجية

فالنص في لفظه ومعناه، في نظمه ودلالته، في منطقته وخياله، لا يمكن أن يوصف بالبلاغة إلا إذا استطاع أن يوفر شروطا قادرة، بهذا الشكل أو ذلك، وإلى هذا الحد أو ذاك على مقامها و التأثير في خارجها، فالنص لغة يعني ما تم إظهاره ووضعه على المنصة بغاية الظهور.

وتعني الفعالية لغة القدرة على الفعل و العمل على سبيل الزيا
الإتقان، وتعني في الاصطلاح البلاغي التكتير و الدقة و النجاعة في يتعلق بمردودية الفاعل أو أداة الفعل، وتتحدد فعالية النص في أن يتوفر على ما يكفي من الإمكانات و الخصائص ليفعل في مقامه وسياقه، أو الأصح ليكون فعالا في إدماج المخاطب وإقناعه واستمالاته.

فالنص أداة للفعل في سياق تخاطبي محدد، لكن هذه الأداة تتحول في نفسها إلى موضوع للتفكير و الاشتغال و الإبداع عن المتكلم الفاعل وبهذا التحول يمتلك النص فعالية أكثر قوة و نجاعة.
إن الهدف من التركيز على المتكلم و المخاطب و المقام هو الوقوف على بعض الخصائص الشروط التي يقتضيها الإقناع و الخطاب الإقناعي من مذ يتقاطع فيها الشعري و التداولي أي التخييل و التداول.

أولا المتكلم:

بداية لا بد من الإشارة إلى النظريات التداولية ونظريات التلطف تركز على كفاءة المتلطف باعتبارها مجموع الإمكانات اللسانية و المجموع العام لما يمكن انتاجه وتأويله وهي بهذا المعنى تعيد الاعتبار للمتكلم وتدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار أن المتلطف لا تلزمه الكفاءة اللسانية فقط بل لا بد من كفاءة غير لسانية تهتم العناصر النفسية التي تلعب دورا مهما داخل عمليات الإنتاج و التأويل، وتهتم العناصر الثقافية و الاداولية التي تؤلف المعرفة الضمنية التي يملكها المتلطف عن العالم. وهي بهذا تعيد الاعتبار للكلام أيضا بما هو تحويل نوعي للغة إلى خطاب تحكمه عناصر أخرى غير لسانية تفرض أن تنظر إلى اللغة باعتبارها فعلا تواصليا اجتماعيا.

ولعل الدكتور مصطفى ناصف كان صائبا حين عنون الفصل الخامس في كتابه محاورات مع النثر العربي أبو حيان قارنا لثقافة عصره، وذلك من خلال استيعاب التوحيدي لمكونات بينته النفسية و الاجتماعية العملية⁽¹⁾.

وتشير نظريات التلفظ إلى أهمية كفاءة أخرى، "الإيماء و الحركة" إذ يصعب فصلها عن الكفاءة اللسانية وخاصة عندما يتعلق الأمر الكفاءة التي يقتضيها الإنتاج و ين الكفاءة التي يتطلبها الانجاز، أي انجاز الخطاب الشفوي داخل مقام اجتماعي حي، إن الأمر يتعلق من جهة بكفاءة قبلية أي بنظام تحليلي للخطاب يستتبطه اج ويمكن أن نسمي هذه بكفاءة الإنتاج، ويتعلق من جهة أخرى بكفاءة

بعديّة هي التي تسمح بانجاز الخطاب وتحويله إلى كلام شفوي - بصري وهي نوع المسرحية، لأنها تهم صوت المتكلم وحركته ولباسه و الفضاء الذي يتحرك فيه، ويمكن أن نسميها

(2)»

ه لا ينظر إلى المتكلم على أنه مجرد وذو وضع اعتباري نظري: فهو ليس مجرد مصدر للعمليات كما هو مفهوم من العديد من نظريات اللسان و التواصل الحديثة و لا ينظر إليه على أنه مجرد ذات لسانية، بل يكون الحديث عنه باعتباره فاعلا اجتماعيا يفعل داخل مقامات ووضعيّات ية ملموسة ومحددة، و الكلام الذي يصدر عن هذا المتكلم ليس مجرد رسالة لفظية لسانية، بل هو كل هذه العناصر اللغوية و غير اللغوية التي تتظافر وتتكامل من أجل تشكيل خطاب خاصيته الجوهرية أنه ذو بنية سيميائية متعددة يمكن اللغة اللفظية من التحول إلى فعل لغوي يستطيع التدخل في العالم الخارجي و التأثير في سامعية

وقد اخترت نموذجين الخطاب التوحيدي للكشف عن عناصر كفاءة الإنتاج

اللغوية و الكفاءة الثقافية و الكفاءة النفسية و الكفاءة التداولية: يقول التوحيدي.

النموذج الأول " كيف أتكلم و الواد سقيم ؟ أم كي و خاطر عقيم؟ أم كيف أصبر

البلاء شامل ؟ أم كيف أجزع و العناء حاصر؟ كيف أنس بالصديق و الصديق مداجن؟ أم كيف

أسلو عن الألف مناج؟ أم كيف أثق بما نمق من الخبر وقد كذمني ما حقق بالعيان؟ أم كيف أسكن

إلى الانتباه وقد أفلقني المنام ؟ أم كيف أستريح

بالحرق في جوانح قد تهتكت بالأمانى فما تنفع الراحة المأمولة مع الكرب اللازم، وماذا

1- المجلس الوطني للثقافة الكويت فبراير 1997 147.

2- حسن المودن: الخطاب الاقناعي في البلاغة العربية، 2005 40.

يجدي الرجاء الكذوب مع الخطب المتفاقم؟ الويل لمن أعرض عنه الحق و الويل لمن بلى
بالخلق وكيف لا تعظم البلوى بالخلق على من هو أیض¹

النموذج الثاني: " يا هذا: الغريب من غربت شمس جماله، واغتربت عن حبيبه عذاله واغرب
في أقواله و أفعاله، وغرب في إداره واقباله.....

يا هذا: الغريب من إذا ذكر الحق هجر، وإذا دعا إلى الحق زجر، الغريب من ذا أسند كذب، وإذا
تظاهر عذب، الغريب من إذا قال لم يسمعوا له، وإذا رأو لم يدوروا حوله، الغريب من إذا
تنفس أحرقه الأسى و الأسف، وإن كتم أكمده الحزن و اللهف، الغريب من إذا أقبل لم يوسع له،
وإذا أعرض لم يسأل عنه، الغريب إن سأل لم يعط، وإن سكت لم يبدأ، الغريب من إذا عطس لم
يشمت، وإن مرض لم يتفقد. الغريب من إن زار أغلق دونه الباب، وإن استأذن لم يرفع له
الحجاب، الغريب من إذا نادى لم يجب، وإن هادى لم يجب.

اللهم: إنا قد أصبحنا غرباء بين خلقك، فأنسنا في فنائك، اللهم و أمسينا مهجورين عندهم، فصلنا

يا هذا: أنت الغريب في معنك...²

ج الأول كيف تعدد أفعال الكلام مما يفرض تعددا في الذات المسؤولة عن
فعل الكلام، وذلك باختلاف الوظيفة الخطابية لها. فتبدو ذاتا كلية حين الاقرار
جازمة وأخرى مقموعة وغيرها، حتى في العبارات التي تتماثل فيها مع ضمير المتكلم، ويسيطر
ضمير المخاطب الإخبارية، باعتبار الذات المتكلمة فيها هي صاحبة السلطة في
الكلام و التي تطرح فيها بعض المفاهيم موضع سؤال.

إن التوحيدي يكشف عن كفاءة لغوية عالية باستخدامه الأسئلة الاستفهامية كآلية من الآليات
اللغوية التوجيهية بوصفها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الاجابة عليها ومن ثم
فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث بل وللسيطرة على ذهن المرسل إليه،
وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل لا حسب ما يريده الآخرون، وتعد الأسئلة، خصوصا
الأسئلة المغلقة من أهم الأدوات اللغوية لإستراتيجية التوجيه.

ويقسم بعض وظائف الأسئلة إلى عدة أقسام، إذ بلغت ست عشرة وظيفة وذلك طبقا للتطابق
بين وظيفة السؤال التداولية/الاجتماعية وشكله التركيبي كما يستعملها الناس في الحوارات الثنائية
العادية، وذلك حسب ما يتطلبه السياق إذ وجد أن الأسئلة تستعمل لأنواع متنوعة م

¹ - الإشارات الإلهية، ص292 293.

² - الإشارات الإلهية، ص82 85.

كما أنها تمد المرسل بالوسائل اللازمة للسؤال عن العالم الخارجي، وعن حياة المرسل إليه ومشاعره وعن المناسبات والخبرات المشتركة، وكذلك عن الحوار نفسه.

وتتوزع الوظائف على أربعة أصناف كبرى هي: الوظائف الخارجية، ووظائف الحديث، ووظائف العلاقة بين طرفي الخطاب، ووظائف أسلوب التعبير.

مئة البحث عن المعلومات وتنتهي إلى تقديم المعلومات ويندرج تحت صنف الخارجية أربع وظائف هي البحث عن المعلومات العامة، المعلومات الاجتماعية، الدعوات الاجتماعية، المعلومات الإشارية.

لحديث فهي ثلاث وظائف، وظيفة توضيح المعلومات إعادة المعلومات، تأكيد المعلومات.

وهناك أربع وظائف تدرج تحت الصنف الثالث، صنف العلاقة وهي وظيفة تركيز الحوار، المعلومات المشتركة، المعلومات القولية (وهي التي تمثل الوظيفة الاتصالية للغة عند جاكسون)، توسيع الخطاب.

أما الصنف الرابع صنف أسلوب التعبير فيحوي خمس وظائف وهي: الوظيفة التعليمية، البلاغية، الدعابة، وظيفة توجيه الذات، الكلام التقريري.

و بالرغم من أن بعض خطابات التوحيدى تبدأ بالسؤال، إلا أن المرسل لديه لا يوجه لفعل عملي في المستقبل، ولكنه يوجه المرسل إليه با

عن الحال و الصحة، بغض النظر عن وظيفتها التداولية الأخرى مثل دلالتها على التضامن التقريب عن طرفي الخطاب، ومع هذا فإنها تصنف على أنها خطابات توجيهية، إذ يكفي كونها هي الحافز للمرسل إليه للتلفظ بخطابه.

تبلغ الرغبة لدى التوحيدى في الذهاب بالتحاور إلى أقصاه، حيث يعتمد فيه المتكلم مبدأ المهاجمة عليه يحمل المخاطب على الاعتراض.

إن التوحيدى يرى في مبدأ المحاجة أساس التواصل، بافتراضها أحيانا قا في أفعال طلبية أو اعتماد القياس و البرهان في عرضها و الشرح و التعليل وغيرها في الأساليب الإقناعية التي وظفها.

إن الإقناع بالحجة يبدو في الإشارات بمثابة القانون الإلزامى الذي يحدث التفاعل به، وهو لا يربط بالإكراه أو الإحراج و لا يقصد به ما يضر بأحد المتخاطبين، لأن ذلك من المهاترة التي لا تخلق آليات لفرض وضع القبول، وخاصة في خضم الوضع المفترض، كما هو الشأن في الإشارات، لأن الكلام مع الخصم كما يقول " من المهاترة والمناظرة و المذاكرة، ف المهاترة

فباب ينشأ من التنافس وإيثار الغلبة، وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة، كالرأي المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق، وأما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة و المذاكرة قد تفضي إلى المنافسة وقد توجد بها الفائدة و هي الفكاهاة بين العلماء.¹

إن فعل السؤال لدى التوحيدي دعوة إلى إدراك الذات وهي بداية المعرفة بل إنه فعل السؤال جوهر الفعل المعرفي داخل ثقافة الم .

كما يكشف فعل السؤال رغبة التوحيدي في تجاوز الشعور بالدناءة في المرتبة و الشعور بالهوان من خلال التعويض بما يتكافأ مع حدة الإحساس بالانبتات و الألم في محاولة لتأكيد الذات و التثبيت بالوجود وما سيطرة معاني الفلق و الخوف التي ت

رغبة دفينة في التجاوز بالنزوع إلى العظمة بأتم معنى الكلمة وليس العظمة أو هوس العظمة إلا مبالغة في تقرير القيمة الجسدية أو الذهنية حسب تعريف علماء النفس بدى هذه النزعة في الإشارات الإلهية في المنزع التعليمي القائم على السؤال لاستفهام.

إذ يجد القارئ نفسه أمام شخص يمتلك المعرفة، شخص متعال، يخاطب الناس من بعيد (النداء الاستفهام و أدواته ومعانيه) يتجلى في مظهر المفكر الذي يعيش في برج عاجي قد أدرك مظاهر و أسباب وحلول المصائب الفردية و الجماعية، إنه ينصب نفسه مصلحا يقف أمام مظاهر و الانحراف أخلاقيا ومدافعا عن القيم التي انقلبت ليعيدها إلى وضعها الطبيعي، فكيف يصمت كاتب ومفكر في مثل وعيه إزاء ما يعانیه مجتمعه من تمزق داخلي وانحطاط قيمي وأخطار خارجية تامة؟ فإذا كان التوحيدي قد انسحب من الحياة العامة في شبه عزلة تامة فليست لته عزلة الهارب وإنما هي عزلة (الغريب) المتعاط الذي يعتقد أنه أدرك الحقيقة وهو القائل)² ويقول في موطن آخر (إن اللفظ للعامة و المعنى

3(

إن التوحيدي في النموذج الأول و الثاني هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة وبغرض تحقيق هدف فيه وي سد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده إستراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيا و الاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقق منفعتة الذاتية بتوظيف كفاءته للنجاح في

¹ - الإشارات الإلهية، ص107.

² - الإشارات اللاهية، ص175.

³ - الإشارات الإلهية، ص346.

فالمرسل هو الذي يوظف اللغة في مستوياتها المتميزة، بتفعيلها في نسيج خطابه ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة.

وبهذا الفعل التلغفي، ينقل المرسل اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي و يغدو الخطاب، عندها، مؤشرا على كفاءته بالقدرة على التكيف مع محيطه.

ويرتكز الانجاز الفعلي على أهلية المتكلم (المرسل) لتحديد هدفه، كما أن أهلية المرسل هي المحك الحقيقي لانجاز بعض الأفعال اللغوية التي لا يمكن أن ينجزها دون توفر بعض الشروط فيه مثل توفر الموقع الوظيفي، إلا أن ذلك ليس كافيا، إذ يجب أن ترتكز انجازاته الخطابية أيضا على عامل مهم وهو حصول الإثارة للتلفظ بالخطاب في السياق المناسب لأن ركنا أساسا في تداوليته.

: فالتوحيدي يكشف عن كفاءة تداولية وقدرة تواصلية عالية من خلال حسن

وظيفة للملكات التي يملكها وهي الملكية اللغوية و الملكية المنطقية و الملكية المعرفية و الملكية الإدراكية و الملكية الاجتماعية.

فهو من خلال الملكية اللغوية ينتج خطابا ويؤوله ذلك أن الخطاب يتجلى في مادته اللغوية بشكل معين ولأن المرسل ينتجه في سياق معين.

كانت الخطابات هي انجاز الأفعال اللغوية في الأساس، بما في ذلك تحديد الاشارات التعبير عن المقاصد، وتحقيق الأهداف، فإن كيفية انجازها وتوظيفها في السياق هو ما يحدونا إلى دراسة اللغة في استعمالها دراسة تداولية تعني بكيفية انتاج الخطاب.

وقد رأيت أن أركز على الاشارات التي تصنف في اللغة العربية حسب معايير كثيرة مثل العدد، الجنس، وبعد المرسل أو قربه.

كما أن بعض الضمائر من وجهة نظر الممارسة التداولية لا تثبت في دلالتها على مرجع معين، بل يجد المرسل أن دلالتها في الأصل لا تعني بالتعبير عن قصده تماما كما يريد لذلك يلجأ، أحيانا إلى التلاعب بهذا النظام وإخراج هذه الدوال عن مدلولاتها الأصل.

فيحول بعض الأدوات الاشارية في السياق الاجتماعي مثل الضمائر وغيرها من وظيفتها الدلالية للدلالة على المرجع إلى وظيفتها التداولية بانعكاسها مؤشرا على قصده، إذ أنه من الممكن أن يختار المرسل تلك الضمائر في التفاعل لأسباب اتصاليا كأدوات تعكس المظاهر المتنوعة لسلوك

إن التوحيدي وهو يستخدم تلك الاشارات إنما يهدف إلى تأسيس العلاقة الاجتماعية، والإسهام في تطويرها وقد يكون مؤشرا على الانتماء إلى جماعة معينة أو دليلا على الاتفاق معها في الرأي.

وقد يختلف استعمال الضمائر حسب عد معايير، مثل معيار السن و البيئة وغير ذلك، كما قد يختلف هذا التصنيف بين سكان المدن وسكان القرى وذلك نتيجة لنظرة كل مهم إلى الآخر، فيصنف أبناء المدينة المرسل إليه على أنه من الطبقة المتوسطة، في حين قد يراه أبناء القرية من الطبقة العليا مما يجعلهم يحجمون عن استعمال الضمير المخاطب المفرد، وما ذلك إلا لتأثير العوامل البيئية التي تلون نظرة كل منهم تجاهه، كما تؤثر في انتقاء العلامة اللغوية التي تجسد إستراتيجية الخطاب.

و يتخذ المخاطب في الاشارات (يا هذا) أولوية في مخاطبة المرسل إياه قبل الغائب إذ يأتي في ترتيبه بعد المتكلم لأنه أقرب إليه منه

ويتجاوز غرض الإ إلى هذه الأدوات معيار الوظيفة النحوية البحتة إلى المعيار التداولي وعليه ف هو أوهم في كثير من الخطابات هو للتدليل على الإستراتيجية التضامنية .

وبهذا تتضح أهمية استعمال الاشارات ، حيث إن الضمائر الشخصية بمثابة خدم اللغة المتواضعين إذ يمكن تطويعهم للخدمة في إنجاز الوظائف الرمزية ذات المستوى الرفيع.

ن ضمير الخاطب المفرد هو (أنت)، ولا يقف استعماله في السياق عند الإحالة على المرجع فقط، بل يتجاوز ذلك فيصبح مؤشرا على غرض تداولي.

وهذا ما يوصف ب (أنت) التعاونية، وعليه فالمرسل عند تفاعله يتوفر لديه ثلاثة نم الاستعمال: أنت التعاونية أو المتبادلة، أنتم التعاونية أو المتبادلة أو الاستعمال المختلف، فيشير استعمال أنت إلى أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة من الناحية الاجتماعية و عني بالعلاقة الحميمة بأنها التعابير عن القيم: الموقع الوظيفي وتكرار التواصل، أما أنتم المشتركة فعلى العكس من ذلك حيث لا يعتبر الناس أنفسهم ذوي علاقة حميمة اجتماعيا.

- كما أنه يلجأ إلى استعمالها لتجسيد الإستراتيجية التضامنية، مع المرسل إليه المفترض، خصوصا وسائل الإعلام التي لا تعرف هوية المرسل إليه بالضبط. وقد يبرز استعمالها في الخطاب كونها أداة غير محددة المرجع وهذه خصيصة تعطي الخطاب بعدا تداوليا أوسع، حيث يسو استعمالها لمخاطبة كل من تنطبق عليه سمات المرسل إليه، أي المفترض ولا تتوجه إلى واحد بعينه.

لقد استعمل التوحيدي (أنت) كدلالة على الإستراتيجية التضامنية بين طرفي الخطاب المتكافئين لإضفاء الصدق على خطابه و التودد قصد تحقيق المردود الايجابي على سير العلاقة بينهما وهذا مظهر للتضامن الاجتماعي و التأدب الايجابي.

نحن: يقوم تصنيف الاشارات في اللغة على تصنيف مراجعها في الواقع ليشير إلى مرجع ملازم له. والضمير (نحن) من أصناف تلك الاشارات الشخصية للدلالة على المتكلم الحاضر، انطلاقا من أنه يسمى ضمير المتكلم و المخاطب ضمير حضور، لان صاحبه لا بد أن يكون حاضرا وقت النطق به، ولذلك يعد استعمال المرسل للضمير (نحن) دليل على حضور الطرف الآخر أو استحضاره، حتى لو كان غائبا عن عينه.

ومن جهة أخرى يمكن استعمالها على نحو تداولي بوصفها دلالة على التضامن فيما وضعت له، وفي غير ما وضعت له.

كما أن (نحن) كضمير تستخدم من قبل المرسل بوجهتين: الوجه الأول عندما يجمع في الخطاب بين ذاته وبين المرسل إليه دلالة على التضامن بينهم، أي بين (أنا وانتم) في بنية الخطاب العميقة، أما الوجه الثاني فهو عندما يستعمل الضمير نحن التي يقصد بها المرسل إليه فقط، وهي تنوب عن (أنت) أو (هو) في بنية الخطاب العميقة.

كما قد يستعمل ضمير (نحن) بقصد التستر وراءه، لئلا يدرك الناس المرسل الحقيقي، خصوصا عند ممارسة المناورة الخطابية.

أسماء الإشارة :

تركز الحديث السابق على كيفية التضامن مع المرسل إليه المعين، إلا انه يمكن توجيه هذه الاستعمالات نحو الغائب، للدلالة على التضامن معه بنفس الأدوات التي يستعملها المرسل مع المرسل إليه من ذكره بالاسم الأول أو الكنية، (أيها الغريب) أو اللقب، أو الضمائر، فيد الحسبان الخطاب عن الآخر كما وضع الحساب نحو الآخر، بأن يكشف المرسل عن مدى تضامنه عن المحدث عنه، وبهذا نلخص إلى نتيجة مهمة وهي أن التضامن لا يقتصر على المخاطب بل يتعداه إلى الغائب.

لقد قسم النحويون الإشارة إلى ثلاث مراتب: قربي، ولها المجرد ووسطى ولها ذ ولها ذو الكاف و اللام وبما أن الأداة الأساس في الإشارة هي (إذا) فإن في هذا النص بيان

ويعد الربط بين استعمال اشاريات الغائب وبين الإسناد في اللغة من علامات قدرتها على تجسيد التضامن، كما أن المرسل يبادل بين أسماء الإشارة، خصوصا بين اسمي الإشارة القريب البعيد، فهذه الآلية من الآليات التي يستعملها المرسل للتضامن مع المتحدث عنه، فيعمد إلى استعمال ما يشير إلى البعيد للإشارة به إلى القريب.

واستعمال ضمير الشأن من الأدوات الاشارية التي تبلور التضامن، فالعرب إذا ذكروا جملة من جمل الاسمية أو الفعلية قد يقدمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة وتكون الجملة خيرا عن ذلك الضمير وتفسيرا له و يوحدون الضمير لأنهم يريدون الأمر و الحديث، لأن كل جملة شأن وحديث و لا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفضيم و التعظيم. قال أبو حيان: وهو ضمير يأتي صدر الجملة الخبرية دالا على قصد المتكلم استعظام السامع حديثه ".

وبالنظر إلى ما تقدم فإنه يمكن استخلاص أهم عناصر كفاءة الإنتاج لدى المتكلم لإنتاج الخطاب. وتعني بالكفاءة أولا مجموعة القواعد المستنبطة من الذوات المتكلمة في إطار نسقي أو هي القدرة حكم في قواعد استعمال اللسان داخل وضعيات مختلفة.

وقد حدد البلاغيون كفاءة الإنتاج وفق مستويين:

مستوى عام: ويهم كفاءات عديدة ومتنوعة ضرورية في إنتاج الخطاب كيفما كان نوعه ويمكن أن نسمي كل هذه **الكفاءات:** الكفاءة الموسوعية لأنها كفاءة تتعلق بميادين لغوية وأدبية ومعرفية وثقافية عديدة وهي تؤهل مؤلف الخطاب لإنتاج خطاب يكون له قيمته اللغوية الأدبية ومكانته الاجتماعية الثقافية.

والكفاءة الموسوعية لا تعني كفاءة لغوية وأدبية واسعة فقط، بل أنها كفاءة معرفية وثقافية تتصل بعلوم اللغة و الأدب و التاريخ و الاجتماع والدين، وبكل ما يسهم في تقوية الإنتاج.

مستوى خاص: ويهم كفاءة نوعية تتعلق بالقدرة على الإنتاج في جنس معين من أجناس الخطاب، فالبلಾಗಿون يقفون عند الكفاءة الموسوعية الضرورية لكل منتج للخطاب سواء كان هذا الخطاب شعرا أو خطابة أو كتابة لكنهم يدركون أن هناك خصائص نوعية تميز هذا الجنس من الخطاب

- إن الكفاءة الموسوعية تتوزع إلى ثلاث كفاءات أساس هي: الكفاءة اللغوية الأدبية، الكفاءة الثقافية التداولية، الكفاءة النفسية.

أولاً: الكفاءة اللغوية الأدبية:

تعني الكفاءة اللغوية القدرة على الإنتاج في لغة العرب وفق الأصول التي وضعتها علوم اللغة، وتعني ثانيا أن الكفاءة اللغوية التي يحتاجها الخطيب أو الشاعر أو الكاتب غير التي يحتاجها المتكلم العادي، اللغة التي يتكلمها احد هؤلاء ليست باللغة العادية التي يستعمل في التخاطب اليومي و التي لا ينظر إلى شكلها ونحوها ولفظها وسلامتها وخلوها يكتفي بمضمونها ومقصودها، بل هي لغة شرطها الجوهري أن يحيط صاحبها بكل العلوم اللغوية الضرورية.

ويستحسن في لغة المتكلم أن تكون وسطى، لاهي باللغة السوقية ولاهي باللغة الغربية التي يظهر فيها التكلف و التصنع و الغموض وتكون قادرة على التواصل مع كل

إن الكفاءة اللغوية التي يحتاجها مؤلف الخطاب هنا هي امتلاك ما يكفي من المعرفة و الخبرة لإنتاج خطاب لغوي بليغ، كفاءة لغوية تحاول الجمع بين شعرية اللغة وأدبيتها وبين قدرتها على التواصل و التأثير.

وتوصف اللغة الوسطى التي تقاضيتها بلاغة الخطاب الاقناعي بالسهل الممتع، وبالرغم من الأهمية التي يوليها البلاغيون للكفاءة اللغوية في مختلف أنواعها و أجناسها، النثرية و الشعرية، وفي مختلف مستوياتها، الصوتية و المعجمية و التركيبية و الدلالية، وفي مختلف وظائفها، الدلالية و الشعرية و التداولية فإنهم لا يهتمون بكفاءات أخرى لأن الخطاب لا تصنعه المادة اللغوية وحدها بل لا بد له من مادة أخرى ذات طبيعة ثقافية تداولية يدونها يصعب على الخطاب ان يتدخل في محيطه السويسو ثقافي.

ثانيا: الكفاءة الثقافية التداولية: وتعني بها أن يحيط مؤلف الخطاب بالثقافة التي تحكم العالم خارجي الذي يريد أن يتدخل فيه، وأن يعرف كيف يوظف عناصر هذه الثقافة لصالح الغايات

التداولية لخطابه، و الثقافة هنا مأخوذة في معناها العام، فلا يمكن تصور خطيب أو شاعر كاتب لا يحيط بعلوم العرب وآدابها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطباعها. الحاجة إلى الكفاءة الثقافية تتفاوت تبعاً لطبيعة جنس الخطاب، كما تعني الكفاءة الثقافية، الكفاءة الإيديولوجية التي تؤهل الخطيب أو الشاعر أو الكاتب للدفاع عن عقيدته أو هويته أو مذهبه وقد تتسع لتدل على القدرة بإنتاج خطاب يعرف كيف يخاطب طبقة من الناس في حدود تها ومعرفتها.

ويرى الجاحظ أن الكفاءة الإيديولوجية التي تليق بالمتكلم البليغ هي تلك التي لا تنطلق من أي تميز طبقي أو مذهبي ولا من أي خداع أو احتيال، ولا تتورط في الاختلاف و الفرقة وتسعى إلى بناء خطاب مستقل ومتخلق يخاطب المجتمع في مجموعه وينال موافق قات وانخراطها، ويتأسس على قيم الحق و الصدق و الخير و غايته إصلاح المجتمع وخدمة الصالح العام " فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان يعم و لا يخص، وينصح ولا يغش، وكان شغوفاً بأهـ هل الاختلاف و الفرقة جمعت له الحظوظ في أقطارها وسيقت إليه القلوب بأزمته وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته و ج ت على تصويب إرادته.¹

ثالثاً: الكفاءة النفسية الانفعالية: إن الكفاءة النفسية الانفعالية لدى المتكلم كفا تان الأولى لها علاقة بالحالة النفسية الانفعالية التي يستحسن أن يكون عليها الخطيب أو الشاعر عندما يقبل على الإنتاج، والثانية تتعلق بتلك التي يوحى بها عندما يقبل أحدهما على انجاز خطابه وأدائه أمام سامعيه.

ي الكفاءة الأولى حسن اختيار اللحظات النفسية الانفعالية الأكثر ملائمة لولادة الإبداع الأولى حسن اختيار اللحظات النفسية الانفعالية الأكثر ملائمة لولادة الإبداع، بمعنى أنها تركز على الشروط النفسية التي ينبغي أن تتوفر قبل مرحلة الإبداع، وأهم هذه الشروط أن لا يكون الإبداع خاضعاً لولادة قهرية وعسيرة، فلا يستحسن أن يمارس المبدع لحظة الإبداع نوعاً من المطلوب أن يولد الإبداع كما النهار ولهذا السبب كان

الربط بين لحظة الإبداع و الفجر و السحر.

بمعنى آخر لا يستحسن إكراه النفس على الإنتاج و الإبداع بل يستحب انتظار لحظة استجابة النفس وتجاوبها مع توفر الميل و المحبة.

¹ - الجاحظ: البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون دار الجبل، بيروت ج 2 8.

وعليه الاجتهاد و الإكراه مما ينبغي تجنبه عندما يتعلق الأمر بالولادة الأولى للإبداع لأنهما يسقطان المبدع في التكلف و التصنع إذ لا إكراه في الإبداع.

ويمكن الحديث عن مرحلتين ضروريتين في إنتاج الخطاب: مرحلة ما قبل ولادة الخطاب وهي تستدعي شيئين اثنين: الطبع و الدربة، فلا يكون الإنتاج ممكنا إلا إذا كان المتكلم يتوفر على ما يكفي من التكوين المعرفي و الاستعداد النفسي الضروريين لهذا الإنتاج، والمعرفة هنا قد تكون نظرية فتتعلق باللغة وبأجناس الخطاب وبالآداب وبالعالم و الإنسان و التاريخ، وقد تكون عملية فتتعلق بمختلف المهارات و الخبرات اللغوية والخطابية و الأدبية، التي ليس من الضروري أن يعرفها المتكلم فقط بل وينبغي أن يتدرب ويتمرن عليها أيضا و الاستعداد النفسي قد يعني نوعا من الميول النفسية الانفعالية الفطرية للإبداع وقد تعني معرفة لخطوة الاستعداد لإنتاج الخطاب.

- المرحلة الثانية وهي مرحلة ما بعد الولادة الأولى وتتطلب هذه الولادة الثانية و النهائية للخطاب القدرة على تجاوز الارتياح النفسي الذي قد تبديه الذات تجاه إنتاجها

إن الغاية الجوهرية في كل جنس من أجناس الخطاب هي الفعل في الآخرين والتأثير فيهم ولهذا يقرن إنتاج الخطاب وتكوينه بالحالات النفسية التي يغلب عليها الهدوء و الطمأنينة ويحكمها الوعي و اليقظة.

وإجمالا فإن التركيز البلاغي على يكشف أهميته

لا تعني النص اللغوي اللفظي فقط، بل هي تعني صاحب النص أولا، لأن المتكلم لا يكون بليغا يكون مؤهلا متمكنا من اللغة و الآداب و المعارف وأصول الإنتاج الخطابي وقادرا على توظيف قدراته الصوتية و الحركية و الجسدية لصالح خطابه وهي ما نسميها بكفاءة الانجاز.

المخاطب و الخطاب الاقناعي: في البلاغة ينظر إلى المخاطب نظرة مركبة، المخاطب هو الكائن

الواقعي الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددين،

المخاطب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل إلى متخيل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه، المخاطب الأول بعدي، أي هو من يتوجه إليه المتكلم بعد إنتاج الخطاب و الثاني قبلي، أي هو هذا اطب الذي يستحضره المتكلم قبل إنتاج خطابه. فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم قد كون فكرة مفترضة وصورة متخيلة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه واقعا وفعليا.

ويبقى نجاح الخطاب أو فشله رهين بالمسافة الفاصلة بين المخاطب الواقعي و المخاطب المتخيل، لة بين الصورة المتخيلة وبين الواقع هي التي تحدد فعالية الخطاب. وإذا

كانت المسافة كبيرة، فإن مآل المشروع الإقناعي هو الفشل، وكلما كانت الصورة المتخيلة أقرب

لا يعني المخاطب المتخيل أن المخاطب من صنع الخيال، بل يعني أن المتكلم قبل أن يواجه المخاطب الواقعي بخطابه يكون قد استطاع أن يكون عن المخاطب الواقعي تمثلاً ذهبياً وصورة متخيلة انطلاقاً من معطيات سياقية تخص المخاطب الواقعي.

إن المعطيات السياقية التي تتصل بالمخاطب في الواقع المادي تتحول إلى صور يرسمها المتكلم عن المخاطب وهي معطيات سياقية متعددة ومتنافرة بحسب طبيعة المخاطب وهويته وانتمائه الاجتماعي واللغوي والثقافي وبحسب كفاءته الذهنية والتخييلية، فالمخاطب الواقعي عنصر متغير يحدده المتكلم عندما يختاره هدفاً لمشروع الإقناع والتأثير. فالمسألة التي ينبغي أن يعالجها المتكلم مسبقاً قبل إنتاج الخطاب هي: من يكون المخاطب الذي سيتوجه إليه بالخطاب؟

ويجب التوحيدي عن هذا السؤال في عبارة له وردت في الإشارات "اللفظ للعامة والمعنى"¹ بمعنى أن المخاطب نوعان: مخاطب عام ومخاطب خاص ونعني بالعام الجمهور وخاصة ذلك الذي يواجهه المتكلم بشكل مادي ملموس، وعلى المتكلم أن ينطلق في توجيه خطابه للجمهور العام من المقولة المشهورة "إنما الناس أحاديث فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل" ومعناه أن الناس هم خطابات ولا يؤثر فيهم إلا من وجه لهم أحسن الخطاب وأبلغه، فالذي يجب أن يفكر فيه المتكلم هو بلاغة الخطاب الأكثر تأثيراً في الناس.²

- والخاصة هي الطبقة العليا في المجتمع وتتألف من الأسياد والملوك والوزراء والكتاب والقضاة والعلماء ورجال الأدب، ومع ذلك فهذه الطبقات تتفاوت، فالخطاب الموجه للملوك غير الخطاب الموجه للقضاة ورجال الأدب و

فالمخاطب الخاص هو من يملك أعلى كفاءات التلقي، وما يهم هنا ليس المستوى الاجتماعي للمخاطب بل هو بالدرجة الأولى مستواه الفكري والأدبي، فالخطاب الاستشاري يتطلب نوعية خاصة من المخاطبين، نوعية متميزة في قدراتها الذهنية والنفسية.

وعلى العموم فإن ما يهم في تصنيف المخاطبين إلى عامة وخاصة عناصر ينبغي للمتكلم أن يأخذها بعين الاعتبار قبل إنتاج خطابه أهمها:

ولا بد بالتالي أن يكون الخطاب طبقات وأن من خصائص المتكلم ألا يكلم /1
سيد الأمة بخطاب الأمة.

1- الإشارات الإلهية، ص296.

2- البيان والتبيين، ص75/2.

2/ أن التصنيف الطبقي لا يعني أبدا توجيه الخطاب للخاصة دون العامة، بل الهدف أن يضع لكل طبقة خطابا يناسبها و يطابقها. فقيمة الخطاب تتجلى في تجسيده لهوية طبقة مخاطبيه، فلا يمكن لتواصل أن يحصل ولا للإقناع أن يتحقق إذا واجه المتكلم طبقة من المخاطبين بخطاب يخص

ن شرف الخطاب يتعلق بمطابقته لمخاطبه ونجاعته وفعاليتها في استمسا المخاطب و التأثير فيه.

*** مراعاة حال المخاطب:** إن مراعاة حال المخاطب تعني مراقبة حال المخاطب وتأملها وأخذها بعين الاعتبار، والحال لغة تكون بمعنى التحول و التغيير وبهذا المعنى قد تكون حال المخاطب بمعنى التحولات و التغييرات التي تطرأ عليه وبمعنى أن المخاطب ليس مجرد أداة جامدة مستقبلية للخطاب، بل هو كائن إنساني حي تحكمه ظروف زمانية ومكانية وشروط ونزوعات ذاتية. ومراعاة حال المخاطب تعني أن نأخذ بعين الاعتبار هويته اللغوية الاجتماعية و الثقافية وأن نستحضر الظروف الموضوعية وخصائصه النفسية و الذاتية التي تحكمه وتحدده.

- وفي البلاغة تعني مراعاة الحال أن يراعي المتكلم قدر مخاطبيه ومنزلتهم الاجتماعية، المتكلم البليغ من ينظر في أحوال مخاطبيه ويأخذها بعين الاعتبار في بناء وتشكيل خطابه، ن نجاعة الخطاب وفعله في المخاطب رهينان باستحضار المتكلم

لطبيعة المستمعين ومواقفهم وظروفهم، ويمكن أن نصنف حال المخاطب إلى ثلاث أحوال:

1 مراعاة الحال السوسيو لغوي: الخطاب الإنساني في طبقات، وطبقيته مترتبة عن طبقية المجتمع، فالمخاطبون هم من الناحية الاجتماعية طبقات ولكل طبقة لغتها التي تحدد هويتها السوسيو لغوية. وما ينبغي على المتكلم أن يعرفه هو أنه لا يخاطب دائما من هم نفس الطبقة السوسيو لغوية.

ومن الضروري أن يتعرف المخاطب على نفسه من خلال اللغة التي يخاطب بها أي أن يتعرف على هويته الاجتماعية من خلال الخطاب الموجه إليه ونجاح الخطاب رهين بمخاطبة المخاطب بلغته.

وإجمالا يمكن القول إن مفهوم الطبقة تشير إلى أمرين أساسيين: الأول أن الخطاب ليس نظاما لغويا ثابتا وقارا، بل هو ممارسة اجتماعية، ولكي يكون الخطاب ممارسة اجتماعية فاعلة ومؤثرة لا بد لصاحبه أن يأخذ بعين الاعتبار أن المجتمع موزع إلى فضاءات لغوية خطابية منظمة، أي

أن لكل فضاء اجتماعي شخصية السوسيو لغوية ذلك أن الإقناع يقتضي أن يكلم المتكلم المخاطب باللغة التي يفهمها.

2 مراعاة الحال الذهني و الثقافي: وهو أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار وهو يبني خطابه الكفاءة الذهنية لمخاطبته، فغاية الخطاب هو الإقناع، و الإقناع يقتضي أولاً وأساساً الإفهام، ذلك أن مخاطبة المخاطب بلغته شرط أساس لكي يتحقق في الخطاب الإقناعي الإفهام. إن الدافع الأول الذي يجعل المتكلم يخاطب المخاطب بلغته فهو التمكن من إفهامه باللغة التي يفهمها، و الإفهام هو مدار الأمر عندما يتعلق الأمر بالإقناع و لا يمكن للخطاب أن يكون مقنعا إذا لم يكن واضحاً قابلاً للفهم، وهو لا يكون قابلاً للفهم إلا إذا أخذ بعين الاعتبار كفاءة المخاطب اللغوية و الذهنية.

- إن الخطاب الإقناعي يقوم على مبادئ: أولها أن الإقناع يعني التوجه إلى الع - أجل إفهام المخاطب، وثانيها أن العقل ليس شيئاً مطلقاً، بل هو محدد بمحددات لغوية وذهنية تتفاوت من مخاطب إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، وهو ما ينبغي على المتكلم أن يراعي ذلك في خطابه، فالخطاب البليغ هو الخطاب الواضح المبين الذي يسهل على مخاطبه أن يفهمه ويستوعبه لأن قيمته أن يتحقق فيه البيان.

- وفي البلاغة يكون المخاطب محددًا ثقافياً وكفاءته الذهنية و العقلية تستند إلى مرجعيات ثقافية لا بد من استحضارها، فمراعاة الحال الثقافي للمخاطب تعني أن يوظف المتكلم داخل خطابه المرجعيات الثقافية التي تحظى بالنفوذ و المصادقية في الحقل الثقافي الذي ينتمي إليه المخاطب.

- كما أنه لا بد أن يستند الخطاب إلى أقوال تشكل سلطة مرجعية يعترف بها المخاطب وتحظى بالنفوذ في مجاله السوسيو ثقافي وتسمى هذه الأقوال عند البلاغيين بالشواهد، إذ لهذه الشواهد وظيفة حجاجية مهمة، فهي ذات حمولة معنوية وعقلية بها " يحصل التصديق و الاستدلال الخبر و البرهنة على صدقه " ¹ وهي " حجج جاهزة تكسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها " ²

ويعتبر الشاهد التاريخي أكثر الحجج استخداماً نظراً لقدرته العالية على التصديق لاعتماده على الحقيقة، والشاعر يستغل التاريخ ليحرك المتلقي ويؤثر فيه، عن طريق الكشف عن العلاقات التي تربط الحاضر بالماضي، ومن هنا يلجأ الشاعر إلى التاريخ لتأمله واستخلاص العبرة من

¹ - حبيب أعراب: الحجج و الاستدلال الحد 109

² - :

أحداثه يقول عبد اللطيف عادل " للشعر قوته في البناء اللغوي و المعرفي و الإقناعي داخل هذه

1»

هذه الزاوية لا يتعامل الشاعر مع أحداث التاريخ باعتبارها ماضيا مفصولا عن حاضر متلقيه ولكنه يعالجها باعتبارها أحداثا متصلة بالحاضر وفاعلة فيه، من خلال حضورها في الذاكرة الجماعية للقراء المعاصرين، وبهذا الفهم يمكن للتاريخ أن يشكل قوة دفع توجه المتلقي جهة الصحيحة ونضرب مثلا لفعالية الإقناع التاريخية في الإقناع بقول النابغة الذبياني.²

- يخفه جانبا نيق وتتبعه

- قالت أليتما هذا الحمام لنا

- إلى حمامتنا ونصفه فقد

- تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد

- فكملت مائة فيها حمامتها

فهذه الأبيات من قصيدة طالعها " يا دار مية بالعلياء فالسند " وقد قالها النابغة في مدح الملك النعمان معتذرا إليه عما رماه به الوشاة، ولاقناع الملك ببراءته يدعوه إلى إمعان محيلا إياه على قصة زرقاء اليمامة التي استطاعت أن تعد الحمام بفضل تدقيقها النظر. ومثل هذه الشواهد يشترط فيها أن تكون مشهورة أي لصيدة بالوعي الجماعي وليست مفارقة له كما يجب أن تكون المشابهة قائمة بين قصص الماضي ووقائع الحاضر حتى يتمكن المتلا الربط المؤثر بين الواقعتين.

¹ - عبد اللطيف عادل: خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي، ص 207.

² - ديوان النبغة: شرح وتقديم، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت ط2 86 14.

وإجمالاً فالشاهد خطاب داخل خطاب، وأقوال تنتمي إلى خطابات أخرى وهي لها وظائف متعددة وتنتمي إلى أنواع وأنماط من التعبير، ولكل واحد رتبته في السلم الحجاجي و البلاغي داخل المجال الثقافي، وتعود أهمية الشاهد إلى أن الخطاب لا ينبغي له أن يأتي أحادي اللغة الصوت، فالبلاغة تقتضي أن يستشهد بنصوص وأقوال من خطابات أخرى وأن لا يسمع صوت المتكلم فقط، بل يدعمه بأصوات أخرى لها مصداقيتها وقوتها، فالخطاب المتعدد الأصوات يملك هذه الإمكانية على إسماع أصوات مختلفة، موحياً للمخاطب بأن الخطاب الذي يتلقاه ليس خطاباً شخصياً يخص المتكلم، بل هو خطاب مشترك، يتكلم فيه المتكلم، وتتكلم داخله أصوات أخرى مستمدة من المرجعيات الثقافية التي تحدد المخاطب نفسه.

ثالثاً: مراعاة الحال النفسي الانفعالي: كما أن المخاطب ذهن و عقل فهو أيضاً وانفعال، فالأمر في الواقع يتعلق بكائن انساني يتكون من عنصرين جوهريين العقل و النفس و الخطاب البليغ ما حذب إلى النفوس واتصل بالأذهان على حد تعبير الجاحظ، و الخطاب بهذا المعنى يفرض على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار أن علاقة الخطاب بالمخاطب هي في جانب منها علاقة نفسية انفعالية.

عجمها النفسي، وهو معجم يكشف من جهة أولى، النقاب عن الحركات الجسدية النفسية التي ينبغي أن يثيرها الخطاب البليغ عند المخاطب ومن أهمها استمالة الأسماع، إصغاء الأسماع، تحديق العيون، جذب النفوس، هز الأعطاف الأخذ بمجامع القلوب ويكشف من جهة ثانية النقاب عن أهم الأحاسيس و الانفعالات التي ينبغي أن يثيرها الخطاب عند المتلقي ومن أهمها: الابتهاج، الارتياح، الاستغراب، الإيعتبر عبد القاهر الجرجاني أكثر البلاغيين عناية بالتأثير النفسي للخطاب وخاصة عندما يكون شعرياً استعارياً، و الخطاب البليغ عنده هو الذي يستطيع أن يؤثر في العقل و النفس معا " فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً. فاعلم أنه أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل ينقدح العقل من ¹"

عارة الحال تعني أن اعتبار كل ما يتعلق بالمخاطب لغويًا واجتماعيًا وذهنيًا وثقافيًا ونفسيًا عمل تكويني تأسيسي ضروري في صياغة الخطاب، فالمخاطب عنصر أساس في عملية الإقناع، ليس باعتباره غاية الخطاب فقط، بل باعتباره عنصراً ضرورياً في بنائه وتكوينه.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص4.

* المقام: (لكل مقام مقال):

المقام لغة يعني موضع القدمين، يعني الموضع الذي تقيم فيه، يعني المستقر والإقامة وموضع القيام¹ وبهذا قد يكون " لكل مقام مقال " يعني لكل خطاب مكان يضع فيه قدميه، قد يكون هذا المكان داخليا أي حقل الادب بأغراضه وموضوعاته ولغاته ومقاصده وقد يكون المكان بمعنى الخارج أي ما يقع خارج الأدب مكان القول وزمانه ومخاطبه.

وتعني "لكل مقام مقال " أخذ العلاقة الجدلية بين الخطاب وسياقه بعين الاعتبار و السياق قد يكون النص باعتباره سياقاً وقد يكون السياق الأدبي الذي ينتمي إليه النص وقد يتسع ليبدل على علاقة النص و الخطاب بالإنسان و المجتمع و التاريخ.

كما أنه " لكل مقام مقال " يؤكد على أن الروابط بين الخطاب ومقامه روابط قوية ومبينة، فالمقام ليس مادة لغوية منفصلة عن مقامها و المقام ليس عنصراً يقع خارج المقال وينفصل عنه، وبعبارة أخرى قد يعني هذا المبدأ استحالة الفصل بين المقال و المقام.

و المتكلم البليغ هو الذي اكتملت لديه آلات البلاغة ومن أهم هذه الآلات معرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام² وبعبارة أخرى البليغ من يتقن المرور و التنقل بين المقامات و المقالات وهو من يعرف كيف يوازن بين عناصر المقال اللغوية و الأدبية وبين عناصر المقام ومقتضياته.

سبق فالمقام متعدد المعاني وهي تتفاوت فيما بينهما لذا يمكن أن نشير إلى معنيين

أساسيين:

الأول: مراعاة الألفاظ للأغراض و المقاصد: ونعني بها مراعاة حال المخاطب خاصة على

المستوى اللغوي و الثقافي فلا يستعمل من الألفاظ إلا تلك التي تلائم هذا المستوى، فالحال اللغ والثقافي للمخاطب الذي تقصده بالخطاب هو الذي يحدد نوعية الألفاظ المستعملة من قبل النص و الخطاب. وقد تكون مراعاة اللفظ للحال الذهني فالسكاكي يرى أن " مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"³

- ظ لحال المخاطب بمعنى مراعاة قيمته ومكانته داخل المجتمع فالملوك لا

للمقام تعني العلاقة الجدلية بين المقام و المقال ويكشفان رؤية تداولية تقوم

على اعتبار الدور الذي يكون للمقام في بناء المقال وفي تحديد فعاليته ونجاعته وبذلك ندرك أن

¹ : 3781/5 3787.

² العسكري: كتاب الصناعتين، ص21.

³ : 168.

مقام البيئـة تحدده المسافة بين " أنت كـ كلب في الوفاء، (البادية) و " عيون المها بين الرصافة و
" ()¹

* مراعاة التراكيـب للأغراض و المقاصد: يقول عبد القاهر الجرجاني " الكلام لا يستقيم ولا

تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب
الترتيب الخاص "² فالكلام إذا كان معقدا في تركيبه وترتيبه ويتطلب تكلفا في تأويله، كان فيه
نقص في الإعراب عن مقاصده وأغراضه "

ومراعاة التراكيـب للأغراض و المقاصد تعني أن التركيب أشكال و الصور، ولكل شكل
دلالة على مقاصد محددة، فعندما يختار المتكلم ترتيبا معيناً لألفاظه فلأنه يقصد إلى بناء
صورة تركيبية تلائم غرضه من كلامه.

وتقتضي مراعاة التركيب للمقاصد معرفة المتكلم الفروق بين أشكال التركيب ووجوهه ومعرفة
الفصل و الوصل وموضع كل منهما، ومعرفة التعريف أو التنكير و التقديم و التأخير والحذف
ضمار و الإظهار، كما أن نجاعة الخطاب رهينة بملاءمة صورته التركيبية

للغرض الذي من أجله تم إنتاج الخطاب، ومراعاة المقام تعني أن الدلالة على المقاصد و
الأغراض تقتضي استعمال ما يلائمها من أشكال التركيب وصوره، أي أنه
بين القرص وصوره قوله والسياق الذي يرد فيه الخطاب: فمراعاة المقام هي ضرورة الربط بين
التركيب و الدلالي و التداولي، أي بين شكل الخطاب ودلالته وسياقه.

يقول محمد العمري إن المقام قد حظي " بعناية كبيرة في البلاغة القديمة و الجديدة وكذا في
الدراسات التداولية الحديثة "³ وهو يشير إلى أن المقام يضيف ليقصر على مراعاة حال
المخاطب في لحظة محددة معلومة سلفا للخطيب ويتسع ليشمل المجال أو الإطار الحضاري
المشترك بين الناس عامة أو داخل نسق حضاري ذي طابع متميز، كما أنه يميز بين المقام

السياق، فالثاني لا يهم إلا العلاقات بين الوحدات اللسانية داخل التركيب ويمكن أن يسمى مقاما
داخليا في مقابل المقام الخارجي الذي يهم مستهلك الإنتاج، ويرى الباحث ضرورة التمييز بين
المستمع و المخاطب و التمييز بين الإقناع و الاقتناع الذاتي، ويسجل أن دراسة المقام تساهم في
كشف أوجه الترابط بين أنواع الخطاب، العلمي، الإقناعي، الفلسفي الشعري.

وبعد أن قدم العمري مفهوم المقام في البلاغة الجديدة من خلال تيارها الأساسيين نظرية الحجاج
والبلاغة العامة، خلص إلى أن البلاغة العربية غنية في المجال التداولي وأن دراستها الخطابية

¹ - على بن الجهم حين دخل على الخليفة في بغداد قادما من البادية و البيت الثاني لم يسكن الرصافة في بغداد.

² - : 297.

³ - : 123.

الإقناعية ودراستها المتصلة بالنص القرآني، جديرة بأن تكون موضوعاً للدراسة و التأويل برؤية تحليلية في ضوء المناهج الحديثة وذلك قبل طرح الأسئلة التقويمية أو الحديث عن التجاوز¹. وفي كتابه الذي صدر في السنوات القليلة الأخيرة تحت عنوان " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، يخلص محمد العمري إلى أن تراثنا البلاغي مازال محاوراً يثير الدهشة من جانب الشمول و العمق فهو متشعب المنطلقات و المصادر والمؤثرات و الخلفيات و الأسئلة الاهتمامات وهذا ما جعله يغطي بعدين كبيرين للمجال البلاغي في معناه القديم و الحديث، الغرابة لمناسبة، وهما مكونان متلازمان في الخطاب الأدبي، وتطرح الغرابة مسألة الانزياح فعالية

إجمالاً تعتبر فكرة مطابقة الحال " فكرة جوهرية في بحوث البلاغة و الجدير بالذكر أن البلاغيين يقصدون بالحال حال المخاطب دون حال المتكلم على خلاف النهج النقدي الحديث الذي يعني أيضاً بحال المتكلم"² وهي فكرة تعني أن " نجاعة الخطاب وفعله في المخاطب رهينان إذن باستحضار المتكلم لطبيعة المستمعين ومواقعهم وظروفهم فالقول المقنع لا يكون غفلاً بل حاملاً لانتظارات المتلقين"³

- و خلاصة الكلام أن التفكير في الخطاب الإقناعي يقود إلى ربط الإقناع بعدد من خصائص الخطاب النوعية ذلك أن هناك خصائص نوعية تلعب دوراً مهماً في الإقناع. وبهذا تعود حيوية البلاغة إلى رهانها على خلق تواصل بين الحجة و الأسلوب فالخطاب الإقناعي ليس مجرد حجج عقلية جافة بل هو أسلوب و صورة أيضاً والشعري لا يكون دائماً خطاباً مغلقاً على ذاته، يرفض الاحتكاك بالواقع أو التوجه إلى مخاطب ما، وتكفيه غائيته الجمالية الخالصة، فمن منظور البلاغة ليس الشعري مجرد كلام جميل، بل إنه كلام فعال أيضاً، و التفكير في الوظيفة الحجاجية الإقناعية للشعري لا يعني دائماً البحث في عمليات الحجاج الأكثر قرباً من الاستدلال المنطقي، بل يستلزم النظر في الدور الذي تلعبه العمليات الشعرية في الإقناع و التأثير.

إن التفكير البلاغي يركز على وظيفتين للخطاب ضروريتين و مترابطتين. الإفهام و الامتناع، الناجح و الناجع هو كل خطاب يلبي حاجة المخاطب إلى الجميل وحاجته إلى

¹ - : 129

² - عباس ارحيلة: البحوث الاعجازية و النقد الأدبي، ص360.

³ - عبد اللطيف عادل: خطاب المناظرة في التراث العربي الاسلامي، ص53.

النافع وهو خطاب لا يمكنه أن يؤدي هذه الوظيفة المزدوجة " إلا متى نهض جامعا إلى الجميل
جودة الإفهام وإلى الامتناع و الموانسة"¹

¹ - محمد لطفي اليوسفي: وظيفة الشعر، ص60.

الخاتمة:

لقد اتضح لنا من هذا البحث أن الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي تتكامل من حيث بنيتها و دلالتها إذ حاولنا رصد العلاقة بينهما و سعينا إلى بيان العلاقة الجدلية بينهما من حيث الشعرية

- وقد لاحظنا أن الإبنية اللغوية نحوا و صرفا و بلاغة و معجما تسهم في استقرار النص الولوج إلى عالمه و من ثمة تكون النتائج وليدة هذه الأبنية لا نتيجة عملية اسقاط أفكار جاهزة و مسبقة عليه.

- و تبينا أن فترة كتابة الإشارات الإلهية تكاد تمثل مرحلة أدبية في حياة الرجل، تحمل أوصابه و فجعية ازاء ما حدث لمجتمعه فكان بالرغم من عزلته و تصوفه غير قادر على أن يدير ظهره على مشاكل مجتمعه فبدأ لنا التوحيدي لم يكن فاقدا "للوعي التاريخي" على حد تعبير أحد النقاد بل كان نموذج الأديب الذي آمن برسالة الأدب و هي الإصلاح و التقويم من خلال انتاج خطاب يبتعد عن الصدام و يبني الأنسنة الحياة .

ذات لغة جديدة تخلت على استعمال المحسنات الديعية مجانا فهي بموسيقاها الداخلية تلائم الموضوع و تتنوع في حدثها و لينها يكون الخطاب .

و الى جانب هذه القدرة في جعله أبنية اللغة تتلائم و المضمون فإن التوحيدي بتوخيه لغة موحية نقية موقعة داخليا قد استطاع أن يحل

- و يمكن أن ينقل إلينا احساسه عبر لغته فإذا بالجملة و النداء و الإستفهام و غيرها من الظواهر اللغوية حاملة لتوتر عال من الوجد و الألم إلى جانب صفائها و نقائها لتكون بهذه الصورة نقيضا و بديلا عن لغة الخطاب اليومية و الأدب السائد (أدب الزخرف) و تجاوزا البعض ما كتب هو نفسه .

فلم يعد خطاب الإشارات يفتح على الخارج يعلن عن مضمونه بل صار أصيل إلى ارهاق القارئ في عملية التأويل و التفسير حتى لكأت التوحيدي يؤسس لأدب الرمز الذي نخرج القارئ من سلبية المستهلك الباحث عن الإمتناع و المؤانسة إلى مجال أرحب ، الى ايجابية المبدع الذي يقرأ فيساهم في خلق النص من جديد و انتاج خطاب يتجاوز أزمة نص و خطاب فكأنه أدرك أن العصر بالآمه و مصائبه لا يدعو إلى المتعة بقدر ما يدعو إلى الألم الخلاق فيعمد إلى استفزازه و تجريحه ليثير حيرته و يخرج من خمولة، وفق رؤية تنطلق من أن تحرير الإنسان و مجتمع الإنسان تبدأ من تحرير النص و خطاب النص .

- وإلى جانب ميزة الكتاب لغة فإنه فنيا قد خرج عن نق أدب التوسل الذي كان منذ عهد عبد الحميد الكاتب و الجاحظ عبارة عن مساجلات أدبية (ردّ على ردّ) أو مناظرات حول مسائل فلسفية و فكرية و فقهية .

إلا أن الترسل في رسائل التوحيدي هذه صار مركزا على الذات و يعالج آلام النفس و بواطنها فتحول الترسل على يديه إلى أدب يشبه الى حد ما أدب الإعترافات الذي يكون مركزه قضايا الأنا - إن التوحيدي يؤسس في الإشارات لجنس أدبي بقي جنس مصطلحه الفقهي و هو "الدعاء" و هذا يدفعنا لبحث تأشير الأجناس الأدبية ، و لعل الكاتب كان مصيbachين سمي هذا النوع من الكلام " بالمسألة". ثم هل كان أبو حيان التوحيدي يحمل تصورا واضحا للأجناس الأدبية ؟ و هل كان الجنس الأدبي حاضرا في ذهب التوحيدي و هو يمارس الإنتاج الخطا .

أما على مستوى المنهج :فقد تبين أن المنهج التداولي في الدراسات اللغوية يشكل مصدر ثراء للبحث اللغوي للكشف عن السياق و عناصره المكونة له باعتبارها من عوامل توجيه الخطاب وفق معايير واضحة و هي :

المعيار الإجتماعي ، المعيار اللغوي ، هدف الخطاب.

تراث الغربي في بعض مقارباته يكشف اشارات ذات بعد تداولي ذات صلة بما توصلت إليه الدراسات الغربية المعاصرة في سياق البحث التداولي .

- استنصار النتائج المتوصل إليها في مجال الخطاب و آليات الإقناع و الحجاج في مجالات الحياة

- بحيث مودع الكفاءة التداولية و صناعة الخطاب من خلال مخابر البحث المتخصصة قصد تعميمها في المناهج الدراسية .

و خلاصة البحث الذي يفتح آفاق جديدة هو أن النص التوحيدي قام بنجاحة منظومة الأجناس الأدبية حين تجاوز الأطر التقليدية لفعل الكتابة التي إرتهنت زمانا و مكانا . بمعنى اخر في أي إطار يمكن أن نضع كتاب " الإشارات الإلهية" و هل تتبع منظومة الأجناس الأدبية لهذا النوع من الكتابة ، لا سيما الدعاء الذي ورد على غير الوجه المألوف في الرسائل فهو لا يضطلع بوظيفة الربط بين أجزاء الرسالة و لا يخضع للمقتضيات المقام و التخاطب بل هو خطاب قائم بذاته .

- إن التوحيدي لا يرفض الأدب الحدتي الذي يعن باللحظة المراهنة لأنه جربه و لم يجن منه شيئا فأدرك أن الأدب لا يكون أدبا إلا إذا أنبنى على تجاوز الزمان و المكان نحو المطلق فهل يحتمل

- فهرس الموضوعات -

	- الإهداء
	-
	-
	-
	-
	-
	- مدخل عام: مفاهيم إجرائية و مقاربات نظرية
	- تحديدات اصطلاحية
	- الشعرية
	-
	- ()
	-
	-
	- الفصل الثاني: المنهج التداولي و الأسلوبية
	-: ملامح التداولية
	- ملامح التداولية في التراث العربي
	- التداولية في الدراسات المعاصرة
	ثانيا : الأسلوبية:
	- اتجاهاتها و حدودها
	-
	- الأسلوبية و علم الخطاب

